

الجمعية المصرية للدراسات التاريخية

SOCIÉTÉ ÉGYPTIENNE D'ÉTUDES HISTORIQUES

المجلد،
التاريخية
المصرية

١٩٧١

المجلد الثامن عشر

مطابع سجل العرب

المحتويات

بجوت :

صاحة

- ١ — عبارة الترقى في مصر في العصرين اليوناني والروماني
د . سيد أحمد طي الناصري ١
- ٢ — للكايون
د . فؤاد حسنين ٢١
- ٣ — تطور العمار الإسلامية الدينية بتطور وظائفها
د . سعاد ماهر ٥٥
- ٤ — التنمية الاقتصادية لبلدان الخليج العربي في العصر العباسي
د . ابراهيم أحمد المدوي ٧١
- ٥ — نشأة القاهرة وامتدادها في أيام الأيوبيين
د . عبد الرحمن زكي ١١١
- ٦ — صور من مجتمع القاهرة في العصور الوسطى
د . سميد عبد الفتاح عاشور ١٦١
- ٧ — السلطنة الفونجية الإسلامية في السودان وادي النيل
الأستاذ الشاطر بصلي عبد الجليل ١٧٩
- ٨ — جرتود بل ، أداة الاستعمار البريطاني في العراق
د . محمود حسن صالح مندو ١٩٣

نصوص ووثائق :

رسالة فى إصلاح الدولة العثمانية فى القرن السابع عشر
الشيخ حسن كافى الأخصارى، ورسالته « أصول الحكم فى نظام العالم »
دراسة وتحقيق : عمر نايشيش ٢٢٧

نقد الكتب :

عرض كتاب : تاريخ العالم العربى الحديث ، تأليف ف. لوتسكى
عرض : الأستاذ عبد الخالق محمد لاشين ٢٦٥

أبناء وندوات :

(أ) قرار الأمم المتحدة باعتبار ١٩٧١ عاما دوليا لمحاربة التمييز العنصرى فى
المسلم . ٢٧٣
(ب) ندوة عن المؤرخ العزى « ابن الحكم » وكتابه فتوح مصر . ٢٨٣
(ج) اللوسم التقافى للجمعية المصرية للدراسات التاريخية خلال عام ١٩٧٢/٧١ ٢٧٣

رسائل جامعية :

(أ) رسائل الماجستير ٢٧٤
(ب) رسائل الدكتوراة ٢٧٨

بحوث باللغات الأجنبية :

— Some Financial Aspects of the Waqf System
in Medieval Egypt. by : Dr. Hassanein Rabie

بحوث

obeikandil.com

نظرة على

الإغريق وعبادة العرقي

في مصر في العصرين اليوناني والروماني

بقـ.م

الدكتور سيد أحمد على الناصري

لا يزال حقل دراسة الحضارة اليونانية الرومانية ، في مصر في حاجة ماسة إلى المزيد من البحث والتعمق . فبالرغم من الدراسات المديدة التي قام بها العلماء الأوروبيون في هذا المجال منذ القرن التاسع عشر إلا أن هذا الميدان من الدراسة لا يزال حقلًا بكرًا مليئًا بالغموض والملاسات ، وفي حاجة ماسة إلى الإيضاح والشرح ، ذلك لأن رمال مصر الدافئة لا تزال تخفي تحت طياتها الكثير من الدلائل المادية للحضارة اليونانية والرومانية والتي هي أساس هام لكتابة تاريخ مصر وسبر أغوار الحياة فيها إبان هذه الفترة .

ومما يجعل مجال الدراسة في هذا الميدان صعبًا ، ظروف الدراسة الخاصة ومشاكلها المعقدة - لقد كان للأوروبيين مجال السبق في دراسة الحضارة اليونانية الرومانية وكان معظمهم متخصص في الحضارة اليونانية والرومانية في أوروبا ، ثم جاء معظمهم إلى مصر بحثًا وراء المادة والشهرة العلمية . ولم يمكث في مصر منهم سوى القليل ليقضى وقتًا كافيًا لدرجة تجعله يفهم طبيعة الحياة المصرية الخاصة - ولذا نظرنا إلى الحضارة اليونانية في مصر على أنها امتداد طبيعي لحضارة أوروبا القديمة ولم يمر بيال الكثيرين منهم أن ظروف حياة الإغريق في مصر كانت تختلف عن ظروف حياتهم في أوروبا فاختلقت

(١) أشكر أستاذي الدكتور عبد اللطيف أحمد على لتشجيعه لي على كتابة هذا البحث ، كما أشكر الأستاذ الدكتور أحمد غفرى على إشارته على بعض المراجع .

بالتالى عقلية كل منهم ولو قليلا ولم تمد حضارة اليونان المصرية مطابقة تماما المفهوم حضارة اليونان الأورويين. ولا أريد أن أقول أن قوة شخصية مصر هى التى استوعبت الأغرريق وأثرت فيهم وجملت تفكيرهم يختلف بعض الشيء عن تفكيرهم فى بلادهم الأصلية. وفى ذلك تكمن الأسباب التى كثيرا ما أوقعت المتخصصين فى الحضارة اليونانية فى مصر فى أخطاء جسيمة لأنهم يطبقون مفاهيم اوروية خالصة لتفسير بعض جوانب الحياة والظواهر الاجتماعية الأغرريقية فى مصر. وهناك أمثلة كثيرة يقابلها الباحث عرضاً وقصدا أثناء دراسته فى هذا المجال.

لم تكن مصر كثيرها من البلدان التى قصدها المهاجرون الأغرريق بحثاً عن المال والسكسب التجارى لذات هذا الغرض أو ساروا إليها فى أعقاب جيوش الإسكندر المقدونى الفاتحة - بل كانت بلداً متحضرا، طالما سمعوا عن عجايبها منذ حضارة أجدادهم اللوكيين^(١)، وبلغ أعجاب كتابهم بالحضارة المصرية درجة جعلتهم يعتقدون أن الأغرريق قد أخذوا دينهم وآلهتهم مثلا عن المصريين^(٢) وليس مكان هذا البحث مناقشة أصول الحضارة اليونانية، أهى مصرية أم غير مصرية؟ ولكن من الواضح أنه كانت لمصر مكانة خاصة فى نفوس الأغرريق والثقاقين الرومان. حقا كان ذلك صحيحا، ولكن يجب ألا نقوتنا حقيقة هامة وهى أن بعض الأغرريق الذين أقاموا فى مصر لم يتخلصوا من الإحساس العنصرى الذى جعله يتمسك بغيره شديدة بثقافته وعنصره ويرفض أن يتقبل أى شىء سواها ولذا كان رد الفعل هى وجود طبقة محافظة لدرجة كبيرة بين أغرريق مصر حتى ولو فى الريف المصرى. على أى حال أستطيع أن أقول كانت مصر مزوجة الشخصية فى أوائل حكم الأغرريق لمصر... شخصية هليينية تمثل الجنس الحاكم والأقلية المسيطرة التى آثرت سكنى المدن، وشخصية مصرية وطنية تمثل الغالبية المحكومة التى تتركز فى الريف وتعمل بالزراعة لقد كانت مصر فى أعقاب فتح الإسكندر لمصر وحكم البطالسة الأول كلوحة مزخرفة بلونين متباينين تماما بالرغم من تجاورهما أو إن شئت فقل كالالتقاء مياه النيل بالبحر المتوسط. وقد عبر «فان جرونجن» Van Gronigen عن هذا التناقض بقوله «إنه لمن الصعب أن نجد

(١) انظر بحثى «حضارة كريت وموكيناى» كلية الآداب جامعة القاهرة ١٩٧١.

في العالم القديم تباينا بين شعيتين — وإن شئت قل — بين بلدين — أهدى مما نجد بين بلاد الأغرريق ومصر وبين سكانهما . وقد سبق لهيرودوت أن لاحظ قوة هذا التباين (١) .

وكثيرا ما أدى تجاور الحضارتين المختلفتين إلى العداء إلى حد الاشتباك الدموي بالرغم من سياسة التسامح الديني التي اتبعتها القصر الملكي البطلمي . فشلا تجربنا إحدى الوثائق البردية بمحاذاة طريفة، وهي أن مقدونيا اسمة بطليموس (١) كان يتعبد داخل السيرايوم في ممفيس عندما هاجته الفوجاء المصرية واعتدت عليه بالضرب (٢) كان المثقفون من الجانبين يقفون وراء هذا الخلاف . فمن الجانب الأغرريقي لم يخل الحال من الأغرريق الذين كانوا يتعالمون ويتفاخرون بقوميتهم وبحضارتهم التي حملوها معهم إلى ضفاف النيل من أدب وفلسفة وفنون وعلوم إلى جانب إحساسهم بمنطق الشبب النازي بأنهم فتحوا مصر بقوة الحراب ولذا فهي لهم بهذا الحق . أما الجانب المصري فكان يتمركز في «المعبد» الذي أصبح بمرور الزمن مؤسسة دينية واجتماعية وسياسية وكثيرا ما كان مصدر الثورة والتمرد، وغنى عن الذكر مدينة طيبة المصرية وما سببته من متاعب للحكام المقدونيين وكان يدير المعبد المصري الكهنة وهم أيضاً طبقة مثقفة على الأقل من الناحية القومية والكهنوتية . كان العداء بين الحضارتين يقل ويشند حسب الأحوال السياسية وحسب قوة القصر الملكي . وإذا سمح لي باستعاره نموذجاً معاصراً قلت — إن مصر بدت وكأنها ذات حزبين سياسيين متعاديين في بداية الأمر كان القصر الملكي هو رمز الوجود الأغرريقي في مصر وكان الأغرريق ومعظمهم كانوا جنودا مسرحيين — رجال الملك وخدمته وكان من الطبيعي أن تنضم الأسرة المالكة في أول الأمر إلى جانب الأغرريق بالرغم من تعلقها الظاهري للمصريين ولكن تقيراً يطرأ على سياسة الأسرة المالكة فيما بعد عندما همت بفعل الصراعات الدموية الأسرية وهي محاولة استمالة المعبد المصري وإرضائه بالإناعام عليه بالامتيازات وكان هناك بعض الكهنة من هم على استعداد لخدمة الملوك البطالسة ومن بعدهم الرومان باخضاع التفسيرات الدينية اللازمة لخدمة أهداف سادتهم السياسية .

(١) Bernhardt Van Gronigen, Le gymnasiarque des metropoles de l' Egypte romaine, Paris. Groningen, 1924 P. 4 ff.

U. P. Z. I, 1, 7 13; 8, 14.

(٢)

وبمرور الزمن وبحكم الاحتكاك المادى والمعنوى بين الجنسين نشأت طبقة ثالثة خاصة في الريف المصرى البعيد عن المدن وهى طبقة أنصاف الأغريرق أو أنصاف المصريين أو من الأغريرق المتمصرين أو المصريين المتأغريرقين والى وصفها العلامة بكرمان Bickermann « بأنها الجسر الذى كان يربط بين الحضارتين »

ولا يستطيع الأثرى إلا أن يكون عنها صورة من واقع آثارها ومخلفاتها تظهرها بأنها كانت طبقة من الفقراء والمعدمين عفوية التفكير ، ممزقة وحائرة بين عقيدة المصريين الدينية وللكهنوت الهليني ، بين آلهة النيل الزراعية العلية ، وبين مجمع الأولبوس النظرى المجرد كما يتضح أن هذه الطبقة لم تكن متعذقة أو على قسط كبير من الثقافة والتعليم ولذا آثرت أن تطلق لسجيتهما العنان وتبتمد عن التفلسف والتعميد وتحميل العقل أكثر مما ينبى ولذا أوت ظهرها لفلسفة الديانة الهلينية المعقدة والأصول والأساطير وكذلك فعات بتعاليم الكهنة المصريين وبشعائر المعبد المصرى الصارمة والمركزية فتركت المبادات ذات النظريات الكهنوتية وآثرت أن تتجه إلى الديانة «العمالية» والبسيطة والى تنفق تماذجها من واقع الحياة اليومية الشاقة بهدف تخفيف آلام الحياة عن الإنسان المدمم بإغرائه للانغماس فى النيبيات والغموض . ولما كان اهتمام الإنسان وقلقه يتركز أساساً فى «المادة» التى بها يملأ بطنه ويكسى جسده فقد هدفت ديانة هذه الطبقة الفقيرة إلى التناء (1) Fertility وكرست شعائرها لزيادتها سواء فيما يختص بالمحاصيل الزراعية أو قطعان المواشى والأغنام أو حماية أبنائها من خطر أمراض مصر الحارة وذر العقم عن النساء وقد آثر سير هارولد بل (2) Harold Bell أن يطلق عليها اسم الديانة الشمسية (3) Popular Religion أو كما يسميها العلماء الألمان Voiker Religion ولذا يلاحظ التخصص فى الآثار اليونانية الرومانية اختفاء الآلهة البعيدة عن الفائدة المادية العمالية والى كانت يوماً ما تصول وتجول فى الفكر الدينى الهليني وبقى منها فقط من كان له فى خدمة التناء والمادة دور يلعبه

cf. Archiv für Papyrus forschung, 8, 1927, pp229 – 236f. (1)

cf. J. E. A. Vol XXIII, (1937) , p. 146 F; VolXXXIV, (2) 1948, p. 82 FF. (H. G. Bell).

cf. Annuaire du musée greco-romain d'Alexandrie, (3)

(Par. A. Adriani) Alexandrie (1940 – 50) I p 28 ff.

ويظهر ذلك واضحاً وجلياً إذا ما استعرضنا مجموعة القرآئن الطبيعية الريفية أو التي يطلق عليها الأفرقيون — ربما خطأً — المصرويونانية Graeco-Egyptian كذلك تمكس الحفائر الأريه في المواقع الاغريقية صورة واضحة للطبقات الثلاث التي سبق الحديث عنها وسوف أختار نموذجاً عملياً من إحدى حفريات الأثرى الإيطالي إديرياني Achille Adrian مدير المتحف اليوناني الروماني السابق في منطقة نائمة على شاطئ البحر الأبيض المتوسط ما بين الإسكندرية وكوم سمهدى (كانوب القديمة) لقد أراح هذا العالم الرمال عن محراب صغير عمر فيه على مجموعات من القرابين الدينية الكثيرة موجودة جنباً إلى جنب والتي أمكن تصنيفها إلى ثلاث مجموعات :

١ — قرابين إغريقية فكرياً وفناً zation : Idea and ومعظمها مقدم للآله الإغريقي «هرمس» Hermes وهو رب الاغريق المحافظين لأنه أكثر الآلهة الإغريقية أغرقه ولأنه لم يتمزج بالله شرقي آخر .

(ب) قرابين مصرية فكرياً وفناً ويأتي على رأسها قرابين الإله «نقـرتوم» Nephertoum المرادف تماماً من ناحية المكانة والجوهر للآله الاغريقي «هرمس» .

(ج) قرابين كثيرة منها ما هو شرقي الفكرة وإغريقي التنفيذ مثل قرابين الربة إيزيس والربه غستار Astar أو ممزوجة الفكرة والتنفيذ معاً مثل قرابين الإله ايروس — هاربوكراتيس Eros Harpoerate

من الواضح إذا أن المجموعة الأولى تمثل الطبقة الأولى، والمجموعة الثانية تمثل الطبقة الثانية، والمجموعة الثالثة تمثل الطبقة الثالثة .

كان على أن أستهل البحث بتلك المقدمة قبل أن أطرق الموضوع الأساسي ألا وهو عبادة غرقى النيل كظاهرة دينية يجب إرجاعها إلى الدواع العامة لأنهما لم تولد عفواً أو مجرداً بل هي ظاهرة ذات أصول وإحدى الظواهر الدينية العامة ، مذكراً القارئ بفكرتين يجب أن تكونا في ذهنه قبل الاسترسال في قراءة البحث أولهما ازدواج الشخصية الحضارية لمصر في أول الأمر ثم تليها فيما بعد ، وثانيهما سيطرة القصر الملكي البطلمي ومن بعده حقد الحاكم الروماني على المؤسسات الدينية ،

وكما قلت كان الإغريق رجال الملك وحاميهم في أوضاع لا يرحب أهلها أساساً بهم وحرصهم على تأييد سياسته الدينية (حتى ولو كان ذلك على حساب عواطفهم الدينية الدينية بالرغم من كرههم لها هو غير يوناني ويتمثل ذلك في قبولهم عبادة هيرابيس (Sarapis) ويقابل ذلك ازدياد سلطة المعبد المصري ووجود كهنة على استعداد أن يرضوا الملك البطلمي أو الإمبراطور الروماني مقابل الحصول على امتيازات ومحموق وكانوا على استعداد لتنفيذ وفلسفة أي فكرة سياسية أو شخصية بينهما الملك أو الإمبراطور وتحويلها إلى عبادة ذات قواعد وشعائر . بين هاتين للفئتين انحصرت فئة نائلة لها الغالبية وهي فئة الفلاحين الإغريق المتعمرين أو المصريين المتأخرين والتي طغنتها الحياة القاسية فانصرف عن العبادات الرسمية المتعمرة وراحت تبحث عن شعائر شعبية بسيطة تشبع بها أمانها النفسية وتهدف إلى المادة والنفعية خاصة في مجال الحطب والنماء . تلك هي التربة التي بذغت فيها الديانات والشعائر في مصر في العصر اليوناني الروماني .

من الأمانة العلمية أن أعترف أنني لست أول من حاول الكتابة عن هذا الموضوع فقد سبقني إليه بعض الدارسين البارزين في مجال الدراسات المصرية القديمة ولكنه لم يعالج بالتفصيل من قبل المختصين بالدراسات اليونانية والرومانية ولما كنت غير متخصص في المجال الأول فإني سوف أكتفي بمرص الآراء المختلفة لمن عالجوا هذا الموضوع من أساتذة الدراسات المصرية ثم أعالج فكرة عبادة غرقى في مفهوم الإغريق وبعد ذلك تجرى دراسة مقارنة نستخلص في النهاية ما يزيد أن نصل إليه .

من الواضح أن عبادة غرقى النيل كانت من أبرز العبادات الشعبية في مصر القديمة والتي انبثقت من العبادة الرسمية للإله (١) أوزيريس والتي قويت أثناء حكم البطالمة ووصلت إلى قمته كعباده شعبية أثناء حكم الرومان لمصر (١) . ولكن هذه الدراسة أصبحت في حاجة إلى إعادة النظر بعد ظهور أدلة أثرية يونانية مصرية مثل

Mustapha El - Amir : , The Cult of Hryw at Thebes (١)
in the Ptolemaic Period, in Journal of Egyptian Archaeology,

مقام الفتاة الأغرقيّة إيسيدورا الذي عثر عليه في مدينة هرملوبوليس Hermonopolis في تونا الجليل وما أثاره النقش الذي عثر عليه هناك. والذي سوف نتعرض له بالتفصيل فيما بعد، وكذلك بعد العثور على واجهة ضريح آخر لفتاه إيمها اسكسليانس أيضاً شهيدته العرق في النيل. إذا أصبحت فكره تألية عرقى النيل موضوعاً عليهم الديانة اليونانية الشعبية في مصر بقدر ما فهم الديانة الشعبية المصرية الوطنية. لقد أحسست بعد قراءتي لما كتب عن هذه الفكرة سواء من وجهة النظر المصرية الوطنية أو من وجهة النظر الأغرقيّة البحث أن هناك حلقة مفقودة وهي دراسة هذه الظاهرة على ضوء الواقع الحضارى لمصر في العصر اليونانى الرومانى وخاصة من وجهة نظر طبقه الفلاحين الأغرقيّين التى نشأت في مصر والتي سبق الحديث عنها. وفي بحثى هذا سوف أتعرض لفكرة تألية عرقى النيل من وجهة النظر المصرية كقارىء مجتهد ولست كنتخصص وبمد ذلك أتعرض لنفس الفكرة من وجهة النظر الأغرقيّة ثم تلقى أضواء على هذه العبادة خاصة بمد عرق فى الأمبراطور الرومانى هادريانوس فى النيل أثناء رحلة الأمبراطور النيلية إلى مصر العليا لأن عبادة الفقى العريق انتينوس (Antinous) تبلورت عقب هذا الحادث.

عالجت العالمة مارجرىت موارى Margarette Murry فكرة عباده العرقى في مقال شيق أشارت فيه إلى أهمية الماء في المجتمعات الزراعية وإلى اهتمام الإنسان به لأنه أساس كل شيء حى. كما أشارت من ناحية أخرى إلى محاولات المجتمعات الزراعية البدائية لتجسيد إله للماء سواء في شكل بشرى anthropomorphic أو في شكل حيوانى Theriomorphic. وذلك لأن الإنسان حرص على حصول الأمطار وفيضان الأنهار بنفس القدر الذى يخاف من ازديادها نظراً لما قد تحدثه من كوارث وخسائر ولما كانت مصر صحراء لا حياة لها إلا بالنيل فقد كان من الطبيعى أن يلعب النيل دوراً أساسياً في الديانة للمصريه (١). كما أشارت هذه العالمة إلى بحث المؤرخ

(١) M. Murry: «Cult of the drowned in Egypt», Zeitschrift Für Aegyptisch Sprache, LI-LII (1914-15) pp 127-135. (p 133).

بلوتارخوس للشهير عن أسطورة إيزيس وأوزوريس والذي ذكر فيه أن أوزوريس عبد تحت اسم الماء المتدفق *Ostris efflux* (١) كما ذكر أيضاً أن الكهنة المصريين كانوا يحملون جرارا مملوءة بمياه النيل في مقدمة إستعراضاتهم الدينية ويلقون بالماء منه ويسره وهم يطلقون صيحات عالية وكأنهم قد عثروا على أعضاء جسد أوزوريس الغريق في النيل (٢). وأوضحت ماري السبب الذي جعل المصريين يحرمون أكل كل ما يعيش في النيل كالسمك و فرس النهر والتماسيح بل واعتبر بعضها مقدساً (٣).

وقد أشارت أيضاً إلى تأثير الملك بهذه العبادة لأن — كما وضع الأستاذ الدكتور الأمير في مقالته — المصري أحس بأن الآلهة بعينده ولنكن الحاكم قريب منه ذي أثر فعال ومحسوس لديه (٤) فضلاً على أن الملك كان سليل الآلهة بحكم العادة. ولذا يرتبط أوزوريس بالملك كرمز للماء والنماء كما وضع العلامة جريفت أن أوزوريس والملك يرتبطا بالنجم *Sothis* (الشعري) لأن هذا النجم كان يظهر وقت بداية الفيضان وبداية السنة الزراعية بل وأن هذا النجم كان يصطحب روح الملك عندما تغادر الأرض إلى السماء (٥).

وخلاصة القول أن أوزيريس والنجم *Sothis* نجم القري الذي هو بداية السنة المصرية الزراعية الجديدة كانوا نالوناً مترادفاً وأن هذه الفكرة أدت إلى وجود فكرة البعث السنوي فعندما تنتهي الدورة الزراعية وتدفق البذور في التربة تعود الحياة مرة أخرى مع الربيع (٦) ومن الواضح أن هذه الفكرة قد أشار إليها

(1) De Iside et Osiride, XXXII 2; XXXIII, 1; XXXIV, 2 also d, J. Gwyu Griffith, The Origins of Osiris, (Berlin 1966) pp. 9-100.

ibidem XXXIX, 5.

Ibid VII 2 ; XXX 11,2.

J. E. A, loc. cit, p 84.

cf J. Griffith op. cit p. 99-100

Griffith op. :

(٢)

(٣)

(٤)

(٥)

(٦)

فريزر Frazer في عمله العظيم « الفصن الذهبي ^(١) » وأخيراً يلفت نظري ما ذكرته مارجريت ماري عن فكرة تألية البشر وخاصة الملوك أو الأبطال إذا ما ضحوا بأنفسهم في سبيل شعوبهم خاصة إذا افتدوا أنفسهم وقدموها قرباناً من أجل دفع كارثة محققة عن شعوبهم كما ذكرت ماري أن تقديم النفس قرباناً عن طريق الترق في الماء كانت شائعة في العالم القديم . كما ذكرت أن عادة أوزيريس كانت تقوم أساساً على تضحيته بنفسه من أجل رخاء مصر ^(٢) ولهذا كان يحتمل كل عام بموت أوزيريس حيث يجرى على ضفاف البحيرات المقدسة في المعابد عرض تمثيلي Passion play يظهر فيه الكهنة وهم يبحثون بحثون عن أوزيريس المفقود ويخبرنا هيرودوت أن ذلك كان يحدث في مدينة صالحجر Sais كل عام ^(٣) .

والآن نعود ونسأل لماذا قدس الفرق عند المصريين من الواضح أن الديانة المصرية الشعبية رأت أن للفرق الذين يموتون في النيل — الذي هو روح أوزيريس العظيم — ينالهم شرف التأليه وتصبح أجسادهم مقدسة (neoyes hemitheoi) ويروى لنا هيرودوت أن جثمان الفريق كانت غاية في القداسة لذلك لم يكن يسمح لأحد سوى الكهنة وحدهم بلمسها فكانوا يعدونها لكي تدفن أينما ألقى النيل بالجثة . كما كانت الجثة تلقى تكريماً معيناً ومراسم جنازية خاصة لأن الجثة قد نشبت بماء النيل ومن ثم روح أوزيريس رب الحير والزرع والنبات . كما أثار علماء الدراسات المصرية خاصة Criffith عندما علق على ما ذكره هيرودوت في الكتاب الثاني ^(٤) وكيس Kees وآلان رو Alan Rowe ^(٥) ثم الأمير في مقاله

(1) cf J. Fraser, Sir., Golden Bough, Vol V (Adonis, Athia and Osiris) p. 296 ff.

(2) Murry, loc. cit p 1 29 ff.

(3) Herodotus, II, 170.

(4) Herodotus, II, 90 = Criffin in Zs, 46 p. 132.

(5) cf. Alan Rowe, Newly identified Monuments in the Egyptian Museum, Showing the deification of the Dead together with brief details of Similar aspects everywhere, A. S. A. E, Vol XL, (1904) pp 1-67.

الذى أشرنا إليه⁽¹⁾ إلى اللقب الخاص بنرقى النيل. وأوضح الأستاذ الدكتور الأمير أن هناك لفظان في الوثائق الخاصة بالشعائر الجنائزية يشيران إلى غرقى النيل وهما hry و hay وتوصل الأستاذ الدكتور الأمير إلى أن hry تعنى التقديس بمعنى « سيدنا » و hay تعنى « الشهيد ». وقد وضع ذلك فيما يتعلق بمهد دندور Dendur في النوبة والذى أقيم لأخوين مانا غرقا وهما بيتيسى Peteisi ويحور Pihor في العصر الرومانى⁽²⁾. كما أشار جريفت إلى أن الغريق المصرى كان يعطى لقباً مؤلماً مثل P-hay أو Shay en Kent وهو نفس اللقب الذى أعطى للإمبراطور الرومانى أنتونينوس ييوس Antoninus Pius والذى يرادف الكلمة الأخرى الشهيرة Agathodaimon Aegyptou أى بركة مصر وتؤيد الرسومات المصرية ذلك عندما تصور الغريق hay وهو يضع فوق رأسه الحية المقدسة Uraeus دليل القداسة والأخصاب بل ويرتدون أحياناً تاج أوزيريس نفسه⁽³⁾. نستطيع أن نوجز رأى أساتذة الدراسات المصرية — مع تحفظنا على اختلاف بعض وجهات النظر فيما بينهم — أن أوزيريس والنيل أو الفيضان والنجم Sothis والملك ارتبطت بعضها ببعض وبالتالي فإن غرقى النيل يناون القداسة لتشبع أجسادهم بروح الإله المانح للماء والنيل ولذا أصبح غريق النيل شهيداً مباركاً.

كما أن الروايات اشتركت، فكره تقديم أوزيريس نفسه قرباناً من أجل رضاء مصر وهذا خاص بالملوك والأبطال.

أما بالنسبة لبلاد اليونان فالأمر مختلف تماماً. إذ أن بلاد اليونان أرض جبلية مقفرة وأن اليونانيين يتمدون على ركوب البحر أكثر من اعتمادهم على زراعة الأرض ولهذا نجد الروايات تتحدث عن تقديس غرقى البحر أكثر من غرقى الأنهار أو الينابيع. وعلى أى حال يجب أن أشير إلى دراستين إحداهما نظرية

(1) J. E. A., 37, p. 83 ff.

(2) Ibidem p. 84 f.

(3) Griffith, loc cit p. 132 Seg., Murray AZ, loc cit p. 135.

قام بها ريتشارد لايتيمور Richard Lattimore⁽¹⁾ عنى فيها بالنظريات والمعتقدات التي تسكن في نقوش القبور اليونانية واللاتينية واستنتج منها أن الموقع عموماً في نظر الإغريق — أنصاف آلهة وأبطال — بحكم انتقالهم إلى عالم الخلود عالم هاوس المظلم. وأن الموت إذا حاق بالقتال قبل أن تزف إلى عريسها اعتبر أمراً محزناً ولذا اعتبرت القتلى عذراء بأنها عروس الموت زيادة في الإجلال والتدريس وذكر لايتيمور فيها ذكر أمثلة عديدة عن مراثيات العذراوات ومن بينها (وهو لا يدري أهمية هذا الرثاء —) رثاء أسيديورا الشهير — والذي سوف نتعرض له فيما بعد. أما الدراسة الأخرى فهي مقال كتبه زميل باحث في معهد الآثار التابع لجامعة بون عالج فيه الجانب الفني للوحات القبور في أثينا وخاصة شاهد قبر السيد هيجيسو Hegeso⁽²⁾ وبين فيه كيف أن الشكل الذي صور به الموتى كان مثلثياً أعلى من البشر وأن الأردية والأحذية التي كانوا يرتدونها هي نفس الأردية والأحذية التي ظهرت بها الآلهة وأكثر من هذا فإن الحى يبدو صغيراً بجوار صورة الميت. وخلاصة ما سبق ذكره هو أن الإغريق نظروا إلى الموتى عامة نظرة تقديس وأن عبادة القرى قد يتمد جذورها إلى عبادة الموتى الشاملة ولكن هذا لا يهنا كثيراً بقدر ما يهنا تتبع نماذج من التراث الإغريقي عبر اللوسوعات الأسطورية بحثاً عن عبادة القرى.

من أشهر القديسين القرى في الأساطير اليونانية ميليكريتيس Melicretes وأمه إينوه، يروي لنا الكاتب والرحالة باوسانياس كيف أن الفتى وأمه إحتضن كل منهما الآخر والقتا بنفسيهما في البحر ففرقا ولما لفظ البحر جثة الأم قرب شاطئ ميجارا إحتفى أهل هذه المنطقة بالجثة وأقاموا لها الشعائر اللائقة ودفنوها ممززة مكرمة⁽³⁾. وكذلك فعل البحر بجثة ميليكريتيس حيث لفظها قرب خليج كورنثا (Corinth). وهناك كان أهل الخليج يحتفلون كل عام بموت هذا الشهيد بصراخ

(1) Richard Lattimore, Themes in Greek and Latin Epitaphs, Urbana 1962

(2) Juergen Thimme, Die Stele der Hegeso als Zeugnis des Attisches Grabkultes in Antike Kunst, 1964. P 1677.

(3) Pausanias, I 42,8.

جنازى ثم بأقامة مهرجانات رياضية على شرفه وقد أثارَت هذه المهرجانات الجنازنية امتعاض القديس كلنت (١) St. Clement . ومن أشهر روايات الترقى القتلى رواية الشاعر الأسطوري أرفيوس Orpheus الذى روى بأنه نساء تراقيا Thracia مزقته إربا إربا ثم ألقت بأوصاله فى البحر وحمل التيار رأس الشاعر تنفن إلى جزيرة لسبوس Lesbos حيث احتفى بها وبصاحبها الذى أصبح نبيا لفلسفة الأورفيه (٢) . وبين الروايات الأغرريقية أيضاً قصة بولينا Bolina الفتاة الجميلة التى راح الآله أبوللون يطاردها ولما وجدت أنها لن تهرب منة ألقت بنفسها فى البحر ففرقت وماتت . ومن ثم أصبحت مقدسة ومخلدة (٣) . وكذلك تروى الأساطير أن أحد أبناء ليكيا واسمة جلاد كوبييل Glaucus والذى كان يقود كتائب قومه فى حرب طروادة ألقى بنفسه فى البحر وأصبح إلهاله (٤) . ومن أشهر الروايات عن الترقى المخلدين رواية مرتيلوس Myrtilus سائق عربة الملك إيناماموس Oenomans الذى بعد أن ندم على حياته لسيدة بيوليس Pelops ملك بيسا Fisa ألقى بنفسه فى البحر فخلد وأن إشتق إسم البحر الذى غرق فيه من إسمه Myrtoan (٥) . ومن الروايات الشهيرة رواية الملك إيجيوس Aegens ملك أتیکا الذى ألقى بنفسه فى البحر ظاناً أن ابنه لم يعد من كريت سالما ومات غريقاً وأصبح إسمه يطلق على بحر إيجيه أو البحر الأيجهى . كما يروى لنا التراث الشعبى القديم أن بعض الترقى يخلدون عن طريق إطلاق أسمائهم على بعض المدن فمثلا مدينة كانوبوس المصرية (كوم سمعدى) قيل إنها بنيت لتخليد ربان سفينة الملك مينالاؤوس Menalaos والذى غرق قرب هذ المدينة ، كما يؤكد سويدنس Suidas (٦) وروفيئوس Rufinus أن الماء عبدنى مدينة كانوب (كانوبوس

(1) Exhortationes, 41 ; of Pausanias vii, 22,3

(2) Of M.P. Nilsson in the Oxford Classical Dictionary P.627 Sub Orpheus.

(3) Cf Pausanias, VII, 23,3.

(4) cf. J.H. Rose in The Oxford Classical Dictionary p 388 Sub Glaucus.

(5) cf Roscher lexicon Sub Myrtilos -- J.H.Rose... O.C.D.p.661 Sub. pelops.

(6) Sidas, Lexicon, II, p 239

(7) Rufinus : Ecc. Hist, II, Chapter 26

(Canopus) بل أن كانوب اعتبر إلهاً للماء ، ومن الروايات الطريفة أن كانوب هزم النار معبود الكلدانيين بأن أطفأها ومن ثم كان لهذا الإله كهنة اشتهروا بالسحر كما يروى روفينوس، وجدير بالذكر أن بلوتارخوس ناظر بين أوزيريس وكانوب واعتبرها صنوان من ناحية القدسية والأختصاص . ومن الروايات اليونانية الطريفة رواية الفتى ناركيسوس Narcissus الذي عشق نفسه بالنظر إلى نفسه على صفحة بحيرة . لدرجة أنه ألقى بنفسه فيها مات غريقاً ومن ثم أصبح أيضاً ربا للاخصاب والزراعة . حتى الروايات الرومانية ذكرت أن إينياس بطل الأيناهمات غريقاً في نهر نوميكوس Numicus ومن ثم أصبح مؤلهماً (١) .

كذلك لم تكن فكرة البحث عن جثة بطل غريق غائبة عن التراث الأغريقي وخاصة الديني . ومن أشهر هذه الروايات ذات الشرائع أسطورة الفتى هيلاس Hylas . كان هيلاس فتى هيراكليس بطل الأغريق وقائد رحلة السفينة أرجوس إلى كورنيس للحصول على الفروة الذهبية ؛ ذهب الغلام مع مولاه في هذه الرحلة وعند ميسيا Mysia في آسيا الصغرى توتف بحارة السفينة للراحة وانازل العشاء وذهب هيلاس ليملاً أبريق الماء لسيدة من ينبوع قريب وكان هذا الينبوع يقع وسط الأعراس والأدغال المليئة بالزهور وعندما انحنى الفتى ليملاً الأبريق أبصرته حوريات الماء اللاتي كن يسكن في قاع هذا الينبوع فهمن به حباً ومددن أيديهن له وهن ينشدن أعذب الأناشيد حتى أمسكن بيديه وجذبته إلى أعماق الينبوع . ولما إستبطأ هيراكليس صبيه راح يبحث عنه وينادى عليه وصاح ثلاث صيحات منادياً إياه بأسمه ويأتي برد الفتى من أعماق الينبوع (٢) . و يروى لنا الرحالة الجغرافي إسترابون أن جماهير غفيرة كانت تخرج كل عام في مدينة كيوس Kios بآسيا الصغرى يبحثون عن هيلاس وينادون عليه ثلاث مرات (٣) في الأعراس المحيطة بالمدينة (٤) . وكما يقول الشاعر الهلينيستي الشهير ثيوكر يتوس

(1) cf. Livy. 12, 6 : Pliny Hist. Nat. 3, 56; Aeniad, 1, 259, '4

(2) cf. M.S. Khafaga : Hylas p67 f _

(3) cf Strabo xII, 4,3

(4) cf Theocritus. Idyl. II, xIII

Theocritus أن هذا الفتى أصبح « مباركا » بعد حفظه على أيدي حوريات الماء كما أنه أصبح ربا للزراعة والحصب والماء والتماء مثله في ذلك مثل أوزيريس وكاتبوب . يتضح من هذه الرواية أن وجهه النظر الأفريقية تؤله للفرعق لاجمخ خلوده في عالم الموتى فحسب لأن حوريات الماء قد حفظته فنال بذلك شرف التقديس ، عندئذ يصبح الفرعق مقدساً ولاسيما إن كان فتاة كما في حالة إيسيدورا واسكليباس اللتين أصبحتا من بين حوريات الماء ولهن نفس القداسة والسكانة .

والآن لنعرض لابسيدورا Isidora الفتاة المـذراء التي خلدها والدها بمراثياته على حوائط ضريحها والذي عثرت عليه بعثة كلية الآداب جامعة القاهرة عام ١٩٣١ في تونا الجبل (Hermopolis) الذي يقع ضريح السيدورا بالقرب من مقبرة بتوزيريس Peto الشهيرة . ويعرف علماء النقوش اليونانية إيسيدورا جيداً من خلال ثلاث قطع رثاء صيغت شعراً على واجهة البوابة الداخيلة (Prothyron) المؤدية للمقام نفسه Thalamos وقد قام العالم الفرنسي Graindor بنشر نصوص هذه المراثيات لأول مرة في مجلة المعهد الفرنسي للآثار الشرقية (١) .

وما أن ظهر النقش حتى تلهفه العلماء بالدراسة والتفسير وقد كلفهم ذلك جهداً كبيراً نظراً لسوء الحالة التي عليها وقد أمكن قراءة وترجمة اثنين من هذه النقوش أما الثالث فهو في حالة يصعب معها قراءته وترجمته . يقول النقش الأول الذي يجمى على لسان المذراء الفريقة « إن الذي أقام لك هذا الضريح يا إيسيدورا هن في الحقيقة الحوريات بنات الماء . لقد بدأ رسم بنات النيل ليبنه غريفا كالذي يحتويه في أعماقه والذي يستطيع أن يراه في قصر ابيه ، إن الحورية كرينايا التي خطفت الفتى هيلاسي ليصبح زوجاً لها قد أقامت العمودين الذين يحيطان بالواجهة حيث ترفع بنفسها القبة دون حاجة إلى أعمدة وتزينها بالنجوم أما حوريات الجبل Oreiades فقد اخترن هذا المكان المناسب ليقمن عليه ضريحاً لم يكن مثيله لأحد قط (٢) » أما النقش الثاني الذي جاء يقطر حزناً وعلى لسان أبيها أيضاً « لا . لن

(1) B.I.F.A.O., xxxiii, 1932, p98 f.

(2) cf. B.I.F.A.O loc cit p. 98.

أقدم لك لأضحى وأنا أبكى يا أبتى لأنك بمد أن غرقت أصبحت ربه . مجدوا
إيزيسيدورا وقدموا لها القرابين فقد خظفتها جوريات الماء وأصبحت هي نفسها
حورية ، سلام (عليك يا أبتى) فسوف يلقبوك بالهجورية وسوف تقدم لك ربات
فصول السنة (Horai) الهدايا عندما يكتمل عام إيزيس (Sothis) (١) .

يتضح من هذين النقشين وجهة نظر الديانة الشعبية اليونانية في تأليه الفرقى
وهي تختلف عن وجهة نظر الديانة المصرية الوطنية قليلا . وبصرف النظر عن
تأثير الواقع المصرى على عمارة للضريح وبالرغم من تردد اسم إيزيس والسنة
المصرية Sothis إلا أن عائلة السيدورا تبدو عائلة إغريقية خالصة حافظت على
ثقافتها وديانتها الأخرية بالرغم أنها عاشت في صعيد مصر فالرثاء مكتوب بالشعر
اليونانى الموزون واللغة سليمة واضحة متأثرة بشعر ثيوكرتوس الرثاء والشعراء
الأبحر امات السكندريين وجدير بالذكر أن أشيد إلى تقدير الأثريين لعمر هذا
الضريح إنهم يتفقون أن مهظره العام يشير إلى أنه أنشأ إبان القرن الثانى للميلادى
بين عصرى هاوريان وأنتينوس ييوس Antoninus Pius (٢) . حقاً إن الأثرى
ليعترف أنه قد يواجه مواد أثرية يونانية تدل على وجود أسر أفرقية تمسكت
بشدة بشخصيتها وثقافتها حتى ولو فى أعماق الريف المصرى إلا أن الدلائل الأثرية
العامة توضح بجملاء إزدىاد عدد الأفرق المتمصرين وأن الحضارة اليونانية فى مصر
بدأت فى أخذ طابع غريب عن ذلك الذى كانت عليه سواء فى سوريا أو فى بلاد اليونان .

وفى معرض الحديث عن ذلك أود أن أشير إلى نقش وجد على قبر
فتاة صغيرة اسمها إسكليباس Asclepias من العصر الرومانى : عثر عليه فى
سقارة (٣) بالقرب من السيرايوم هناك ثم نقل بعد ذلك إلى اللوفر فى فرنسا . وجد

(1) R. Lattimore, op cit p. 101

(2) cf B.I.F.A.O p 98

(٣) ربما كان لفرق إيسدورا قرب سقارة تأثير على تأليها لأن الآله بتاح ارتبط بالفرق
لأنه كان مسيطر على المنطقة النيلية القريبة من سقارة ، والآله بتاح مرتبط بأوزيريس والفيضان
والزراعة . انظر

Griffith, op. cit p. 105.

النقش على لوحة تملو الضريح الذى يحوى مذبح صغير مقام لتقديم القرابين لها . يقول النقش : لقد رحلت أسكليباس غريقة وعمرها خمس سنوات (١) . إن اللفظة الذى ذكره النقش هو « hesies » ومن الواضح أنها كلمة غير أغريقية (٢) بل كلمة مصرية مأخوذة أعطيت الشكل الأغرقي التى يعنها اللفظ المصرى $\eta\sigma\tau\epsilon$ الذى كان يعطى لشهداء الغرق فى النيل (٣) . ولقد انتشر هذا اللفظ حتى غطى على اللفظ الأغرقي الصحيح لكامة غريق وهو (Hypobrucheios) . ومن المقطوع به أن هذه الفتاة بعكس السيدورا كانت تنحدر من أسرة أغريقية متمصرة — وإن شئت فقل — طبقة الأغرقيق المتصرين . والى قويت شوكتها فى الأيام الأخيرة للحضارة اليونانية إبان العصر الرومانى . لأن نقش اسكليباس مختصر لا يتعدى سوى أربعة كلمات (Asklepeis Le esies apethe) كما أن النقش استخدم لفظاً مصرياً ومن ثم فإنه من الممكن أن يكون أهل الفتاة قد أخذوا بالفكرة المصرية لأنهم أقرب إليها من الفكرة الأغرريقية .

وعلى مسافة ليست بالبعيدة من ضريح إيسيدورا فى جبانة هرمو بوليس تقف أطلال مدينة انتينوى Antinoe أو انتينو بوليس Antinoupolis التى يرتبط اسمها بأسم انتينوس Antinoos فى الأباطور هادريان الذى غرق فى النيل قرب مكان هذه المدينة . من الطبيعى أن ترتبط بين غرق الفتى وبناء المدينة ولكن الباحث يشك فى أن يكون بناء هذه المدينة كان نتيجة مباشرة لتخليد الفتى للغريق . لأنه يبدو أن فكره إنشاء مدينة أغريقية خالصة كانت تدور فى مخيلة الأباطور هادريان الذى عرف بعشقه وبغيرته على الثقافة الهلينية خاصة فى وادى النيل حيث أبدى الأباطور قلقه إذ أحس أنها تدهورت . والحق يقال أن الكتاب الزايرين من الأغرقيق والرومان لم يتوقفوا عن التفكير بصوت عال بخصوص الخطر الذى كان يهدد الحضارة اليونانية . فمثلاً ضمن لنا المؤرخ تيتوس ليفيوس خطبه القاها

(1) Cf. Alan Rowe in A.S.A.E, XL, 1940, p 26 fig 9,

(2) ibidem, p. 26-27.

(3) cf. EL-Amir, loc. cit p.83

قائد روماني في عام ١٨٩ ق م ~~سيلا مانيليوس~~ Gaius Manilius. قال فيها « لقد تدهور الحال بالمقدرونيين (١) فبعد أن كانوا يمتلكون الاسكندرية ومملكة سيلوكس وبابل والعديد من المستعمرات المنتشرة في الأرض إذ بهم يصبحون سوريين وبارثيين ومصريين. كما عبر إسترابون عن عدم رضائه عن حال الأغرقيين في مصر عندما زارها بقوله « على أي حال لقد إستاء بوليبيوس Polybius (من قبلي) من الأحوال العامة في مدينة الاسكندرية عندما زارها ويقول أن كان يسكن الاسكندرية ثلاث فئات: أولها المصريون للذين ينحدرون من سلالة السكان الأصليين وكانوا ذوي أمزجة متقلبه وغير معتادين على حياة المدينة، يلي ذلك طبقه الجند المرتزقة وكانوا غلاظ السلوك كثيرى العدد...، وثالثها قبيلة السكندريين وهم أيضاً لم يكونوا شديدي الاعتقاد على نظم الحياة في المدينة للأسباب ذاتها ولكنهم على أي حال كانوا أفضل من الطبقتين السابقتين فالرغم من أنهم كانوا طائفة مختلطة إلا أنهم كانوا ينحدرون من أصل إغريقي وعلى بينه بالمعاداة الأغرقيية (٢) »

إننا لانسکر أن البطالسة الأول حاولوا إتباع سياسة الإسكندر في نشر الحضارة اليونانية عن طريق تأسيس المدن الأغرقيية فقد أنشأ بطليموس الأول مدينة بظلمية Ptolemais في مصر العليا (مكانها الآن بلدة المنشأة) بقصد جعلها مركز طارد للحضارة في هذا الجزء البعيد من مصر كما أنشأ خلفاؤه العديد من المدن الصغرى في إقليم الفيوم وعلى شاطئ البحر الأحمر وأطلقوا عليها أسماء إغريقية بحتة، ولكن أسماء هذه المدن بالرغم من أنها كانت تحمل كلمة « بوليس Polis في نهايتها إلا أنها لم تكن سوى قرى كبيرة بها إدارة إغريقية وتسكنها طائفة إغريقية كبيرة. هكذا كان حال المدن اليونانية في مصر باستثناء الاسكندرية وبظلمية ونقراطيس (٣). ويلفت العلامة « بل » نظرنا إلى أنه بمقارنة مساحة مصر من ناحية وحجم الأغرقيين الذين

(1) Livy, xxxviii

(2) cf Strabo, xviii, 797

(3) cf Victor Teherikow, Die Hellenistischen Stadtrunden Von Alexander dem grossen bis auf Roemerzeit, Philologus, Suppl. Band xlx. Heft 1 (Leipzig 1927 ; pp. ٤- 15

هاجروا إلى الشرق كله من ناحية أخرى يتضح لنا أنها كانت أقلها بالنسبة لعدد المدن اليونانية فيها⁽¹⁾ . ونتيجة لذلك فقد تدفقت جموع الأغرريق إلى الريف المصري وعواصم الأقاليم المختلفة حيث تعرضوا لموجة شديدة من التمسر والاختلاط وبدأوا يفقدون ثقافتهم الهلينية رويداً رويداً حتى أصبح معظمهم « فلاحين مصريين » .

لقد أحس الأمبراطور الروماني هادريان بأنه رسول حركة إحياء الثقافة الهلينية فقام بزيارات عديدة إلى بلاد اليونان وأغدق على أهلها بالامتيازات وبني المعابد ورمم الآثار وأشرف على المهرجانات والأعياد الهلينية وأغرق نفسه في الثقافة الهلينية . وفي عام ١٣٠ ميلادية أبحر هادريان من سوريا قادماً مصر تصحبه حاشية كبيرة وزوجته ساينا Sabina وكذلك وصفتها جوليا باليللا Julia Balbilla والفتى أنتينوس Antinoos . ويبدو أن هادريان استاء كما استاء استرابون وبوليبوس من قبل لخال الأغرريق في مصر فأحس بضرورة إنشاء مدينة أغريقية خالصة يكون سكانها من الأغرريق الخالصين وتكون مركز إشباع للحضارة الهلينية ومركزاً لقاومة زحف الحضارة المصرية عليها . ويخيل إلى أن الامبراطور هادريان كان سينشأ المدينة سواء وقع حادث الفرق أم لم يقع⁽²⁾ . أبحر هادريان في رحلة نيلية في الثلاثين من أكتوبر عام ١٣٠ ميلادية للتفرج على آثار مصر العليا وقرب قرية الشيخ عبادة الحالية غرق الفتى ، فسادت تكهنات وأقاويل كثيرة حول قصة غرق الفتى سوف نشير إلى بعضها فيما بعد ، ولكن الذي لا شك فيه أن الامبراطور حزن حزناً شديداً ، إذ روى لنا المؤرخ سويتونيوس Suetonius أن الامبراطور حزن حزناً شديداً وناح على فتاه كما تنوح النساء وأغلق على نفسه باب حجرته لمدة أيام حتى أبصر في أحد الأيام نجماً ساطعاً في السماء فأعلن أنه روح أنتينوس وزف إليه خدمه البشرى بصدق رؤيته وهوول خارج حجرته وأمر أن تنشأ عبادة للفتى وأن تنشأ مدينة تخلد اسمه

(1) H. I. Bell in Journal of Roman Studies, xxx (1940) p 1397
< Antinoopolis : A Hadrianic Foundation in Egypt >

(2) H. I. Bell, loc cit p 1387.

على صفحة النيل الشرقية في مقابل Hermoupolis . ومن الغريب أن انتشرت عبادة هذا الفتي في وقت قصير، ففي مدينة مانتينيا Mantinea بإقليم أرجوس طبقاً لما يرويه الرحالة باوسانياس أنشأ الإمبراطور مركزاً للعبادة باسم هذا الفتي ومعبداً لممارسة الشعائر الدينية الخاصة بعبادته وجعل لها مهرجانات رياضية سرعان أن امتدت إلى أثينا واليوسيس مركز العبادات السرية الزراعية وخاصة تلك التي كانت ترتبط بالإمبراطور والإله تريتوليموس TrrprolemN s الضلع الثالث لعبادة ديمتر وبرسيفو في ربات القمع (1) .

وفي عديد من المدن اليونانية والرومانية أقيمت التماثيل لهذا الفتي حيث كان يبدو جميلاً ، جاداً وحزيناً بل كان يظهر أحياناً وهو يحمل بعض خصائص الآلهة فأحياناً يظهر مثل جانميد Ganymede الفتي الطروادى التي اختطفه زيوس ليجعل منه ساقيه ، وحينما يظهر مثل هرميس Hermes أو ريونيسيوس Dionisuis ، وأغلب الظن أن الإمبراطور هادريان حرص على أن يظهر مثل البطل هرا كليس فأعتبر أنتينوس ماثلاً لهيلاس ولذا من الممكن أن تكون عبادة الأول قد قامت على نفس الأسس التي قامت عليها عبادة الفتي الأخير . ولما كان كاتب الرثاء إيسيدورا قد أشار إلى موت هيلاس وشبهه إيسيدورا به بينما لم يذكر شيئاً عن أنتينوس رغم شدة الشبه بين هذا الأخير وبين الفتاه الغريقة ، من الواضح إذاً أن إيسيدورا ماتت قبل أن تعرف عبادة أنتينوس وإلا لذكرت في الرثاء . خاصة وأن الفتي قد غرق بالقرب من مكاتها وأنشأت مدينة كبيرة له هناك ومن الصعب أن نجد تفسيراً لزوف كاتب الرثاء عن ذكر شيئاً ما عن أنتينوس إذا كان قد مات قبل موت إيسيدورا .

من المحتمل أن يكون فكرة عبادة أنتينوس قد قامت على نفس الأسس التي قامت عليها عبادة هيلاس وهي أن حوريات الماء أو النيل قد جذبتهم اليهن بعد أن

(1) Yita, 14,5

(2) وليس من المستبعد أن يكون أنتينوس قد اعتبر ماثلاً لهذا الآله .

(2) cf B.W. Henderson : The life and Principle of Emperor Hadrian, London 1923, p 133f

همن به حباً . هذا من ناحية ، أما من الناحية الأخرى فمن الواضح أن الكهنة للمصريون قد فعلوا شيئاً لارضاء الأباطور الروماني نحو إيضاح الأسس من وجهة عقيدتهم الوطنية ولوبالذس والأفتراء لاقامة عبادة لهذا الفتي . خاصة وإن كان هناك دائماً فريق من الكهنة المصريين الذين كانوا دائماً على استعداد لخدمة السياسة الدينية للملوك والأباطره . وبما لا شك فيه أن الكهنة المتلهفين شبهوا نواح الأباطور على صوت فتاه بنواح إيزيس على زوجها الفريق ، بل وذهبوا إلى أبعد من هذا عندما ادعوا أن أنتينوس قدم نفسه بدلاً عن مولاه ليرد عنه كارثة كانت محققة تماماً مثلما روى أن اوزيريس قد فعل من أجل شعبه، وهذه فكرة مصرية ولا بد أن يكون من دسها في الأسطورة عليم بالديانة المصرية . هكذا وجد الكهنة المصريون أرضاً ثابتة لإقامة عبادة مصرية من مادة إغريقية لأول مرة . ويؤيد ذلك العثور على بعض تماثيل للفتى أنتينودس وهى فى الزى المصرى وفى روما عثر على نقش هيروغليفي فوق مسلة مصرية أقيمت تخليداً لانتينوس ردد فيه الكاتب وجهة النظر المصرية (1).

(1) cf Erman : Die Religion der Aegypter, 1934 p 4237.

المكايون

بقلم

دكتور فتواد حسين

أو « الحشموناييم » أسرة يهودية لعبت دوراً خطيراً جداً في أحداث الشرق الأدنى التاريخية في القرنين الثاني والأول قبل الميلاد . أما لفظ « مكاي » فقد يكون لقباً بمعنى « فاذا المطرقة » حشمونا « Asmonaios » أو هو اسم الجد الأكبر « شمعون حشموناي » المؤسس الحقيقي لهذه الأسرة التي توارث أفرادها الملك وجملت من لفظ « حشموناي » لقباً لسائر ملوكها ابتداء من « أريستوبول Aristobul » حتى آخرهم « أنتيجونوس Antigonus » وقد مهد لظروف هذه الأسرة في التاريخ « يهودا المكابي » مؤسس الأسرة اليهودية الأولى إبان قيام المعبد الثاني أعنى الفترة الممتدة من عام ١٤٠ حتى ٣١٧ ق . م . سائراً في الطريق الذي أعده « متباس » وابنه يهوذا من قبل .

ولمسل الحدث الهام الذي عاون على ظهور هذه الأسرة المكابية هذه الحرب الحاطفة التي قضى بها الاسكندر المقدوني على الدولة الفارسية فبسط سلطانه على آسيا الصغرى وسوريا وفينيقيا كما استولى على « صور » بعد حصار دام سبعة شهور وغزه بعد شهرين أو أكثر قليلاً (أغسطس ونوفمبر عام ٣٣٢ ق . م) ثم مصر بعد دولة يهوذا حيث خرج عدد كبير من اللاويين والسكينة واستقبلوا الاسكندر مبايعين مقدمين له فروض الولاء والطاعة وعلى رأسهم كبير السكينة « يدوا » وحفيده شمعون . وتحدثنا القصة أن الاسكندر لما استقبل هذا الجمع تحققت رؤية رآها في مقدونيا مفادها أن الكاهن الأكبر وصحبه سيستقبلونه ويبايعونه وهكذا نجد أن أول لقاء بين اليهودية واليونانية كان لقاء موفقاً بالرغم من أن اليونانية وفدت تفيض قوة وعظمة بينا اليهودية عبرت عن الضعف والاستسلام وأطلق على دولة يهوذا الممتدة

بين جبار لبنان شمالاً ومصر جنوباً (سوريا الجوفاء) *Coelesyrien Andromac os*
تفرقة بينها وبين سوريا العليا وعين الاسكندر « أندروما خوس حاكماً عليها واتخذ
مدينة السامرة عاصمة له .

إلا أن هذا التعيين لم يلق قبولا عند السامريين الذين وجدوا في اختيار السامرة
قاعدة للحاكم اليوناني تكريماً لليهود خصوم السامريين وأعدائهم الألداء ، لذلك
ثاروا على « اندروما خوس » واعتقلوه وألقوا به في النار في ربيع عام ٣٣١ ق.م.
فأثار هذا العمل حفيظة الاسكندر وغضب غضباً شديداً وقرر أثناء عودته من
مصر المبادرة إلى السامرة ليتنقم من هؤلاء الذين سولت لهم أنفسهم اقتراح هذا
الآثم العظيم فقتلهم شر قتله وعين حاكماً جديداً وهو « ميمنون *CoumMe* »
كما اتخذ من مدينة السامرة وطناً للمقدونيين وأمن في احتقار السامريين وبخاصة
لما علم أنهم أعداء لليهود وأغاظه أحسن معاملة اليهود كما أعقد عليهم كثيراً من
المطايا بما زاد في حقد السامريين عليهم .

واشتهر الاسكندر باحترام عبادات وتقاليد الشعوب التي غزا بلادها من اليونان
حتى الهند ومن أثيوبيا إلى بحر الخزر . ففي مصر قدس « أيس » و « آمون »
وفي بابل آلهة الكلدانيين فقد كان حريصاً على قيام دولة عالمية تحت صولجانه
إلا أن منيته عاجلته شاباً وهو يعمل في سبيل تحقيق هذه الأمنية وكان ذلك عام ٣٢٣
دون أن يترك وريثاً لأمله أو أفكاره لذلك عمته الفوضى البلاد التي فتحها ودبت
فيها الخصومات بين قواده وقد كان في استطاعتهم المحافظة على الدولة المقدونية
لو اتحدوا إلا أن الإغانية غلبت على خلفائه فقسمت الدولة للمقدونية إلى دويلات كل
ولاية تحت إمرة حاكم خاص . ففي مصر البطالمة حيث تجدد بطليموس الأول
« سوتير *Soter* » وقد نجح في ضم « سوريا » الجوفاء « كوليسيرين » وإقليم
يهودا إلى مملكته ثم هاجم أورشليم واستولى عليها وساق كثيرين من سكانها أسارى
إلى مصر من بينهم عدد كبير من السامريين .

إلا أن حليف بطليموس واسمه « أنتيجونوس *Antigonos* » كان يطمع في

التغلب على سائر حكام أجزاء الإمبراطورية المقدونية وبيعها بثناً جديداً تحت حكمه
وبعد عدة سنوات قضاها في الاستعداد للحرب نشبت معركة « غزة » في ربيع
عام ٣١٢ ق م . بين ابن « أنتيجونوس » واسمه ديمتريوس Demetrios » وبين
بطليموس وقد أبلى فيها أحد اللاجئين إلى بلاط بطليموس واسمه « سلويكوس
Seleukos » بلاءً حسناً فاعتبر تاريخ موقعة « غزة » بدأ تقويم جديد يعرف باسم
التقويم السلوقي أو اليوناني واتخذته اليهود أيضاً تقريماً لهم واستخدموه زمناً طويلاً ،
وقد اضطر « ديمتريوس » بسبب الهزيمة الفادحة التي لحقت به في غزة إلى الفرار
شمالاً فمكّن المنتصر من احتلال جميع البلاد لكن لم يمض زمناً طويلاً حتى وُجد
« أنتيجونوس » وابنه « ديمتريوس » جيوشهما واستمدوا لشن هجوماً خاطفاً على
بطليموس وقد تحقق للوالد وابنه ما أراداه واضطرا بطلموس إلى التراجع غرب
الحصون القائمة في المدن الساحلية والداخلية مثل « عكا » و « يافا » و « غزة »
و « السامرة » و « أورشليم » حتى لا يستخدمها العدو حصوناً يحمي فيها وظل
حال إقليم يهوذا والأراضي الأخرى التابعة لإقليم « سوريا الجوفاء — كوليسيرين »
مضطرباً عدة سنوات حتى خر « أنتيجونوس » قتيلاً في موقعة « إبسوس Ipsos »
بآسيا الصغرى صيف عام ٣٠١ ق م . إذ التحم فيها بالقادة الأربعة « بطليموس »
و « ليسياخوس Lysimachos » و « كسندر Cassander » و « سيلويكوس
Selenkos » وقد قسم هؤلاء الأربعة الدولة المقدونية فيما بينهم فحصل بطليموس
على مصر والبلاد المتاخمة لها . أما « سيلويكوس » فبسط سلطانه على معظم آسيا
حتى نهر السند وفارس . وهكذا نجد إقليم « يهوذا » يصبح خاضعاً لدولة بطليموس .
أما اليهود في المدن البابلية — والفارسية فقد خضعوا لحكم « سيلويكوس » . وبلغ
من تسامح مصر أن عينت كبير خازمي اليهود في إقليم يهوذا إلى جانب رئاسته
الدينية جاليا للضرائب وحاكماً سياسياً . وأدرك بطليموس الأول أن الاسكندرية
التي أسسها الاسكندر واتخذها لأول مرة الملك المصري المقدوني عاصمة له في حاجة إلى
سكان وقرر ترغيب اليهود من سكان الأقاليم المجاورة في استيطانها مستغلاً حالة

الفوضى والاضطراب التي عمت إقليم يهوذا وما جاوره بسبب حروب « أنتيجونوس » واستقدم عدداً كبيراً من اليهود وأسكنهم الاسكندرية كما ساوى الملك بين هؤلاء اليهود والسكان المقدونيين في الحقوق والواجبات وهكذا نشأت جالية يهودية مصرية ولم تقتصر إقامة اليهود على الإسكندرية بل انتشروا كذلك في مدن مصرية أخرى امتدت حتى إقليم رقة .

وحذا جذو بطليموس في مصر « سولويكوس » مؤسس الدولة السلوقية بخاصة في فارس حيث حصل أيضاً على شمال سوريا وشيد هناك « أنطاكية » حوالي عام ٣٠٠ ق . م . واتخذها عاصمة له وحاول أن يعمرها وغيرها من المدن التي شيدها بالسكان فنقل إليها كثيرين من اليهود فوفدوا عليها رغبة أو رهبة كما جاء بهم من بابل وفارس ومنحهم نفس الحقوق التي يتمتع بها المقدونيون في تلك البلاد .

وهكذا نجد يهودا يستوطنون بلاداً ويتمايشون مع سكان يونانيين مقدونيين ونجد يونانيين مقدونيين يستوطنون بلاداً ويشاركون قوماً من اليهود فقامت على امتداد ساحل البحر الأبيض المتوسط موانئ جديدة وجددت أخرى قديمة تطلق عليها أسماء يونانية وينشط خلفاء الاسكندر إلى تحقيق أمنيته الخاصة بمنزج الشرق والغرب وكان الخلفاء في تخطيطهم هذا يخضعون للوضع والظروف السائدة في الشرق والغرب وأصبح إقليم يهوذا محاصراً من جميع الجهات بسكان يونانيين كما أصبحت اللغنة السائدة في المستعمرات الفلسطينية هي اليونانية كذلك الحال مع الأخلاق والمعادن فضائلها وذرائلها . إلا أن فقر إقليم يهوذا جعله منماً ما إقليماً غير مرغوب فيه كما نظر اليونان إلى يهوده نظرهم إلى النبوذيين وظل الإقليم وسكانه بعيدين عن التطور الجديد الذي طرأ على المنطقة كما أن حياة الاستعباد ومصادرة الحريات وتحديد العبادات والحجر على الأفكار التي يحياها اليهود وقتذاك حالت دون ظهور شخصية قيادية تطلق الحرية المكبوتة وتفك أغلال الكلمة والأمال الحبيسة لذلك نجد اليهودى الخاضع لجميع هذه الظروف يتطلع إلى الخارج منتظراً مجيء « المخلص » الذي يأخذ

بيده من حياة الاستعباد إلى حياة الحرية وهذا « المخلص » ليكن من بابل أو فارس أو أى بلد آخر . إن وضع اليهودى فى إقليم يهوذا حال دون اتصاله ببلاد العالم الخارجى وذلك لأن بابل وفارس تخضعان لحكم البيت السلوقى العدو للددود لبطليموس .

إلا أن الشعب الذى يعتمد فى سبيل خلاصه أو تطوره على غيره فقصيرة ولا شك إلى الفناء لمعجزه عن خلق مقومات كيانه وتطوره .

وفى هذه الفترة الحرجة فى تاريخ اليهود ظهر « المخلص » المنتظر الذى طالما انتظره اليهود أعنى « شمعون القانونى » بن « أونياس » الأول والذى ذاعت شهرته وعلت مكانته فى الفترة الممتدة ما بين ٣٠٠ - ٣٠٠ ق.م. تقريبا وقد كان الخاخام الأكبر الوحيد الذى ينتمى إلى بيت « يشوع » أو بيت « يصدق » وكرس حياته للمحافظة على معنويات اليهود كما أعاد بتصریح من الملك الحاكم تشييد أسوار أورشلیم التى هدمها بطليموس الأول وأهتم كذلك بتوفير المياه للمدينة وبخاصة بمد أن تشدد اللاويون فى كثرة التمسك والطهارة لإقامة الفرائض الدينية ونجح « شمعون » فى حفر نبع تحت للعبد وأوصله عن طريق قناة تحت الأرض ببلع « إيتام Etam » بالقرب من أورشلیم ، وهكذا أمن المدينة غائلة العطش لو حاصرها العدو . وتوفى « شمعون » وترك طفلين فتاة اقترنت بشخص يدعى « طوييا » وولدا يدعى « أونيا Onia » (اسم جده) وتمرضت بلاد يهوذا وما جاورها من البلاد لحروب دائمة بين السلوقيين الثانى والثالث والرابع وبين كل من بطليموس الثانى والثالث فى سبيل الاستيلاء على « سوريا الجوفاء - كاليبسين » إلا أن - يهوذا وسوريا الجوفاء ظلنا تابعتين لمصر . وحدث أن « سيلويكس الثانى - كالينيوكس Kallinikos » حاول تأليب سكان تلك الإقليم على مصر لنزعها منها ونجح فى اتخاذ الخاخام الأكبر « أونياس الثانى » مساعدا له فامتنع هذا الخاخام عن تسديد الضرائب التى كان يجيئها لمصر وإن كانت فى الواقع ضرائب رمزية فقط تدفع سنويا لبطليموس فما كان من بطليموس الثالث « اويرجيتيس Euergetes » إلا أن حذر لليهود من

مغية عملهم هذا الذي يتم عن العيصان والانسلاخ عن مصر ، إلا أن نصحه ذهب مع الريح فهدد اليهود بتقسيم إقليم يهوذا وتوزيعه بين عدد من الأجانب وأرسل إلى اليهود مندوباً خاصاً يدعى « أثنيون Athenion » يلتمهم هذا الانذار فاستولت الحيرة على اليهود وحاول يهود اورشليم اقتناع الحاخام الأكبر الإقلاع عن موقفه والمودة إلى صوابه إلا أن « أونياس » رفض التراجع وصمم على موقفه وفي هذه الفترة الحرجة ظهر رجل صلب العود قوى العزيمة اسمه « يوسف » وهو حفيد الحاخام الأكبر الجده « أونياس » وأبوه « طوبيا » الذي اقترن بابنة « أونياس » الأكبر وعارض « يوسف » خاله الحاخام الأكبر والرعيمة السياسي في موقفه هذا من مصر ولم يكده يسمع بوصول مندوب بطلميوس حتى سارع إلى اورشليم وهاجم خاله هجوماً عنيفاً لأنه باصراره على عدم دفع الضرائب الرمزية سيعرض اليهود لأكبر كارثة وظل الحاخام الأكبر مصراً على موقفه فما كان من « يوسف » إلا أن طلب السفر إلى الاسكندرية لمرض المسألة على بطلميوس والقيام بدور الوسيط فوافق أونياس على سفره إلى مصر فجمع يوسف اليهود في ساحة البعد وعرض عليهم الأزمة المستحكمة بين خاله وبطلميوس وأحتكم « يوسف » إلى اليهود في تمثله وإتقاده من النكسه التي قد تقضى عليه ومنحه الشعب ثقته ونادى به زعيماً مفوضاً عنه وكان ذلك حوالي عام ٢٣٠ ق. م. فما كان من « يوسف » إلا أن أولم ولية كبرى للمندوب المصري الممثل الشخصي لبطلميوس وهو « أثنيون » وقدم له كثيراً من الهدايا ورجاه أن يبلغ بطلميوس أنه سيحضر قريباً إلى مصر ومعه الضرائب المطلوبة . ولم يكده نائب بطلميوس يترك اورشليم عائداً إلى مصر حتى شرع يوسف في اتصالاته بأغنياء السامريين من أصدقائه ورجاهم إمداده بالأموال المطلوبة فضلاً عن أنه في حاجة إلى أن يظهر في مصر عندما يمثل أمام بطلميوس بالمظهر اللائق فهو في حاجة إلى ملابس فاخرة ومطية بعض الأموال الخاصة لإقامة الولائم . وقد لجأ يوسف إلى السامريين لأنهم كانوا تجاراً وأحسن حالاً من سكان يهوذا الذين كانوا يمشون على الزراعة .

ولما عاد « أثينيون » إلى مصر اتخذ الإجراءات للحفاوة بـ « يوسف » فأعد له القصر استقبالا عظيما كما ازداد بطلميوس اشتياقا لملاقاته والاحتفاء به واتفق وصول يوسف مع الاجتماع العام في القصر الملكي لسائر موظفي الضرائب لتوريد ما جمعه وكان قليلا وقد أدرك يوسف هذا من قبل فضاعف المبلغ المطلوب من اليهود عادة فضلا عن الهدايا الكثيرة فاستولت الدهشة على موظفي الضرائب في مصر والذين كانوا ينظرون إلى اليهود على أنهم فقراء ومعدمون وطالب بطلميوس يوسف بتقديم الضمانات الكفيلة للوفاء بالضرائب مستقبلا فأجابه يوسف أيضا بضمنه خير اثنين في العالم المسك والملك فأعجب بطلميوس بنباهة يوسف وعينه جايبا للضرائب من سائر مدن سوريا الجوفاء (كوليسيرين) وفينيقيا فاستجاب يوسف إلا أنه رجا بطلميوس أن يده ينعو التي جندي عونا له لحماية الأموال ، فحقق له بطلميوس رغبته وهكذا نجد يوسف تحت إمرته جيش يمكنه من أن يكون الحاكم الحقيقي لتلك البلاد وحدث مرة في غزة وغيرها إن السكان اليونانيين امتنعوا عن دفع الضرائب فاستولى يوسف على أملاكهم وصادر أموالهم لحساب ملك مصر .

وظل يوسف في هذا المنصب نحو اثنين وعشرين عاما جمع خلالها ثروات طائلة وسلطانا واسعا وبعد وفاة بطلميرس أويريجيتيس خلفه بطلميوس الرابع « فيلوباتور Philopator » (٢٢٢ - ٢٠٦ ق. م .) فاحتفظ بيوسف وأبقاه في منصبه . وفي عهد هذا الملك دب الضعف في مصر فاتهم الملك السلوقي « أنطيوخوس Antiochus » هذه الفرصة واستولى عام ٢١٨ ق. م . على « كوليسيرين » وساماريا إلا أن إقليم يهوذا وأورشليم وبمحاكمها ابن طوبيا وهو يوسف ظلّا مخلصين لمصر . ثم دار الفلك دورته وعاد النصر محالفا مصر وهاجم بطلميوس فيليبيا تور الخصم العنيد ودحره بالقرب من « نفييا Naphia » واضطربه إلى التراجع إلى أنطاكية وعادت « كوليسيرين » ثانية إلى أحضان مصر وهكذا كان هذا النصر المصري نصرا ليوسف أيضا الذي ظل في منصبه حاكما على يهوذا وأورشليم باسم ملك مصر .

وبقاء يوسف في منصبه وعلاقته الحسنة مع مصر ومهارته في جباية الأموال أثر
 كل هذا تأثيرا كبيرا في المجتمع اليهودي إذ أترى ثراء فاحشا وبخاصة أولئك اليهود الذين
 على صلة بيوسف وذهب يوسف بعيدا فأثر أبناء ملته على غيرهم فبينهم جباة للعمال
 وكان كل يحصل حسب هواه فارتفع مستوى الحياة اليهودية وأقبلت الدنيا على
 اليهود . وإذا أضفنا إلى هذا الثراء ما يترتب عليه من أثر بالغ في الروح المعنوية بسبب
 جيش مصر الذي كان هناك تحت أمره يوسف واستغله في سبيل القضاء على نفوذ وسلطان
 السكان الجوثيم أعنى غير اليهود من فلسطينيين وفينيقيين وآومثيين ويونانيين ومقدونيين
 أدركنا مدى الفرور الذي ملأ اليهود لشعورهم بأنهم السادة الأقوياء وليسوا العبيد
 الأذلاء ، فاليهود بانصالحهم بمصر وملك مصر والشعوب الأجنبية الأخرى أداروا
 ظهورهم لمستواهم الوضع فهجروا الأحياء القذرة التي كانوا يحيون فيها إلى منازل
 تحاكي منازل اليونان والمصريين وغيرهم من حيث البناء والزخرفة وقد قتل يهود
 إقليم يهودا وأورشليم كثيرا من ضروب الثقافة عن يهود الإسكندرية الذين استقروا
 منذ قرن أو أكثر في مصر وثقفوا الثقافة المصرية الهلينية وبالغ اليهود في تقليد
 اليونانيين حتى في عاداتهم كما أن الثراء الذي وقع على يوسف جعله لا يتورع عن
 السير في طريق النوايا فضحى بحياته العائلية وأقام الأعياد لإله الحجر اليوناني
 « ديونيوس Dionysios » وذهب انحرف المجتمع اليهودي بعيدا فشك اليهود في
 عقائدهم الدينية وأحكامهم الشرعية مستنكرين صحة الرأي القائل إن الله حرم على
 الإنسان الأخذ بأسباب الحياة والتمتع بمباهجها وكيف يعتبر الله هذا الحرمان تقربا
 إليه وعبادة؟ وهكذا نجد آراء « إبيقور Epikur » القائلة بالتمتع بالحياة
 والأخذ بأسباب الفرح والمرح تجد صدى عميقا في نفوس اليهودا سواء في مصر أو في
 يهودا أو أورشليم . ففلسفة إبيقور هذه والتي يعبر عنها أحيانا بفلسفة دعنا نفرح أو
 « جود يا موسى Gaudiamus » قد تكون هي التي نجد صداها في سفر الجامعة
 وغيره من أسفار الحكم والأمثال والنتيجة المحتومة لهذا الانهيار الخلقى وبخاصة في
 أسرة يوسف أن أبناء السبعة من زوجته الأولى وابنه غير الشرعي المسمى

« هيركانوس Hyrkanos » كانوا دائما في نزاع مستمر السبعة ضد الأصغر « هيركانوس Hyrkanos » الذي امتاد على إخوته الآخرين بالشيء الكثير من لذكاء والدهاء حتى أحبه والده وفضله على سائر إخوته وحدث أن رزق الملك بطليموس فيلوباتور بابن هو بطليموس الخامس « إيفانيس Epiphanes » وأوفد حكام الولايات المصرية المختلفة سواء في أفريقية أو آسيا وفودا لتهنئة الملك بوليدمه الجديد كما أرسل يوسف ابنه « هيركانوس » ممثلا له في تقديم تهنئه إعتقاداً منه أن « هيركانوس » هو خير من يحقق هذه الرسالة وقد نجح الغلام فعلا في سفارته وكسب عطف الملك ووجه فأنار هذا حفيظة أخوته الذين أجمعوا أمرهم على التخلص منه واغتياله فأعدوا له كميناً لتحقيق أميتهم عند عوته إلا أن هيركانوس تصدى لهم مع حرسه الخاص وقتل اثنين من إخوته السبعة واختلف « هيركانوس » مع والده فترك أورشليم وعاد فيها يرجع إلى الإسكندرية .

وحوالى عام ٢٠٨ ق. م . توفى يوسف حفيد ثعمون القانونى وحل محله ابنه هيركانوس لمكاته من ملك مصر فإزداد حقد إخوته عليه فتألبوا عليه واضطر إلى الذهاب إلى الإسكندرية ومن سوء حظه إن ملك مصر الذى كان يقدره ويحبه توفى عام ٢٠٦ ق. م . فانتهاز انطيوخوس Antiochos حاكم سوريا و « فليب » حاكم مقدونيا الفرصة لتقسيم مصر وأملا كما فيما بينهما . وانضم إلى انطيوخوس أبناء يوسف حقدا على مصر وأخيهم « هيركانوس » وفتحوا أبواب أورشليم للملوك سوريا فاشتهروا بالخيانة ليهوديتهم وهكذا سقطت بهوذا وأورشليم فى قبضة السلوقيين عام ٢٠٢ ق. م . وتعرض اليهود فى بهوذا وأورشليم لويلات الحرب والسبي والتشريد هذه الحرب التى اشتملت بين السلوقيين والبطالمة . وقد أدت هذه الأوضاع إلى خلق جماعة من اليهود الموالين لليونانية أو الهلينية وكانوا من أغنياء اليهود وعظماهم لتلك كانوا حزبا قويا انضم إليه شخص يدعى « يشوع » وهو ابن الحنحام الأكبر وكانت ليشوع هذا أو كما تسمى أيضا « يسون Jason » مكانة مرموقة بين رجال الدين فكسب هذا الحزب نورا من الحاخاميين الذين يدعون أنهم من

حلالة هرون كما تزعمه أيضا بعض أبناء يوسف الذين بقوا على قيد الحياة واحفاده وأبناء طوبيا وتطرف أعضاء هذا الحزب في عدائهم لخصومهم وولائهم للهلينية فتنكروا للشريعة اليهودية وعادات اليهود وتقاليدهم وذهبوا بعيدا ففكروا في القضاء على الشريعة ليسهل عليهم كسب اليهود بعد ذلك إلى الهلينية ثقافة وجنسا وعقيدة اعنى تحويل اليهود إلى يونانيين وثنيين .

وقد عارض هذا الاتجاه عدد من اليهود المحافظين وكونوا الجماعة المعروفة في التاريخ اليهودي المعقائدي « الحسيديم » الذين يعارضون التفكير في تحويل أى شيء ديني لإيمانهم الشديد بقدسيته ومن زعماء هذه الطائفة « يوسف بن يوحنا » أحد أبناء أورشليم وكذلك يوسف بن يوعيزر وقد أسس كل منهما مدرسة دينية أحدهما اهتمت بالشريعة من الباحية النظرية وأخرى من الناحية التطبيقية واحتدم النزاع بين اليهود التقدميين المؤمنين بالآراء والمذاهب اليونانية الهلينية وبين الرجعيين المحافظين واستخدم التقدميين القوة في سبيل فرض آرائهم الثورية إبان حكم « انطيوخوس إيفانيس » (١٧٥ - ١٦٨ ق.م) على سوريا الذى هالته حالة الفوضى فى المجتمع اليهودي فناصر التقدميين دعاة الهلينية على خصومهم اليهود المتعصبين .

ولم يقف الأمر عندهذا بل رجا أنصار الهلينية للملك منح اليهود الذين اشتركوا فى التدريبات الرياضية اليونانية حق المساوة مع المواطنين أصحاب الحقوق الكاملة اعنى يصيرون « أنطيوخيين » أو « مقدونيين » أو الحقوق الكاملة للمواطن الذى له الحق فى المشاركة فى سائر أوجه النشاط اليونانية العامة وذلك لأن هذه الألعاب الرياضية اعتبرها اليونانيون وقتذاك واجبا هاما من ضروريات الحياة والمشاركة فيها تكسب غير اليونانى الحق فى أن يتمتع بسائر امتيازات المواطن اليونانى وقد يصل إلى مرتبة الإشراف وهكذا نجد ساحات الألعاب الرياضية تقام فى أورشليم ويشترك فيها بعض اليهود ، والتدريب على هذه الألعاب الرياضية مثل القفز والمصارعة ورمى القوس وغيرها يتطلب من الذى يمارسها أن يتجرد من ملابسه وهذا يكشف

عورة لليهودى والختان التى يميزه عن سائر الشعوب وهنا يتعرض اليهود الذين يشاركون فى الألعاب الأولمبية إلى سخرية اليونانيين مما اضطر اليهودى إلى إجراء عملية جراحية تخفى ولو ظاهرياً هذا الختان الذى يثبت يهوديته كما أف الشبان الذين كانوا يؤدون بعض الخدمات فى المعبد اضطروا إلى تركها لاهتمامهم بهذه الألعاب الرياضية .

وقد آلم هذا التطور فى المجتمع اليهودى المتدينين منهم إلا أنهم كتبوا غيظهم بالرغم من الحمادى فى الانحراف عن الشريعة اليهودية وبخاصة اشتراك اليهود فى هذه الألعاب وتقديسهم القرابين إبان الاحتفال الأولمبى لإله الألعاب الأولمبية إلا وهو « هيرقليس Herakles » وهذه ولا شك طقوس وثنية وتقديس لصنم من الرخام جعلت الانفجار الثورى قاب قوسين أو أدنى ضد اليونانيين لذلك سارع الملك « أنطيوخوس » ، وهاجر أورشليم ناقماً على اليهود وشريعتهم وسقى أرضها بدمائهم ولم يرحم ذكراً أو أنثى شيخاً أو وليداً ، وإيماناً فى احتقار هذه العقيدة اقتحم المعبد وجرده من كل ما هو عظيم فيه مثل المذبح الذهبى والشمعدان واللوائد وسائر الأواني الذهبية ويلاحظ أن الحاخام الأكبر الذى عينه « أنطيوخوس » ألا وهو مينيلوس Menelaos » كان هو المرشد للملك وقاده إلى هذه الأمكنة ومكنه من الاستيلاء على كنوز المعبد وأدواته وشاع فى ذلك الوقت أن أنطيوخوس شاهد فى الهيكل صنماً لرجل له لحية طويلة يجلس على حمار وفى يده كتاب واعتقد أن هذا الصنم يمثل موسى الذى جاء إلى اليهود بشريعة مستعبدة تبعد بين اليهود وسائر البشر فتنتشر البغضاء والشر وقد وجدت هذه الفكرة طريقها إلى اليونان والرومان الذين اعتقدوا أن اليهود يقدسون فى شريعتهم الحمار . ويذكر عن أنطيوخوس أيضاً أنه شاهد فى المعبد يونانياً ينام على سرير وقص على الملك أنه جرت عادة اليهود أن يأتوا كل عام بيونانى ويطعموه زمناً ما ثم يذبحوه ويأكلوا أمعاءهم كما أنهم يقسمون بكرامية اليونان والعمل على إبادتهم فكانت هذه الشائعات من أقوى الأسلحة التى استخدمت ضد اليهود .

وهكذا بسط الحزن جناحيه على أورشليم مما اضطر اليهود إلى الهرب منها وأصبح الحاخام راعياً بلا رعية ، وقرر (انطيوخوس) تحدى آله إسرائيل والتغلب عليه فأصدر الأوامر إلى سائر المدن اليهودية يدعو اليهود إلى ترك يهوديتهم وعبادة آلهة اليونان فقط كما طالب باقامة المذابح والنصب والتماثيل اليونانية لتحقيق هذه الرغبة وبالغ انطيوخوس في اضطهاد اليهود فطأ اليهم بأكل اللحوم التي تحرمها شريعتهم وبخاصة الخنزير .

وتعتمد الشريعة اليهودية على ثلاثة عناصر الحتان ، وتقديس السبت والأعياد ، وأخيراً عدم أكل طعام غير اليهود وكلفت حكومة انطيوخوس موظفيها بضرورة الحرص على مراقبة تنفيذ أوامر الحكومة القاضية بمنع اليهود من مباشرة تعاليم شريعتهم وطقوسهم الدينية وكل يهودى يضبط متلبساً بمخالفة هذه الأوامر يحكم عليه بالاعدام .

وبدا (انطيوخوس) بالمعبد في أورشليم فأرسل أحد كبار أتباعه إليه فحول الهيكل إلى مكان لمعبادة «زوريس» وقدم خنزيراً على المذبح قرباناً ورش دمه على المذبح وعلى قدوس الأقداس وطبخ لحم الخنزير وصب المساء الذي طبخ به على صفحات العهد القديم أما لحم الخنزير المطبوخ فقد طلب إلى الحاخام الأكبر (منيلوس Meneiaos) وغيره من اليهود المتأثرين بالهيلينية أكله . أما التوراة المحفوظة بالمعبد فقد أحرقت لأنها تدعو إلى إشاعة البغضاء بين الناس لذلك طهوها بالنار وحرقتها ثم وضعت صورة (زوريس) على المذبح لتقدم إليها القرابين مباشرة وكان ذلك في ١٧ تموز — يولية — ١٦٨ ق م . وقد وصلنا المزموران ٤٤ و ٧٤ وهما يسجلان هذه المعاملة التي لاقاها اليهود واليهودية ولم يقف الأمر عند هذا فقد أصدر « انطيوخوس » مرسوماً يقضى بإعدام كل شخص يعلن أنه يهودى كما حرم على اليهود أن يطلقوا على أنفسهم يهودا .

وفي هذا الجو العاصف الداكن ظهرت أسرة اشتهر أفرادها بالثدين والتمسك بالشريعة وأحكامها وهي تعرف بإسم أسرة الحشموناييم او المسكاييم ربهما رجل خط الشيب رأسه وخمسة أبناء فدائمين أعلنوها ثورة عارمة على السكندر والإلحاد وآلوا على أنفسهم إلا أن يذودوا عن عقيدة الآباء والأجداد التي خلفوها لأحفادهم . أما الوالد فيدعى «متيا هو» اى عطية الله ابن يوحنا بن شمعون حشموناي وهو من نسل هرون كان يقيم في اورشليم ولما استفحل فيها الخطب وزاد الاضطهاد هجرها إلى «مودين Modin» الواقعة على بعد واحد وعشرين كيلومترا شمال اورشليم وأخذ وأولاده الخمسة يعملون جادين في رفع معنويات اليهود التي كانت قد انحطت وفقدت كل أمل في استرداد كل ماضع من حرية وعقيدة وكرامة . وكان هؤلاء الأبناء الخمسة يحملون ألقاباً آرامية رنانة مثل (يوحنا جدى) و (شمعون طرسى) و (يهودامكابي) و (اليمازر أفران) و (يونانان أفوس) وقد وجد هذا البيت الحشموناي كثيرين من الأنصار اترابيين في الثأر لأنفسهم ولعقيدتهم وآلوعلى أنفسهم النصر أو الموت وكان هذا هو شعار (متيا هو) .

وحدث أن أحد الموظفين المسكفين بمراقبة اليهود ومعاينة الذين ثبتت عليهم تهمة التمسك بالعقيدة اليهودية والانحراف عن الهلينية واسمه (إيليس Apelles) جاء إلى (مودين) والتقى بـ (متيا هو) وطالبه بوجوب مراعاة الأوامر الرسمية الخاصة بالإقلاع عن اليهودية واحترام الهلينية فأجابه (متيا هو) غير هيب أو وجل (لو آمنت جميع الشعوب التي تقيم في مملكة (انطيوخوس) ملك سوريا بالهلينية وانحرفت عن اليهودية دين الآباء والأجداد فإننى وسائر الأنصار سننزل أوفياء لليهودية وإذا تجرأ يهودى وتقدم إلى المذبح لتقدیس (زويس) سأقتله إلى جوار المذبح وهجم اولاد (متيا هو) بالمدى على (أيليس) وأعوانه وقتلوهم كما هدموا المذبح فكانت هذه الحادثة إشارة الثورة وتحول اليهود من السلبية والاستسلام إلى المعركة، وصاح (متيا هو) : من يؤمن بشريعتنا يتبعنى فانضم إليه سائر سكان (مودين) وما جاورها واعتصموا جميعهم بجبل إفرائيم^١ كما انضم إليهم أيضاً نفر من الحسيديم وأخذ عدد أفراد

المقاومة تزايد يوماً بعد يوم فاندفع متتياهو إلى مختلف الجهات عطمًا المذابح الهلينية
وإذا ما التقى بجماعة من الجنود السوريين هاجمهم وكبدهم بمض الحسائر وهكذا
أخذ متتياهو يباشر حرب الكر والفر ضد العدو واحتمى بالجبال .

ولما وافى القدر المحتوم عام ١٦٧ ق. م. متتياهو عين ابنه الأكبر شمعون
مستشاراً — وأسند قيادة الحرب إلى ابنه الصغير « يهودا مكابي » وكان من خيرة
الرجال العسكريين الذين عرفهم الشعب اليهودي . وفي عام ١٦٦ ق. م. التحم
« يهودا مكابي » ولأول مرة مع فرقة من الجنود السوريين تحت قيادة « أبولونيوس
Apollonios » وحالف النصر فيها « يهودا » وقتل أبولونيوس إلا أن ملك سوريا
أنطيوخوس أرسل جيشاً آخر بقيادة هيرون Heron لضرب يهودا وجيشه وكان
جيش هيرون يضم عدداً من اليهود المناصرين للهلينية وأرشدوا جيش « هيرون » إلى
أقصر الطرق وأصلحها للوصول إلى يهودا وما كاد رجال يهودا يبصرون هذا الجيش
حتى دب الرعب في صفوفهم وكادوا يولون الأدبار لولا أن يهودا خاطبهم قائلاً
اذكروا السكنوز الثمينة التي ستدافعون عنها اذكروا أبناءكم اذكروا حياتهم اذكروا
عقيدتنا فكان لهذه العبرات وقع ساحر في نفوسهم وكرواكرة رجل واحد على جيش
« هيرون » عند « بيت هورون » ودحروه وأدرك ملك سوريا أنطيوخوس أنه
أساء تقدير قوة خصومه لذلك عاود التفكير في الثأر لجيشه فقرر التخلص نهائياً من
سائر اليهود المقيمين في مملكته ولتنفيذ هذه الخطة رأى أن يحشد أولاً جيشاً تحت
قيادة « لزياس Lysias » ويسير به إلى يهودا ويقضى عليه وإذا تحقق له هذا النصر
تحول إلى البقية الباقية من اليهود وآثارهم وطهر البلاد منهم نهائياً وفيما يتعلق بأورشليم
رأى أن يهدمها ويزيلها من الوجود ويأتي بجماعات أخرى غير يهودية ويورثهم
هذه البلاد ولم يستن الملك أنطيوخوس من عملية الإبادة هذه اليهود الموالين للهلينية
وله . ولم يكدهم يعلم اليهود بما بيئته لهم أنطيوخوس حتى انقلب خوفهم شجاعة وترددهم
إقداماً وذلك لأنه لم يبق أمامهم إلا الدفاع عن أنفسهم (وساعد على رفع الروح
للعنوية بين اليهود ظهور كتابين هاميين إلا وهما « سفر دنيال » و « سفر استير »

والسفران صدرا عن هينين إسرائيليتين مختلفتين فسفر دنيال وضمته جماعة الحسيديم
الذين يؤمنون بأن المصيبة التي أصابت اليهود حلت بهم بسبب انحرافهم الديني ولو
تابوا وأتابوا فسينصرهم الله فالسفر أقرب إلى الروح الصوفية والإيمان بالمعجزات
منه إلى التاريخ وسير الآباء الأولين .

أما سفر استير الذي يخلو حتى من ذكر اسم الله فقد وضع لغير رجال الدين ،
المؤلف يكتبي بذكر قصة اضطهاد دين في قديم الزمان وفي بلاد فارس ثم انتهت
المؤامرة بانتصار اليهود وهزيمة خصومهم .

ثم نجد « ليزباس » ومساعديه يقودون جيشا قويا ضد يهودا وأخذوا منهم تجار
الرقيق والأغلال لشراء أسرى الحرب من اليهود بعد المعركة وجمع يهودا المكابي
رجاله واستمدوا للملاقات العدو واجتمعوا أولا لإقامة صلاة وهناك جاءوا بالتوراة
ونشروها بين الجنود وصاح يهودا في رجاله أن « أنطيوخوس » يريد أن يحسب
التوراة ويقضى على عقيدتنا ويحولنا إلى وثنيين فأشعل نار الحماس في صدورهم وقسم
جيشه إلى ثلاثة أقسام وعين على كل قسم أحد إخوته وأعلن أن كل شخص حديث
التأهل أو زرع كرامة أو لا يرغب في القتال فلينصرف حسب تعاليم الشريعة وأقبل
المهلينيون لمهاجمة يهودا المكابي واختار قائد هذا الجيش السوري الليل بظلامه الدامس
وقتنا للهجوم واكتشف يهودا المكابي هذه الخطة فقرر إحباطها وذلك بالانسحاب
ليلا سرا والتف حول العدو وقلب جيشه في ظهره فلما هجم السوريون على اليهود لم
يجدوا واحدا فاعتقد قائد الجيش السوري واسمه « جورجياس » Gorgias إن اليهود
خافوا وهربوا في الجبال وقرر أن يلاحقهم وفي الجبل انقض المكابي على السوريين
من الخلف فأحرق معسكرهم وواصل الهجوم عليهم - ولم يكذب بزغ نور الصباح حتى
تبين جورجياس أن اليهود يهاجمونه من الخلف فأصدر أمرا إلى عدد من جنوده
بالصمود وخوض معركة انتحارية ضد المكابي الذي صاح في جنوده « باسم الوطن
والشريعة والقدسات » أما أخوه الأصغر فأخذ يرتل بعض الآيات من التوراة ثم صاح
« المكابي » الله معنا » وأحرز يهودا نصرا على السوريين عند اماس Emmaus وعاد اليهود

إلى «مودين» مركز تجمعهم ثانية . إلا أنهم توقعوا أن «ليزياس» الذى قد صدر له الأمر بإبادة اليهود قد يعاود الكرة عليهم ثانية وفى خريف عام ١٦٥ ق . قبل «ليزياس» على رأس جيش آخر وعسكر عند «بيت صور» على بعد مسيرة خمس ساعات جنوب اورشليم إلا أنه فضل الانسحاب على الاشتباك مع اليهود فى معركة قد تكون نتيجةها هزيمة تنهى هزيمة موقعة «اموس» وهكذا بعد نحو ثلاثة أعوام ونصف العام منذ اندلاع نيران الحروب بين الطرفين حل نوع من المهادنة وانهزى المكابى وأعاناه هذه الفرصة وانقضوا على اورشليم ليظروها من رجس الجويم فحطموا التماثيل والنصب وكل ما يمارض مع الشريعة وتماثيلها وشيدوا مذبحاً جديداً عوضاً عن الآخر الذى دنسه الجويم كما جاءوا للمعبد بأنية جديدة وقد استترقت عملية التطهير وإزالة النجاسة ثلاثة أسابيع ، وفى صباح ٢٥ كسيليف (نوفمبر ١٦٥ ق م ٥٠) أقيمت حفلات التكريم وطهارة المعبد كما قدمت القرابين وهذا العيد يقام حتى اليوم ويعرف باسم عيد «خنوكا» أى «تقديس» أو تدشين وهو ثمانية أيام يضاء فيه شمعدان أو «منارة» ذو ثمانية أذرع فهو عيد النور ويضاء عادة كل يوم من أيام العيد ذراع «قنديل» تخليداً لذكرى انتصار اليهود على الجويم الوثنيين وقد شارك فى إحياء هذا العيد اللاويون بأناشيدهم وكذلك جميع سكان إقليم يهوذا وأبناء اورشليم الذين وضعوا الأنوار أمام منازلهم رمزاً للتوراة التى يعبر عنها الشعراء اليهود بالنور وقرر الإخوة الحشوناييم فى اجتماع عقدوه مع البقية الباقية من أعضاء المجلس الأعلى إصدار قرار هام جداً للمستقبل ألا وهو اعتبار الأيام الثمانية ابتداء من يوم ٢٥ كسيليف (نوفمبر) أعياد طهارة العقيدة والمعبد .

ولم يقف الأمر عند هذا بل عاد المكابى إلى تطبيق النظام القديم فى المعبد من حيث تعيين الكهنة واللاويين وأقصى الذين انحرفوا واتبعوا الهلينية عن الخدمة وقد نتجت عن هذه المعاملة نتائج وخيمة إذ تجمع هؤلاء المزولون وأخذوا يكيدون للهيئة الجديدة أعنى للحزب الآخر وأدرك المكابيون أن الجويم يستعدون للانتقام والثأر فأخذوا يتحصنون وقد أدركوا أن هناك شوباً أخرى أخذت تنضم وتمتطفه

على السوريين وأخذت هذه الشعوب تتحمل من وجود يهود بين ظهرانيهم وقد أدركوا أن هؤلاء اليهود أخذوا يترصون بهم الفرص لئلا نقوذ المكابيين وتحقيق مطامعهم الانتقامية التوسعية فوجدوا الفلسطينيين في الجنوب الغربي الفينيقيين في الشمال الغربي والعمونيين عبر الأردن كذلك السوريين والمقدونيين وسائر أفراد الجاليات الأخرى تتهدد لمقاومة التوسع اليهودي وأكثر الشعوب حماساً ضد الظلمة اليهودية كان الآدميون في الجنوب وهكذا تطور وضع اليهود وضاع الأثر الذي تركه انتصار المكابيين في موقعتي «إسباروس» و«بيت صور» ولم تتحقق أطماعهم التوسعية في استعباد الجويم والاستيلاء على أراضيهم وأصبح وضعهم شديداً تماماً بوضعهم أيام نبوخذ نصر الذي إنقض عليهم وسبهم لكي يقضى على عنصر المشاقبة والاضطراب في الشرق الأدنى هذا حالهم أيام «انطيوخوس» فقد أصبح اليهود يعيشون في جزيرة في بحر من الأعداء الذين يترصون بهم للتخلص منهم تأميناً لكيانهم ، وقد تحققت هذه المخاوف عندما استمد «يهودا المكابي» لتوجيه ضربة إلى الشعوب المجاورة فهاجم الآدميين في جنوب فلسطين وطردهم من ديارهم وبعد ذلك هاجم الأردن فأدخل للمكابيين العرب في قلوب جيرانه . ولم يكفد يرجع المكابيين من حملاته هذه إلى أورشليم حتى علم أو ادعى أنه علم أن اضطهاد الحق يبعث اليهود المقيمين في جهات كثيرة سكانها من الهلانيين أعنى إقليمي «جلعاد» و«بيسان» و«الجليل» و«عكا» و«صور» و«صيدا» وغيرها فقد حدث أن اليهود النازلين وسط اليونانيين أرسلوا إلى المكابيين يطالبونه بالاستيلاء على هذه البلاد بحجة أنهم لا يتمتعون بحريتهم فأوسل «يهودا المكابي» أخاه «شمعون» على رأس جيش صغير إلى الجليل وتوجه هو وأخوه يونانان إلى الأردن وبقية جيشه وشعبه تحت قيادة قائدين وأرسله إلى غرب إقليم يهوذا لمواجهة الفلسطينيين ونجح شمعون بمحلمته واستولى على الجليل وجمع شمعون يهود الجليل وأجبرهم على الهجرة إلى إقليم يهوذا . أما يهوذا المكابي فقد هزم شرمهزيمة أمام الجيش الأردني الذي كان تحت إمرة قائد سوري يدعى تيموشاوس Timotheos وكان ذلك عام ١٦٤ ق . م . وفر المكابيين وعاد مع من بقي

معه من يهود جلعاد إلى اورشليم وصادف إلى جاء بعد ذلك عيد الأسابيع فاحتفل
 اليهود به ثم خرج يهودا على رأس جيش محاولا الثأر لنفسه من الهزيمة التي لحقت
 به وبقائديه الذين تركها لحماية البلاد من احتمال وقوع عدوان عليها وذلك لأن
 القائدين أرادوا الحصول على نصر طنان رخيصا على الجيش السوري الذي كانت تحت
 قيادة «جورجياس Gorgias» ومعسكرا في «يمنيا» فدحرمها وأوقع الرعب في اليهود
 عامة لذلك أراد «يهودا» محو آثار هذه الهزيمة أولا ثم بعد أن يتحقق له هذا
 يعود إلى تنفيذ البرنامج الذي أعده لتوسيع رقعة إقليم يهوذا فأخذ يترصد الفرص
 لتنفيذ خطته هذه فاستهزأ الاضطرابات الداخلية في سوريا والإخطار المحدقة بانطيو
 خوس واتقض على الجيش السوري بقيادة «ليزياس Lysias»، واضطر إلى الرضاء
 بالأمر الواقع إلا أن منازعات اليهود الداخلية والحصومات الحزبية وبخاصة تلك
 التي تناصر الهيلينية تعارضها اليهودية المتعصبة زعزعت المجتمع اليهودي وأدرك بهذا
 المكابي أن كفة اليهود الهيلينيين أخذت ترجع وأدرك أن شريعته ومعبدته في مهيب
 الريح فسيج المعبد بسور شامخ وأقام عليه بعض الأبراج للدفاع عنه إذا ماهاجمه
 الجويم واعتقد المكابي أن الفرصة مواتية له لمهاجمة الجويم فحاصروهم وأعد العدة
 للقضاء عليهم ونجح نفر من المحاصرين في الهرب والاتصال بالملك السوري الجديد ألا
 وهو رانطيوخوس اوبياتور Antiochos Eupator وأخباره عن حقيقة الوضع في
 اورشليم فما كان من الملك إلا أن ارسل حملة لرفع الحصار عن المحاصرين وضرب اليهود
 المتمردين متى سنحت الفرصة وقد سنحت هذه الفرصة وذلك في ربيع عام ١٦٢ ق.م
 وهو عام سبت عام مقدس عند اليهود لا زرع ولا عمل ولا مال والمكابيون يزعمون
 أنهم حماة الشريعة والشعب مضطرا إلى التقشف وعجز المكابيون عن إدخال المؤن
 الضرورية للشعب أو الجنود في القلاع التي يدافعون عنها .

فنقدم القائد السوري «ليزياس» في رفقة الملك الشاب «اوبياتور» على رأس
 جيش قوى أعد لضرب اليهود الضربة القاضية وتخليص الشرق من ويلاتهم وما كاد
 المكابي يبصر هذا الجيش وهذه العزيمة القوية لإبادته إلا وانسحب وحاول الاكتفاء

بالدفاع عن حسى المعبد وبيت صور ألا أن قواته لم تستطع الوقوف أمام الجيش السورى القوى الذى اقتحم اورشليم واضطر المكابى إلى الوقوف ولم يمكنه الهرب وهناك عند بيت زكريا بالقرب من بيت صور تلقى اليهود الضربة الأولى فلم يتحملها المكابى وجيشه فهرب عمتيا بمحسن المعبد إلا أن اليهود الذين كانوا فى ذلك الحصن هربوا عن طريق ممرات سرية وهكذا تعرضت اورشليم لنفس الوضع الذى تعرضت له أيام نبوخذ نصر لكن شاءت الأقدار أن خلافاً بين « ليزياس » وخصمه « فيليبوس Philippos » الذى جمع فى فارس وميديا جيشاً أراد به انتزاع أنطاكية من « ليزياس » فلما علم بهذا اضطر إلى نصيح الملك الشاب بعقد صلح مع المكابى عن أن يترك « ليزياس » المعبد ويكفل للمكابى إقامة الشعائر الدينية اليهودية ولما يمض زمن طويل حتى عاد الشقاق ثانية بين اليهود أنفسهم من ناحية وبينهم وبين الأخوة المكابيين أنصارهم من ناحية أخرى وتزعّم خصوم المكابيون — حاخام يدعى « يواحيم Joachin (وفى اليونانية) السكىموس Alkimos » وقد استغل هذا الحاخام وأنصاره استيلاء الأمير « ديمتريوس Demetrios » الذى كان رهينة فى روما وهرب منها على الحكم وشرح له « يواخين » كيف أن السلام لن يخل بالشرق ما لم يتخلص نهائياً من المكابيين والحسيديم مصدر الشر والفتن وأعداء السلام فاتهنز « ديمتريوس » هذه الفرصة ليفرض سلطانه على اليهود ويخلص الشرق من ويلاتهم وهكذا نجد « ديمتريوس » يسير فى طريق عمه من قبل إلا أنه لم يتعرض للدين بل عين حاخام أكبر جديداً لجمع البلاد ومنحه علاوة على السلطة الدينية سلطة أخرى سياسية وإدارية وتنفيذ هذا القرار أو كل إلى رجل عسكري جبار يدعى « باكثيديس — Bakchides » وأمدّه بقوة عسكرية صغيرة وسيرة إلى اورشليم فلم يكدهم الأخوة المكابيون وأنصارهم بنبأ وصوله حتى لاذوا بالفرار إلى الجبال إلا أن الحسيديم رفضوا الهرب مع المكابيين اعتقاداً منهم بأن الحاخام الأكبر من نسل هرون لذلك أقبل الحسيديم وكثيرين غيرهم على « بكديس » و « السكىمدوس » وأعلنوا ولائهم للنظام الجديد والمحافظة على السلام واستقرار الأمن وقد انضم إليهم

أعضاء المجلس الديني الأعلى « إلا أن الأمور تخرجت ثانية ونشبت حرب أهلية بين الطرفين عام ١٦١ ق.م. واتهمز « ديمتريوس » هذه الحصومات وأرسل جيشا تحت قيادة « بكتيديس » فطارد « يهوذا المكابي » في كل مكان حتى اضطره إلى أن يخوض المعركة فالتقى بـ « بكشيديس » في أبريل عام ١٦٠ ق.م. عند ميت ذيتا وسحقه وجيشه وسقط المكابي مدرجا بدمائه وبذلك انتهت أسطورة المكابيين التي كان شعارها « أن دماء الشهداء نشفي الجروح » .

عصر الامراء الحشموناييم (١٦٠-١٤٣ ق.م)

لم يكده « يهودا مكابي يفارق الحياة حتى أحاطت السكوارث باليهود من كل ناحية فهددته المجاعة وحطمته المشاحنات الداخلية وفي هذه الظروف حاول الأخوة الحشموناييم وهم يونانان وشمعون ويوحنا « اتقاذا لليهود من هذا الانحلال وتلك الفوضى التي تردوا فيها مع محاولة وقف تقدم الهلليين وأتباع « بكشيديس » إلا أن كل هذه الجهود ذهبت مع الريح .

فقد لجأ الحشموناييم إلى تكوين حزب قوى يستطيع الصمود في وجه الحزب الهليني وحاول كل فريق الفتك بالآخر متى سنحت له الفرصة بالرغم من أن الهلينية كفلت الحزب الحشموناييم حرية العبادة وتأدية الطقوس الدينية واحترام المقدمات إلا أنهم بالرغم من ذلك ظلوا يحقدون على الهلليين ويتربصون بهم الدوائر فقد عجزوا عن التخلص من غريزة الحقد والايقاع بغير اليهود أعنى بالجويم فاليهود يبغضون عادات وتقاليد غيرهم ويذهبون في بنفهم بعيداً حتى أنهم ينكرون على غيرهم الكفاءة والنبوغ هكذا تأمر التوراة وقول سراحها في الجمارا والتعود لذلك علق الحشمونايين كل آمالهم في تحقيق أوامر الشريعة التي تأمر بعدم الاشارة بفضل الجويم ولا تمنحهم اقامة على الأرض وتحرم على اليهودي أن يبيع للجوى شيئاً ثابتاً في الأرض لكن يجوز البيع إذا هدم ما على الأرض ويقول ربى يهوداً يجوز البيع لغير اليهودي بشرط الهدم والازالة كما تحرم حتى الحديث عن جمال غير اليهودية أو اليهودي « على المكابي « يونانان افوس Jonathan Aphus » ويذهب الحشموناييم بعيداً فيرجون منه اباده اليهود الهلليين لكي يحل السلام بالبلاد وكان « يونانان » أضعف من أن يواجه « بكشيديس » إذ لم يكده وجيشه والحشموناييم يلتقون بـ « بكشيديس » حتى هربوا إلى غابات الأردن ومن ثم حاولوا تهريب النساء والأطفال إلى قبيلة نبطية صديقة فالتقى « بنى عمرى » حلفاء السوريين بهم

فشكلوا بهم شر تكييل وبقائدهم « يونانان » بينا نجد « بكشيديس » بنقض على اليهود المختبئين في أحراش الأردن فيولون مذعورين إلى نهر الأرن ملتسيين النجاء بين أمواجه فيبتلع من يبتلع ولم ينج من أمواجه الصاخبة إلا النفر القليل . وأستولى الجيش السوري بقيادة « بكشيديس » على سائر تلك الإقاليم كما أنه ظل يطارد اليهود حتى أنهمكهم فكانوا لا يفروا من هزيمة إلا تتلقفهم أخرى وأخرى وأخيراً جمع القائد السوري أولاد أعيان اليهود وأخذهم رهينة . وهكذا نجح الجيش السوري عام ١٥٩/١٦٠ ق.م. في تحقيق خطته الخاصة بالقضاء على الكيان اليهودي جيشاً وشعباً كما استأصل شأفة الحشموناييم وساد السلام البلاد عامين ١٥٩ - ١٥٧ ق.م.

إلا أن اليهوديين الحشمونيم (يونانان) و (شمعون) غدرا وقررا التدمير لحرب أخرى فأنجها إلى واحة في صحراء (أريحا) بالقرب من الأردن وحيث توجد هناك غاية ونبع ماء فضلا عن أن نهر الأردن يستخدم خطا للدفاع لهما من جهة الخلف في حالة الهجوم عليهما أو ملاذا به عند الهزيمة والتقى بهما لجيش السوري بقيادة « بكشيديس » فهزم جيشهما وأبرم معهما صلحاً على أن يقدم « يونانان » رهائن من اليهود لبكشيديس ولا يدخل أورشليم . ومن عجائب الصدف أن ظهر في تلك الفترة شاب في أزمير يدعى (الكسندر بالاس Ai palas) واستقله (اتلوس Attalus ملك (برجاموس Pergamos) ليحمل منه منافساً خطيراً للملك سوريا «ديمتريوس» فاتصل بالحشموني يونانان وأغراه ليكون حليفاً له وطلب إليه أن يعد جيشاً ويعاون الكسندر مقابل الأفراج عن الرهائن اليهودية التي في قبضة السوريين فسارع يونانان إلى أورشليم واستولى عليها وحصنها بمساعدة (الكسندر بالاس) وبالغ الكسندر في سبيل كسبه نهائياً إلى صفه فأهداه معطفاً قرمزياً وتاجاً من الذهب وعينه الخاخام الأكبر واستقل يونانان عيد الظلال عام ١٥٢ ق.م. ودخل المعبد وأعلن نفسه حاخام أكبر فكان أول حشمونائي يبلغ هذه المكانه وهكذا احتفظ بها البيت الحشموناي زمنا طويلا وظل يونانان حاكماً تسع سنوات « ١٥٢ - ١٤٤ ق.م. » كانت سنوات

تقدم واتعاش لليهود لأنه عرف الجانب الذى يحالفه النزاع القائم حول العرش السورى أعنى (الكسندر بالاس) ضد (ديمتريوس) ملك سوريا الذى حاول جاهدا إصلاح ذات البين بين العرش السورى وبين اليهود فبالغ فى مراعاة شعورهم الدينى حتى حرم استدعاء اليهودى للتقاضى أو التحقيق معه فى الفترة الممتدة بين ثلاثة أيام قبل العيد وبعده وكذلك يوم السبت وبالرغم من كل هذه المعاملات الحسنة أخذ (يونانان) — الحشمونى جانب «الكسندر بالاس» وعاونه حتى تم له الانتصار على «ديمتريوس». وجلس «الكسندر بالاس» على عرش الملك طوال الفترة الممتدة من ١٥٢ إلى ١٤٦ ق. م وفيها حقق اليهود توسيع رقعة بلادهم أعنى إقليم يهوذا على حساب البلاد المجاورة وقد أدى هذا الوضع الجديد لللكية السورية واقتسامها بين «الكسندر بالاس» و «ديمتريوس» الثانى إلى أحداث فتنة بين السورىين أنفسهم فريق يدين بالولاء للكسندر بالاس وآخر لديمتريوس وانهز اليهودى يونانان هذا الظرف وقرر التخلص من الحزب المعارض أعنى الحزب اليهودى التقدمى المتأثر بالثقافة الهلينية فهاجم هؤلاء المعارضين فى عكا وحاصرها فطلب يهودها حماية الملك السورى ديمتريوس الثانى ، فما كان من اليهودى يونانان أن غدر بحليفة الكسندر بالاس وقصد «ديمتريوس» وقدم له كثيرا من الهدايا ونجح فى كسب ثقة الملك ديمتريوس حتى عينه حاكما أكبر وأخذ ينصب شباك الحليل ويوسع رقعة إقليمية حتى لم يبق أمام «ديمتريوس» الثانى إلا أن يعمل للتخلص منه فوصى أحد قواده إلا وهو «ديوبوتوس تريفون Diobotos Tryphon» بتدبير خطة للقضاء عليه فما كان من هذا القائد إلا أن غرر بيونانان واصطحبه وجيشة إلى عكا وهناك أنقض عليه السورىين فأوقع بالجيش اليهودى هزيمة ساحقة ووقع يونانان فى الأسر . أما الابن الحشمونى الباقى على قيد الحياة ألا وهو «شمعون» فلم يكذب يسمع بنجر هذه الهزيمة وأسر يونانان حتى بادر إلى الاستعداد للدفاع عن اورشليم إذا ما هاجمها القائد السورى «تريفون» Tryphon

وقرر تريفون أن يلجأ بالإبقاء على يونانان حياً لعبة تخدم سوريا وسائر الأقاليم المجاورة وتقضى نهائياً على الخطر اليهودى فأعلن « تريفون » أنه اعتقل « يونانان » ضماناً لتحصيل الضرائب المستحقة على إقليم يهوذا للخزينة الملكية فإذا ما سدد اليهود هذه الأموال وقدموا الابن الاثنى لليونانان رهينة لاستتباب السلام فإنه ولا شك سيطلق سراحه وهكذا نجد « شمعون » إناذا لحياة أخيه يونانان يرسل المال وابنى يونانان إلى القائد السورى « تريفون » وبعد ذلك أمر (تريفون) بإعدام يونانان عام ١٤٣ ق م . فاخفى شمع هذه الأسرة الحشمونائية من الوجود سياسياً لفترة ما وإن كان بعض أرماء هذا البيت ظل يقوم بدور ثانوى فى الحياة اليهودية فى فلسطين .

وإذا تركنا فلسطين واتجهنا إلى مصر لنعود إلى فلسطين ثانية وجدنا وطن الفراعنة لا يزال يرسل شماعه الروحى على سكانه والمستجبرين به أن مصر وطن موسى والتوراة والبقيدة اليهودية لا زالت مصدر التوجيه العقائدى اليهودى إبان عصر الحكم اليونانى إذ كانت مصر مأوى ومهجر اليهود فقد انتشر لليهود فى كنانة الله وجلهم وقتذاك حالهم أيام الآباء الأولين الذين وفدوا على مصر وتكاثروا فيها وتمتعوا بجميع الحقوق التى يتمتع بها المصريون واليونانيون وفى مصر تركز اليهود فى الإسكندرية خاصة كما اهتموا بطرق النقل البحرى واعتمد الرومان على الحاصلات الزراعية المصرية فاهتم اليهود بتجارة الحبوب وبيعها لروما ونقلها على السفن اليهودية فتجمعت ثروة التجارة والنقل فى يد اليهود فازدادوا ترفاً وأبهة كما اهتموا بثقافة اليونانية والمعلوم فكان يهود مصر الركيزة التى اعتمدت عليها اليهودية .

شمعون ويوحنا هيركان (١٤٣ - ١٠٦ ق م) .

اقتفى شمعون أثر أخيه يوحنا ، أعنى انتهاز فرصة ضعف العد فقام وحسن البلاد وقواها لتوسيع رقعتها ، وهكذا نجد شمعون يجرى البلاد نهائياً من سوريا وجعل من مملكة يهوذا دولة مستقلة كما تناهض من الحزب القدمى لذلك يوسف

عهد حكم شمعون الذي دام تقريباً تسع سنوات على أنه العصر الذهبي للبلاد إذ تمكن الشيخ أن ينعم بحياة الهدوء في خريف حياته وأخذ الشاب يفرح بشبابه والفلاح يتمتع بالجلوس تحت كرمه أو تينته .

ولسكى يؤمن شمعون نفسه من سوريا فسكر في وضع نفسه وبلده في خدمة روما عاصمة الطينيان في ذلك العصر فأرسل فارساً وفدأ إلى روما راجياً وضع بلده تحت حمايتها وذلك بوضعه ضمن رابطة دول الإمبراطورية الرومانية ورجبت روما بهذه الفكرة لأنها اعتبرت بها الخطوة الأولى للاستيلاء عليها نهائياً وأعلنت روما قرارها بضمها إلى الرابطة رسمياً عام ١٤٠ ق . م . ولم يكده يمضى قرنان على هذا الاعلان حتى طلبت روما من يهود فلسطين تكريم واحترام القيصر الروماني والدعاء له في المعبد وتلت هذه الخطوة خطوة أخرى تمت بعد ثلاثين عاماً من هذا الطلب قضت على الشعب اليهودي قتلاً وسيياً وكثيريبدأ وشاءت الأقدار أن بطليموس بن هبوب زوج ابنة شمعون اغتال شمعون عندما كان يتوم بجولة في البلاد وفي رومه روجه وأبناء الصغيران فر في رحلته بمحمن بالقرب من أريحا وهناك استقبله ابن هبوب استقبالا حسناً وأولم وليمة فاخرة لشمعون ومن معه وفي أثناءها انقض على شمعون وولديه « يزدا » و « متايا » وقبض عليهم وكان ذلك في فبراير عام ١٣٥ ق . م . أما ابنه الأكبر « يوحنا » فقد نجح لأنه كان قد تخلف . وهكذا مات آخر أبناء متياهو المكابي فلم ينج واحداً منهم من القتل .

إلا أن « يوحنا » لما علم بالخبر سارع وأخذ زمام المبادرة لمقاومة « ابن هبوب » وإحباط رغبته في الاستيلاء على الحكم بمساعدة سوريا فقام يوحنا بعدة أعمال عسكرية ضد خصومه وبخاصة الميركانيين لذلك اشتهر باسم « يوحنا هيركانو » ثم أرسل وفدأ إلى روما يعرض عليها حمايته للصداقة اليهودية الرومانية كما أشار إلى استيلاء سوريا على مينايا وغيرها فاستجابت روما إلى نداء يوحنا وأرسلت إلى انطيوخوس تطالبه بإعادة الأماكن التي استولى عليها إلى اليهود ثانية كما حذرته روما من محاولته القيام بأي عمل فدائي ضد اليهود وكان ذلك حوالي عام ١٣٣ ق . م .

واستغل اليهودى هيركان هذه الحمايم الرومانية وضعفت الجبهة الداخلية السورية وقرر توسيع رقعة حدود بلاده على حساب جيرانه من الشعوب الأخرى وفى ذلك الوقت أعنى عام ١٢٤ أرسل يهود أورشليم بزعامة المجلس الأعلى إلى يهود مصر وزعيمهم (يهودا أريستوبول والذى ينتمى إلى أسرة كهنوتية عريقة ومدرس الملك رسائل يطالبون فيها يهود مصر بالاعتراف بتطهير المعبد الأورشلمى من رجس الجويم والاحتفال سنوياً بهذه الذكرى .

ولم تقف مطامع (هيركان) أو يهود إقليم يهودا عند هذا بل نجده يدبر خطة أخرى للقضاء على الشعوب غير اليهودية المحيطة بإقليم يهودا فى الجنوب نجد الأدوميين وفى قلب يهودا نجد السامريين الأعداء الألداء وعلى الضفة الأخرى من الأردن نجد اليونانيين ولكى ينجح هيركان فى تنفيذ خطته التوسعية هذه قرر الاستعانة بجنود مرتزقة ولتمويلهم نبش قبر داود واستولى على ما به من ثروة وبدأ بالأردن فاستولى على مدينة مادبا Medaba و (ساميجاس Samegas) على بحيرة طبرية ثم أخذ يستولى على المدن السامرية تدريجياً فحطم (زيشيم Sicheim) والمعبد القائم على جبل • جريزيم Garizim (وأخذ اليهود يحتفلون سنوياً بيوم الاستيلاء على هذه البلاد وتحطيمها .

ولم يكتف اليهود بالاستيلاء على هذه البلاد بل أجبروا الأدوميين على اعتناق اليهودية وحطموا ما بدهم الأخرى وهكذا نجد اليهودية بزعامة (يوحنا هيركان) تضيق ذرعاً بالمقائد الأخرى فتقضى عليها .

وترتب على إرغام الأدوميين على اعتناق اليهودية بعد الاستيلاء على بلادهم إن اندلعت نيران الحرب ثانية بين اليهود وبين السامريين وذلك لأن أغلبية سكان مدينة السامرية كانوا من اليونانيون أو السوريين وإمعاناً فى اضطهاد المغلوبين نقل اليهودى • يوحنا هيركان (عددًا من الأدوميين الذين اجبروا على اعتناق اليهودية من إقليم (ماريسا) إلى إقليم سماريا فدفن هذا

العمل الانتقامى سوريا إلى الانتقام من اليهود فهاجوا إقليم يهوذا واستولوا على عدة
 أماكن ساحلية ومن بينها « يافا » فشكا اليهودى « هيركان » السوريين لدى روما
 حامية اليهودية واستجابت روما لتوسلات اليهود فهاجم اليهود سامريا واستولوا
 عليها بعد حصار طويل شديد وساواها بينها وبين الأرض فلم يترك اليهودى منزلاً
 قائماً وعموا معالم المدينة نهائياً وكان ذلك حوالى عام ١٠٩ ق.م. وهكذا استطاع
 اليهود بمساعدة روما الارتقاء بقدراتهم إلى مستوى جيرانهم من حيث القوة والمكانة
 إذ انتصر اليهود على جيرانهم الذين كانوا يهددونهم فالتسعت رقعة إقليم يهوذا بعد أن
 كسر اليهود الحصار المضروب حولهم وزحف اليهود إلى العالم الخارجى فنمت
 زوتهم وازداد خطرهم وبخاصة لما سقطت طرق القوافل بين مصر وسوريا في ايديهم
 وانهز يهود مصر الشحاء التى قامت بين ملك مصر « بطلميوس لاثوروس Ptole
 maens Lathuros ووالدته التى كانت تنازعه على عرش مصر واضطرته إلى
 الهرب إلى قبرص وأخذت ترميه بالجيش وراء الجيش للقضاء عليه نهائياً إلا أن
 الجيوش المصرية انضمت هناك إلى الملك فما كان من امه إلا أن سیرت إليه جيشاً
 يهودياً مصرياً تحت قيادة « هلشيا Helkia » و « أنانيا Anania » ابني
 « أونياس » فحققا رغبة أم الملك التى كانت خاضعة لنفوذ وتوجيه يهود مصر الذين
 يديرون الخطة لإضعاف مصر وشل يديها عن تقديم مساعدة لأصدقائها في فلسطين
 وسوريا وهكذا نجد يهود مصر يعملون مع يهود إقليم يهوذا يداً واحدة لتحقيق
 هدف مشترك الا وهو الاستيلاء على أكبر رقعة في الشرق أولاً وإضعاف جيران
 اليهود الذين قد يهددونهم ثانية وخصوصاً بعد أن تعلم اليهود من جيرانهم فنون
 الحرب والتسليح وإقامة الحصون وضرب النقود وزخرفة الممار فقد شيدت الأسرة
 الحشمونائية قصراً ضخماً على الطراز اليونانى وأمامه قاعة تعرف باسم كسيستوس
 Xystos لمقد الاجتماعات الشعبية وفي مدينة مادبا وطن الأسرة أقيمت مقبرة من
 الرخام على الطراز اليونانى . وفي هذا العهد ظهرت الفرق الدينية المختلفة الأوهى
 الحسيديم والاساة والفريسيين والصدوقييم .

أما الفريسيون قد اشتقوا اسمهم من اهتمامهم بتفسير الشريعة وعن هذا التفسير أثبتت قوانين أخرى وشعارهم المحافظة على اليهودية أعنى الشريعة واحترام سنن السلف الصالح وأي انحراف عن أصل الشريعة أو السنة يعتبر كفراً .

أما الصدوقيون فكانوا يقولون بمذهب النجاسة تبرير الوساطة فالمسائل الدينية يجب الانتقائية في سبيل تحقيق غاية سياسية ويسخر الفريسيون منهم ويقولون ويقدررون فتضحك الاقدار فقدرات الدولة والأفراد لا تتوقف على الناس بل على الله فأذن لاداعي للانحراف فلا القوة البشرية ولا الذكاء البشرى ولا القوة العسكرية تقرر حاضر الشعب اليهودى أو مستقبله بل إرادة الله هي الأولى والأخيرة ، وهكذا تصطدم الفرقتان الدينيتان حول كثير من المسائل الدينية والدينية والشباب والعقاب .

ثم نجد طائفة الصدوقيين تسلك طريقاً سياسياً خاصاً وذلك لأن معظم أعضائها من أغنياء اليهود ورجال الجيش والسياسيين الذين جموا كثيراً من الثروات والتجارب نتيجة أسفارهم واتصالاتهم بالعالم الخارجى وكان شعارهم الوطن أولاً والدين ثانياً وهم يؤمنون بأن الإيمان بالله والتمسك بشريعته لا يكفيان لضمان سلامة واستقلال الدولة اليهودية ، ويقول الصدوقيون إن منح الفرد حرية الإرادة ليختار الوسيلة التي تلائمها لكي يعيش حياة سعيدة فالإنسان هو سيد نفسه وسيد مقدراته والله لا يتدخل في المسائل الخاصة بالبشر أما الثواب والعقاب فينالها الفرد من النتيجة التي تأتيه من عمله ولا ضرورة لأن يؤمن الإنسان بالبعث بعد الموت. وفيما يتعلق بالشريعة وما إليها ووجوب احترامها والعمل بها فالصدوقيون يؤمنون بالشريعة المكتوبة فقط والواردة في الأسفار الخمسة الأولى أعنى التوراة أما الأحكام الأخرى التي جاءت عن طريق الرواية أو نشأت في عصور أخرى فلا قيمة لها ولا الفرد غير مطالب بالإيمان بها أو احترامها . فالفرق الرئيسي بين الصدوقيين والفريسيين يتناول المسائل القضائية والطقوس وأن اختلفت الطائفتان حول الطقوس المتعلقة بالعبادة .

وغير هاتين الطائفتين ظهرت طائفة «الإساة» وهي أصلاً امتداد للحشمونائيم الذين كانوا يعنون بصفة خاصة بتقديس السبت حتى حرموا على أنفسهم الغائط والبول يوم السبت، كما تخلصوا من الرذائل وملأوا الحياة وكانوا ملتزمين جداً حتى أن مجرد ملامسة شخص آخر يخالفهم يعتبر نجاسة تلزمهم الطهارة أو تقديم القرابين، لذلك كانوا يعتمدون عن المرأة حتى كأنهم يحرمون الزواج وكانوا ضد الحرب وينفرون من الجنود حتى العائدين منهم من المعركة الذين نجستهم جثث الموتى لذلك اختاروا لإقامتهم أما كن نائية عن الناس فأقاموا في الصحراء الواقعة غرب البحر الميت في واحة «عين جدى» كما رفضوا الملكية الفردية وذلك لأن كل فرد منهم يعيش في الجماعة والجماعة تعمل متعاونة للحياة وكانوا يلبسون ملابس بيضاء ويحمل كل فرد منهم جاروفاً حتى إذا اضطر إلى إخراج شيء من السليلين شق الأرض. وطى كل فرد أن يستحم كل صباح كما يفعل الحاخام قبل الصلاة تأكيداً لطهارة جسده.

وحدث أن «هيركان» الحشمونائي ناصر الصدوقيين على الفريسيين فغضب هؤلاء ومن ورائهم الشعب المتدين فدب بغض الشعب للحشمونائيم. وتوفى «هيركان» عام ١٦٠ ق م. وقد بلغ الستين عاماً وترك خمسة أولاد (أريستوبول) و (أنتيجونوس) و (السكندر) و (أسلون) ولا نعرف إسم الخامس. وبعد وفاته دب الشقاق بين اليهود كما حدث من قبل عقب وفاة سليمان بن داود.

خلفاء هيركان أريستوبول :

لما حضرت «يوحنا هيركان» الوفاة عين زوجته ملكة، وإبنة الأكبر «يهودا» أو كما يعرف في اليونانية بإسم «إريستوبول» كبيراً للحاخاميين، فطرد أمه من العرش وجمع هو بين الوظائف. ولم يكن «أريستوبول» بطرد أمه من العرش بل رَجَّح بها في السجن وممهاً ثلاثة من إخوته ولم يرع إلا أخاه «أنتيجونوس» الذي كان يتفق معه في مشاريعه ونظرته إلى الحياة وآرائه السياسية فأشركه معه في الحكم وسار سيرة أبيه فخاصم الفريسيين وأقصاهم عن نشاطهم فبغضه الشعب ونفر منه اليونان وأنصار الثقافة الهلينية فرأى اليونان فيه للصفة اليهودية الوضيعة بينما

تبين اليهود فيه غلظة القلب والقسوة، وقد ترك أمه في السجن تموت جوعاً، كما يقال أيضاً أنه دبر قتل أخيه « إتييجونوس » غيرة منه .

وأراد « إريستوبول » توسيع رقعة بلاده فمد حدود إقليم يهوذا شمالاً بشرق حتى بلغت مشارف دمشق، واقتنى أثر والده يهود الشعوب التي غالبها على أمرها . ومات إريستوبول بعد أن ملك سنة واحدة فقط (١٠٦ - ١٠٥) ق. م .

فجلس على العرش أخوه الأصغر « يونانان » أو كما يسمى أحياناً مختصراً « ينای » أو في اليونانية « الكسندر » وتزوج من « سالومي » التي تسمت فيما بعد « الكسندرا » . ورغب في الاستيلاء على بعض المدن الساحلية فاستولى على ميناء « بطليموس يهوذا » وهي قريبة من « عكا » الحالية، فلجأ سكانها إلى مصر فاتهبه الأمير « بطليموس لاثوروس » هذه الفرصة وسارع لتوسيع رقعة ممتلكاته وكان قد استولى على قبرص بسبب الحرب التي نشبت بينه وبين أمه ورغب « لاثوروس » الاقتراب من مصر براً فسارع وأرسل ثلاثين ألف مقاتل إلى شاطئ إقليم يهوذا، فضرب الجيش اليهودي ضربة قاضية، فقتل من قتل وأسره منه كثيرين كما هرب آخرون وانتقم لنفسه لا من الأسكندر فقط، بل من اليهود أنفسهم، وبخاصة فإن يهود مصر كانوا قد ضايقوه كثيراً بخياناتهم وعدائهم له فهم الذين حرضوا أمه كليوباتره عليه وأوهوها أنه بعد أن يفرغ من فتح يهوذا سينتفضعها في مصر ويستولى عليها، فعباة جيشاً قوياً تحت قيادة قائدين يهوديين وهما « حلقيا » و « ايننا » ابني « أونياس » الذين سارا بهذا الجيش إلى يهوذا وسوريا طامعين في الثأر لليهود الذين نكل بهم « لاثوروس » تنكيلاً جباراً واصطدم الجيشان وقتل « حلقيا » وانتصر « عنيانا » وجيش مصر على « لاثوروس » ورغب يهود مصر من كليوباترة تجريد الاسكندر من العرش وضم أملاكه إلى مصر إلا أن كليوباتره رفضت هذا الاقتراح يقيناً منها أن مثل هذا الضم قد يفهم أنه استيلاء على إقليم يهوذا فيتماون يهود مصر وغيرها مع أعدائها للقضاء عليها لذلك رأت الإبقاء على الاسكندر وعقدت معه معاهدة دافع مشترك حوالى عام

٩٨ ق م . للدفاع عن مملكة يهوذا ضد أى عدوان خارجى . إلا أن الاسكندر سلك مسلكاً أثار عليه طائفة الفريسيين لاستهتاره بطقوس المعبد نشأ عنه ضعف فى الجبهة الداخلية وتصدع خطير ، ومما زاد الطين بله جنونه بحب التوسع والتزوم مما أغضب الملك النبطى العربى «عبيدة» فانقض على الاسكندر بم جيش قدم به من شرق الأردن فأباد الجيش اليهودى ولم ينج الاسكندر من الموت إلا هرباً إلى اورشليم فزادت هذه الهزيمة من إشاعة الفوضى ، فاندلعت الثورات الداخلية طيلة ستة أعوام (٩٤ - ٨٩) ق م . ولم يستطع الاسكندر القضاء على الاضطرابات الداخلية إلا بفضل الجنود المرتزقة . ولما أعيته الحيلة طلب مصالحة الفريسيين فأبوا إلا قتله واتفق الفريسيون مع الملك السورى «ديمتريوس أويكاروس Demetrios Eukaeros» على احتلال البلاد فهرب الاسكندر من وجه الجيش السورى وهام على وجهه فى جبل إقزاييم ، ثم جمع حوله نفرأ من أنصاره وأسر عدداً من الفريسيين وصلبهم كما قتل نساءهم واطفالهم وإبان هذه المذبحة التى صلب فيها نحو ثمانئة رجل فأنارت هذه المذبحة وهذا الصلب خلق القوم حتى لقبوه بامم طرازيير «Thrazier» كما هرب من وجهه عدد كبير من اليهود الى سوريا ومصر .

ولما حضرته الوفاة عين امرأته ملكة وأحاطها بجماعة من المستشارين الذين يتولون زمام الأمور وأوصى الملكة بأنه عندما يفارق الحياة تسلم جثته للفريسيين الذين ناصبهم العداوة طيلة حياته ، والفريسيون إما ينتقمون من جثته فيشبعون شهوتهم الانتقامية أو يغفرون له ذنوبه ويوارونها التراب حسب الطقوس الشرعية، وقال جملته شهورة « لا تخف للفريسيين الصادقين ولا الخصوم الحقيقيين بل أخشى المنافقين المن الجائنين . » .

آخر ملوك الحشمونائيم (٦٩ - ٢٧) ق م :

لاشئء يجعل بزوال الدولة مثل التنازع على الرئاسة ونحريض كل طائفة شعبية على الأخرى وإقحامها فى هذه التنازعات التى تضصف الأمة وتمسكن عدوها منها .

فقد قررت الملكة « سالومي الكسندرا » وهي تعانى سكرات الموت التنازل عن العرش لابنها البكر، الا وهو « هيركان الثانى » عملاً بالشريعة الموسوية وقد اشتهر هذا الرجل بطيبة القلب مع ضعف فى الإرادة بخلاف أخيه الأصغر « أريستبول الثانى » الذى كان يشبه أباه قسوة ووحشية إذ لم تكفد تغمض الملكة عينها ويتولى « هيركان » الملك إلا وهجم « أريستبول » يعاونه الصدوقيون على أورشليم لإزالة أخيه من على العرش والذى كان يسانده الفريسيون والشعب والجنود المرتزقة الذين كانت تمولهم الملكة ، وتنفق عليهم وقد نجح « أريستبول » فى القبض على امرأة أخيه الملك وأولاده وأخذهم رهينة . وفى أريحا التقى الاخوان المتنازعان على رأسى جيشيهما وخسر « هيركان » المعركة وهرب إلى أورشليم وذلك لأن معظم المرتزقة هربوا وانضموا إلى أريستبول « الذى نجح أيضاً فى الاستيلاء على المعبد وأسرى خصومه الذين كانوا لاذوا به ، وأصبح أريستبول سيد العاصمة والمعبد وهكذا ضاع العرش الذى جلس عليه هيركان ثلاثة شهور فقط وضماناً لاستقرار الأمر اقترن ابن (أريستبول) المسمى (الكسندر) بابنة (هيركان) السماء (الكسندرا) وهكذا انتصر الصدوقيون على الفريسيين .

وشعر (أريستبول) بالخطر الذى قد يقضى عليه إذا ما تمكن الصدوقيون من الانتقام من الفريسيين أو محاولة فرض تعاليمهم على سائر اليهود بالقوة . وشاءت الأقدار أن أحد الأدوميين الذين هودم قوة واقتهاراً « يوحنا هيركان » وسنحت له الفرصة للانتقام لبنى جنسه . وهذا الأدوس هو « انتيباتر Antipater » بن « انتيباس Antipas » من أسرة أدومية كريمة وكان ثرياً ذكياً وسياسياً عظيماً حتى عينه الاسكندر حاكماً على إقليم أدوميا فكان يتمتع بحب الجميع من آدوميين وغيرهم من الأنباط وسكان قطاع غزة وعسقلون كما وقع اختيار « هيركان » عليه ليكون مستشاره الخاص بمد أن فقد صولجه ونصح « انتيباتر » الأدوى للملك الخلع أن يحتكم بخصوص عرشه الضائع إلى شخصية أجنبية ولتكن شخصية « أريستاس Aretas » ملك النبط ، وهرب كل من « أنتيباتر » و« هيركان » من أورشليم

إلى (بطزة) عاصمة الملك النبطي (أريتاس) ورجاه (هيركان) أن يناصره لاسترداد عرشه الشرعي، فإذا ما تم له هذا فإنه سيتنازل للملك النبطي عن اثني عشر مدينة تقع في شرق وجنوب غرب البحر الميت فتتحرك (أريتاس) على رأس جيش من خمسين ألف مقاتل إلى مملكة يهوذا والتحم عام ٦٦ ق. م. بجيش (أريستوبول) وهزمه واضطر (أريستوبول) إلى الهرب إلى أورشليم فلاحقه (أريتاس) للاستيلاء على أورشليم، فلم يسكده يهود أورشليم يروونه حتى هربوا من أورشليم، ولجأ معظمهم إلى مصر .

وانتهزت روما هذه الحرب وكانت في ضيق مالي فساومت الملكين اليهوديين المتنازعين، أعفى (هيركان وأريستوبول) على المسارعة إلى تقديم الذهب اللازم إلى القائد الروماني (سكوروس) فقدم «أريستوبول» كمية وفيرة من النقود الذهبية بينما اقتصر «هيركان» على بذل الوعود، لذلك سارع «سكوروس» وطالب «أريتاس» بفك الحصار عن أورشليم وإلا سيتعرض لانتقام روما التي كانت تخشى زيادة قوة الملك النبطي العربي «أريتاس» وكان ذلك عام ٦٥ ق. م، واغتر «أريستوبول» واعتقد أنه سيد الموقف والملك القوي وقد داعبه هذا الغرور عامين (٦٥ - ٦٣ ق. م) إذ هاجم القائد الروماني «بومبيوس» أورشليم واحتل مملكة يهوذا وهكذا نجح كفاح المكابيين ضد السوريين ثم تلاشى في أواخر عهدهم وتم للرومان احتلال البلاد واستعباد اليهود وانتهز «هيركان» هذه الفرصة ولجأ إلى روما طالباً منها التحكيم بينه وبين أخيه وبخاصة فقد جرد «بومبيوس» الملك «هيركان» من لقبه الملكي واحتفظ بلقب الحاخام الأكبر و «أمير الشعب» ووضعه تحت سيادة «انتياثر» الأديومي الذي عينته روما حاكماً على البلاد وفرضت جزية على اليهود .

والآن تساءل ما نوع الجزية التي فرضتها روما على اليهود؟ لم تسكن هذه الجزية من نوع الذي جرت عادة الرومان عليه، وليست الجزية التي كانت تفرضها على الشعب المنهزم أعني تأميم الأراضي الزراعية والحدائق والراعي مع تركها لأصحابها يستغلونها

كمتأجرين فقط على أن يوردوا بعض محصولها نظير الاتفاقيات - أ أو تركت بعض الأراضي لأصحابها الذين أدوا خدمات للرومان أو منحت روما أراضي الذين اوقفوا في الأسر الآخرين يستغلونها ؟

والواقع أن شراهم الرومان في امتلاك الأراضي تفوق كل شراة وذلك لأن الرومان لما أخضعوا البلاد اليهودية واستولوا عليها ففتتوها إلى ملكيات صغيرة وعادوا بها إلى ما كانت عليه قبل الحكم الحشمونائي ، كما أعلن « بومبيوس » أن جميع الموانى أو المدن الساحلية والتي تقطنها جاليات يونانية مدن حرة وتركها لسكانها كذلك الحال إمع كثير من المدن الداخلية أو الواقعة على الضفة الأخرى للاردن كما استقطع من قليم يهوذا كثيراً من المدن مثل « ماماريا وبيت شان » ومدن أخرى في وادى يزرعتل ضم مملكتها إلى سوريا ، كما ساق « بومبيوس » بعد انتصاره على أورشليم « أريستبول » وابنه « أنتيجونوس » وابنتيه وعمه « أرسالون » إلى روما لينضموا إلى مسيرة الأمراء الذين هزمهم « بومبيوس » وأسرمهم ، والذين طلب إليهم أن يسيروا أمام عربة « بومبيوس » في مسيرة النصر عام ٦١ ق م .

فهؤلاء اليهود الذين عرفوا روما عن طريق الأسر وجدوا ولا شك يهوداً آخرين فيها وفدوا من مصر وكانوا يعملون في تجارة الغلال بين مصر وروما وقد كانوا يقيمون على الضفة اليمنى لنهر التيمبر المواجهة لجبل الفاتيكان . وما كادت الحياة تدب في هؤلاء اليهود حتى أخذوا يتدخلون في توجيه الرأي العام الرومانى إلى مصالحهم مما اضطر أمثال « أبولونيوس مولو » وتلميذة « شيشرون » إلى بذل الجهود لمقاومة هذا الخطر اليهودى وبخاصة في دفاعه في قضية « فلاكوس Flaccus » فقد هاجم شيشرون اليهود وأنصح عن غرائزهم الشريرة وجرائمهم الشنيعة .

تطور العمائر الاسلامية بتطور وظائفها

بقـم

ر. سعاد ماهر

من الثابت أن الفن الإسلامي التشكيلي قام على أسس من فنون البلاد التي فتحها المسلمون أو خضعت لهم، ذلك أن طبيعة شبه الجزيرة العربية الصحراوية، وانتقال البدو من مكان إلى آخر سمياً وراء الكلاً والرعى لم يكن ليساعد على قيام فنون تشكيلية، اللهم إلا في أطراف شبه الجزيرة، كالمناذرة للتأخمين للدولة الساسانية، والفساسنة المجاورين للدولة البيزنطية، واليمن في الركن الجنوبي الغربي لشبه الجزيرة. حيث قامت فنون ضارعت فنون معاصريهم من الفرس والرومان.

على أن الفاتح العربي لم يقبل كل ما وجدته من تلك للفنون على ما هو عليه، بل استبعد منها ما كرهه الدين أو مالا يوافق مزاجه الخاص، ثم جمع ما اختاره منها. وصهره في بوتقة بعد أن طبعه بطابعة الخاص، الا وهو الكتابة العربية. وهكذا نستطيع القول أن الفن الإسلامي أخذ قوامه الروحي من وسط شبه الجزيرة العربية، أما قوامه للمادى فقد تم صوغه في أما كن أخرى كان للفن فيها قوة وحياء.

ولعل أبرز فروع الفن الإسلامي التي تأثرت بالجانب الروحي، هي العمارة، التي عني المسلمون الأوائل أن تكون مهمتها الأولى خدمة الدين، ومن ثم فقد تطورت الممار الدينية تطورا سريعا سائر ركب الحضارة الإسلامية الفتية، تعددت أشكالها وأساليبها تبعا لتمدد وتغير وظائفها.

وقد بدأت العمارة الإسلامية ببناء المساجد والأربطة بالمدراس والمصليات والخوانق والأسلطة والتسكيا. على أننا إذا أردنا أن نتتبع تطور العمارة الإسلامية وجدنا أن المسجد حاجر الزاوية فيها.

ولقد كان أول عمل قام به الرسول صلى الله عليه وسلم عند هجرته إلى المدينة هو بناء مسجد للمسلمين في مريد التمر الذي بركت فيه ناقته. وكان بناؤه بداييا بسيطا ، وكانت مساحته ٧٠ × ٦٠ ذراعا وجدرانه من اللبن ، سقف جزء منه بسعف النخيل وترك الجزء الآخر مكشوفًا وجملت عمد المسجد من جذوع النخل .

وقد نهج المسلمون هذا النهج في بناء مسجد البصرة سنة ١٤ هـ ومسجد الكوفة سنة ١٧ هـ ، كما اتبع عمرو بن العاص هذه السنة في بناء مسجده في مدينة الفسطاط سنة ٥٢١ هـ . وكانت مساحته وقت انشائه ٥٠ × ٣٠ ذراعا وجدرانه من اللبن وأعمدته من جذوع النخل وتسوده البساطة . وكانت مساجد البصرة والكوفة ومعمر خالية من المحاريب المحجوفة ومن المنابر والمآذن على غير امسجد الرسول عليه الصلاة والسلام ، فلما أراد عمرو بن العاص أن يتخذ له منبرا في مسجده . كتب إليه الخليفة عمر بن الخطاب يأمره بكسره قائلا له : « أما يكفيك أن تقوم قائما والمسلمون جلوس تحت عتيك » فكسره ، ولم يقتصر اتباع السنة في ذلك الوقت على بناء المساجد فحسب بل تمداه إلى الدور والمنازل ، فقد حدث بعد وقوع الحريق بمدينة الكوفة أن أرسل سعد بن أبي وقاص إلى عمر بن الخطاب وفدا يستأذنه في البناء باللبن فقال عمر « افعلوا ولا يزيدن أحد على ثلاثة آيات (عرف) ولا تطاولوا في البنيان والزمو السنة تلزمكم الدولة » .

وكان المسلمون في العصر الإسلامي الأول يقتصرون على استعمال كلمة المسجد لأما كن العبادة . والمسجد في اللغة هو الموضع الذي يسجد فيه ، فاما اتسعت رقمة الدولة الاسلامية وزاد عدد المسلمين بزيادة من دخل في الاسلام من أهل البلاد التي فتحها المسلمون ، تمددت المساجد في البلد الواحد ، كما تمددت الألفاظ التي تطلق على أما كن العبادة فأصبح هناك مسجد وجامع . والجامع هو نعت للمسجد لأنه مكان اجتماع الناس ويطلق على المسجد الكبير . وفي ذلك يقول المقرئ :

ولما افتتح عمر بن الخطاب البلدان كتب إلى أبي موسى الأشعري وهو على البصرة يأمره أن يتخذ مسجدا للجماعة ، ويتخذ للقبائل مساجد ، فإذا كان يوم الجمعة

انفموا إلى مسجد الجماعة. وكتب إلى سعد بن أبي وقاص وهو على الكوفة بمثل ذلك وكتب إلى عمرو بن العاص وهو على مصر بمثل ذلك أيضا . فكان الناس متمسكين بأمر عمر وعهده ، وكانت صلاة الجمعة تؤدي في المسجد الجامع (١) .

ومن ثم فقد أصبح لفظ الجامع مدلول سياسى في عهد الدولة الأموية فقد عرف بالجامع ، للمسجد الذى يؤم فيه الخليفة أو من ينوب عنه المسلمين في صلاة الجمعة أى أن لفظ الجامع أصبح يطلق على مسجد الدولة الرسمى الذى كان يعرف باسم المسجد الجامع .

وبطبيعة الحال لم يبق تخطيط المسجد على ما كان عليه في عهد الرسول والخلفاء الراشدين ، بل أخذ يتطور ويساير ركب الحضارة الإسلامية ، فقد رأت الدولة الأموية أن لا تقل مبانيها ، الدينية بصفة خاصة ، قيمة وقدرها عن المعابد المسيحية واليهودية في مصر والشام ومن ثم فقد بنى المسجد الأموى بتخطيط وأسلوب يختلف عن تخطيط المساجد الأولى ، وكان ذلك لضرورة اقتضتها ظروف الدولة الجديدة والشعوب ذات الحضارات والفنون التشكيلية المتقدمة التى دخلت في الاسلام، وأصبحت تكون عناصر هامة في الامبراطورية الاسلامية الناشئة .

هذا ولم تقتصر وظيفة المسجد في المجتمع الاسلامى الجديد على تأدية الصلاة فحسب بل كان يؤدي عدة وظائف أخرى لعل أهمها الناحية الثقافية، ففي أروقتة وحول أعمدته تعقد حلقات الدرس والوعظ والارشاد . كما كانت تعقد فيه الجلسات لفض المنازعات الدينية والمدنية ، كذلك كان به بيت المال كما كان الحال في المسجد الأموى وجامع عمرو ، وفيه كان جلوس متولى الحسبة . من هذا يفهم أن المساجد في العهد الأموى وأوائل العصر العباسى، على أقل تقدير كانت تمثل دور الحكومة في مفهومنا الحديث ، إلى جانب وظيفتها الأساسية الدينية. وبديهي وقد أصبح المسجد يؤدي خدمات ووظائف متعددة تختلف باختلاف الشعوب والبيئات أن تعدد الأساليب المعمارية في بناء المساجد، وإن اتخذت جميعها مقومات العمارة الاسلامية وجوهرها . فقد كانت معظم المساجد حتى القرن الرابع الهجرى تحتوى

على صحن مكشوف تحيط به الأروقة من ثلاث جهات أو من جهتين على أن يكون أكبر الايوانات هــ و رواق القبلة لأهميته كما احتوى كل مسجد على محراب ومنبر ومئذنة وفي كثير من الأحيان على مiazza .

أما تخطيط المسجد ، فكان غالباً مربعاً في العراق وإيران ومستطيلاً في مصر والشام وشمال أفريقيا . وتعليل ذلك سهل ميسور ، فأما كن العبادة السابقة على الإسلام في بلاد ما بين النهرين كانت ذات تخطيط مربع ونفى بها (الاتش جاه) أى بيت النار ، أما في غرب العالم الإسلامي حيث كانت تسوده المسيحية فكانت كنائسهم معظمها ذات تخطيط مستطيل .

وفي النصف الثاني من القرن الرابع الهجرى بدأت تظهر في شرق العالم الإسلامي أسماء جديدة لأنها كن العبادة عرفت بالمدارس ، ثم انتشرت في غرب العالم الإسلامي في القرن الخامس الهجرى وهذا التغير في الاسم لا بد وأن يكون لحكمة اقتضتها الوظيفة الجديدة أو الدافع المباشر .

كذلك صاحب التغير في الاسم تغيرات جوهرية في التخطيط الممارى . وقد اختلف علماء الآثار والمؤرخون في وظيفة المائر التي عرفت بالمدارس ، ولعل أقربها تلك المناقشة الحادة التي دارت في الندوة العالمية لألفية القاهرة حول هذا الموضوع . وهو هل كانت المدارس في أول نشأتها تؤدي وظيفة المدرسة أو هو مجرد تشابه في الاسم لا في الوظيفة . لذلك رأيت قبل أن أتكلم عن نشأة المدرسة ووظيفتها أن أذكر شيئاً عن أنواع الثقافات التي عنى المسلمون بها في العصور الوسطى . ونستطيع أن نجمل هذه الثقافات في قسمين كبيرين ، الأول ويشمل دراسة علوم الأقدمين ، وقد أطلق عليها العرب إسم علوم الأوائل ، وتشمل الرياضة والطبيعة وعلم الفلك والطب والفلسفة وعلم الديانات وما إليها وكانت تدرس في عمارت تسمى (دارالعلم) أما القسم الثاني من الثقافة فيشتمل على العلوم الاسلامية التي تقوم أساساً على القرآن وما جاء فيه من أحكام والحديث النبوى ، ومن هذين المصدرين لشعبت دراسات أخرى دينية وقضائية واجتماعية .

ومدينة نيسابور هي أول مدينة إسلامية أطلقت كلمة مدرسة على (دار العلم) وكان ذلك في عهد محمود الغزنوي في القرن الرابع الهجري ، وقد أنشئت المدرسة البيهقية والسعيدية ومدرسة أبو سعيد الأسطرابلي ومدرسة أبو إسحاق الأصفهاني (١) المتوفى سنة ٤١٨ هـ . وقد ظلت هذه المنشآت عمائر محمية مدة خمسين عاماً ثم قضى عليها تماماً بعد قتل وزير طغرل بك ، إلا أنها بنيت من جديد على يد نظام الملك أعظم (٢) رجل تولى الوزارة في عهد السلجقة قاطبة ، يل وأعظم وزراء الشرق في عصره ، فقد ظل وزيراً لثلاثة من السلاطين هم طغرل بك وألب أرسلان وملك شاه . وقد استطاع بثاقب فكره وبعد نظره أن يستفيد من هذه المنشآت الثقافية والدينية في نشر المذهب السني ومناهضة المذهب والشيعة ، وهكذا أصبحت المدارس منشآت عامة بعد أن كانت خاصة ، يتخرج فيها الموظفون الذين يتولون إدارة الشؤون الادارية وما إليها في دولة السلجقة .

وقد أنشأ نظام الملك كثيراً من المدارس الأولى منها في نيسابور وذلك في منتصف القرن الخامس الهجري وأعقبها في بغداد وطوس والبصرة وأصفهان وهرات وبلخ (٣) وقد حذا حذوه كثير ممن خلفه من السلجقة وانتشرت المدارس في كل الولايات السلجوقية .

وما فعله نظام الملك في إيران وجنوب العراق فعله الأتابكة في الموصل ودمشق وفعله نور الدين وصلاح الدين في شمال العراق وسوريا . وهكذا نرى هؤلاء الأمراء ذوى الأصل الكردي أو المنغولي والمتعصبين للمذهب السني ، هم الذين نشروا المدارس في غرب العالم الاسلامي .

نخلص من هذا أن الشيعة هم أول من أنشأ المعابر الثقافية التي كانت تعرف من قبل باسم دار العلم ، كما أنهم أول من أطلق عليها اسم المدرسة ، والفرض الأساسي

(1) L. Mass guou: Ler Nedreneh de Bagdöel (B I , F A O) ua I, VII P P 78 - 9

(2) F q Brown: Literary History of Pers : a, vol II pp 175-214

(3) Van Berchom: (C I A) Egypt p p 25 - 60

من إنشائها هو تدریس ونشر المذهب الشیعی . وكان ذلك في القرن الرابع الهجری .
إبان حکم محمود التزنوی . وفي القرن الخامس الهجری نشر الأمراء الأکراد والنول
ذووی المذهب السنی هذه المدارس في غرب العالم الإسلامی كما جمواها منشآت عامة
تشرف علیها الدولة علی خلاف مدارس الشيعة الخاصة في القرن الرابع الهجری .

وما قيل عن العالم الاسلامی عامة يمكن أن يقال عن مصر خاصة ، فکما نشأت
المدارس في شرق العالم الاسلامی علی يد الشيعة ، علی أنها معاهد خاصة ، نشأت
في مصر علی يد السنین كماهده خاصة كذلك . فقد جاء في ابن میسر^(١) أن الوزير
رضوان بن الوخشي أنشأ مدرسة في الاسكندرية سنة ٥٣٢هـ نشر المذهب الشافعی .
ويقول ابن خلكان^(٢) أن ابن سلال وزير الخليفة الفاطمی الظاهر انشأ مدرسة
سنة ٥٤٦هـ في الاسكندرية كذلك . ويذكر القلقشندي^(٣) أن مسرور أنشأ مدرسة
سنية بالقاهرة في عهد الدولة الفاطمية ، فلما جاء صلاح الدين إلى مصر نشر هذه
المنشآت التنافية وجمها عامة بعد أن كانت خاصة من قبله . وكان غرضه الأول من
ذلك هو القضاء علی المذهب الشیعی مذهب الفواطم وذلك بنشر المذهب السنی عن
طريق المدارس .

أما عن التخطيط المعماری للمدرسة فمن الثابت أن التخطيط الأول كان عبارة
عن إيوان واحد في الضلع للمواجه للقبلة أما الأضلاع الثلاثة الأخرى فكانت تحتوي
على غرف للطلبة وذلك لأن المدارس كان معظمها مخصصة لمذهب واحد ، فقد أحصى
كرزويل ثمانین مدرسة في سورية بينها ٣٣ مدرسة مخصصة للمذهب الحنفي و(٣١)
المذهب الشافعی وتوسع للحنابلة وواحدة للمالكية ومن بينها ست مدارس للمذهبيين
هما الشافعية والحنفية .

أما عن مدارس مصر فقد أمدنا المقریزي بمعلومات علی جانب عظیم من الأهمية
فقد أحصى عدد المدارس الموجودة حتى عصره في القرن (١٥) وتبلغ (٧٢) مدرسة
وقد قام الأستاذ كرزويل بترتيبها ترتيباً زمنياً ، ودرس الموجود منها حتى الآن
فتبين له أن المدارس الأولى كانت ذات إيوان واحد لأنها كانت مخصصة لمذهب
واحد . وأول مدرسة خصصت لمذهبيين كانت المدرسة الفاضلية التي أنشأها

(١) ابن میسر : نشر ماسيه Massé ص ٨٣

(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان ١ ص ٤٣ ، ج ٢ ص ١٣ ، ١٤

(٣) القلقشندي : صبحی الأعشى ٣ ص ٣٥٦

صلاح الدين سنة ٥٨٠ هـ المذهب والمالكي والشافعي، وذلك بعد بناء المدرسة الأُسدية بـ أول مدرسة خصصت لمذهبيين قسورياسبت مصر بـ اثنتي عشرة عاماً. وتعتبر المدرسة الكاملية المبنية سنة ٦٢٢ هـ والتي ما تزال باقية، وأن كانت في حالة خربة، أقدم مدرسة ذات أيوانين باقية حتى الآن. وبما يؤيد أن المدرسة الكاملية كانت تحتوى على أيوانين فقط، أن الجانب الشمالى الشرقى من المدرسة يشغله الآن حمام يعرف باسم حمام السلطان وعلى خريطة الحملة الفرنسية يعرف باسم حمام يبصارى الذى حل محل قصر الأمير يبصارى الذى يرجع تاريخ إنشائه إلى سنة ٦٥٩ هـ .

والمدرسة الصالحية التى أنشأها الصالح نجم الدين سنة ٦٣٩ هـ والتي احتلت جزءاً من قصور الفاطميين، إذ يقول المقرئى أنها تقع بحى بين القصرين فى القاهرة وأنها من جملة القصر الكبير الشرقى، وهى مع احتوائها على أربعة أيوانات للمذاهب السنية الأربعة إلا أن تخطيطها يعتبر فى الواقع تكراراً للمدرسة ذات الأيوانين إذ أنها تتكون من مجموعتين تفصل بينهما حارة الصالحية الآن ويجمعهما مدخل المدرسة الرئيسى الذى تعلوه المئذنة .

وكان المقرئى دقيقاً فى وصفه للمدرسة إذ يقول عنها :

فبنى الملك الصالح نجم الدين أيوب هاتين المدرستين، فأبتدأ بهدم موضع هذه المدارس فى قطعة من القصر فى ١٥ ذو الحجة سنة ٦٣٩ وفى سنة ٦٤١ هـ رتب فيها دروساً أربعة للفقهاء المنتمين إلى المذاهب الأربعة وهو أول من عمل بمصر دروساً أربعة فى مكان واحد، ودخل فى هذه المدرسة باب القصر المعروف بالزهومة وموضه قاعة شيخ الحنابلة الآن .

والجزء الباقى من هذه المدرسة هو المجموعة الجنوبية التى تتكون من أيوانى الشافعية فى الشرق والمالكية فى الغرب أما المجموعة الثانية التى تتكون من أيوان الحنفية فى الشرق وأيوان الحنابلة الذى حل محل باب الزهومة فى الغرب فقد بنيت

هكاتها مجموعة من الحوائيت وأن كانت واجهه المجموعة ما تزال موجودة وبحالة لا باس بها .

وتعتبر المدرسة الصالحية أول مدرسة في مصر ذات أربعة أيوانات ولكنها ليست متعامدة كما أنها ليست أول مدرسة في العالم الإسلامي درست المذاهب الأربعة، فقد سبقتها المدرسة المستنصرية (١) في بغداد بعشر سنوات والتي خصصت للمذاهب الأربعة بالإضافة إلى دارين أحدهما للحديث وأخرى للقرآن ، أى للقراءات السبع . ورغم تخصيص هذه المدارس الأربعة إلا أن تخطيطها غير متعامد كما أنها لا تشبه تخطيط المدرسة الصالحية .

على أننا نستطيع القول بأن أول مدرسة في مصر احتوت على أربعة أيوانات متعامدة هي المدرسة الظاهرية التي بناها السلطان الظاهر بيبرس البندقدارى سنة ٦٦٢ هـ وتمت في سنة ٦٦٣ هـ وتشغل قاعة الحليم وباب الذهب من القصر الشرقى الكبير (٢) . وللأسف لم يبق من هذه المدرسة غير إيوان واحد هو الإيوان الجنوبي الشرقى وبه المحراب وكتلة من الواجهة مساحتها ١١ × ٥ متراً ملاصقة لضريح الملك الصالح نجم الدين أيوب ، بسوق النحاسين شارع المعز لدين الله الآن (الصاغة) . فقد تهدمت المدرسة سنة ١٨٨٢ عندما شق طريق بيت القاضى وقد ترك لنا المقرئى من التفاصيل الدقيقة ما يؤيد ما ذهبت إليه بحوث الأثريين في القرن العشرين فهو يقول . وجلس أهل الدروس كل طائفة في إيوان، منها . الشافعية

Massignon : Le Medraseh de Bagdad P.80 & Herzfeld :
Archaeologische Reise im Euphrat und Tigrisgebiet II.P.161. & Creswell:
Origin of the Cruciform Plan of Cairere Madrossas .P.36.

(٢) المقرئى ج ٤ ص ٢١٦ (طبعة النيل) .

بالإيوان القبلى . والحنفية بالإيوان البحرى . وأهل الحديث بالإيوان الشرقى والقراء
بالقراءات السبع بالإيوان الغربى » .

على أن أول مدرسة خصصت للمذاهب الأربعة فى مصر وذات تخطيط متعامد
هى المدرسة الناصرية . وهى تقع بجوار القبة المنصورية، فى شرقها كان موضعها حماما
فأمر السلطان الملك العادل زين الدين كتبغا المنصورى بإنشاء مدرسة موضعه .
فأبتدىء فى وضع أساسى وارتفع بناؤها عن الأرض إلى نحو الطراز المذهب الذى
بظاهاها فلما خلع كتبغا وعاد السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون إلى السلطنة
للمرة الثانية سنة ٦٩٨ هـ . فأمر بأتمامها فأكملت سنة ٧٠٣ هـ . وإلى هذه المدرسة
نقلت واجهة كنيسة بعا كان قد استولى عليها السلطان الأشرف خليل بن قلاوون
سنة ٦٩٠ هـ . ونقلها إلى القاهرة الأمير علم الدين سنجر الشجاعى (١) .

وإذا جازلنا أن نقول أن المدارس إنما إنتشرت فى مصر فى العصر الايوبى لمحاربة
المذهب الشيعى ونشر المذهب السنى . فإن تصميم مدرسة السلطان (٢) حسن بن محمد
ابن قلاوون التى بدأ إنشاؤها سنة ٧٥٧ هـ يدل دلالة واضحة على أنها إنشئت بقصد
الثقافة والعلم بالإضافة إلى الدعوة إلى السلطان . وتتكون المدرسة من أربعة إيوانات
متعامدة تحيط بالصحن خصصت للمذاهب الأربعة وبجانب كل من الإيوانات
الأربعة مدرسة .

وتبلغ مساحة المدرسة الحنفية على سبيل المثال ٨٩٨ متراً مربعاً . ويتكون تخطيط
المدارس الأربعة جميعها

من إيوان وصحن تتوسطه فسقية ثم طبقات بعضها فوق بعض تشرف على صحن
المدرسة وعلى الواجهات . وقد قرر السلطان حسن لهذه المدارس مدوسين

(١) المنزى ج ٤ ص ٢٢٢ .

(٢) هرتس ناشا : تاريخ جامع السلطان حسن ص ١٥ .

ومراقبين وعين لهم مرتبات (١). كما قرر لكل مذهب من المذاهب الأربعة شيخاً ومائة طالب وعين طبيين أحدهما باطنى والآخر كحال محضران كل يوم بالمسجد لداواة من يحتاج إلى علاج من الموظفين والطلبة . ورتب ثالثاً جراحاً . وقد أُرصد في وقتيه مرتبات الأساتذة والطابة والموظفين وقيمه ما يصرف لهم من المأكل كل ليلة جمعة وما يصرف لهم في الأعياد .

وهناك رأى للدكتور أحمد فكري، لم يسبق إليه خاصاً بوظيفة المدرسة ، وقد جاء في البحث الذى تقدم به سيادته للندوة العالمية وموضوعه خصائص عمارة العصر الايوبى ، فقد أثبت أن وظيفة المدرسة الرئيسية لم تكن هى التدريس فحسب . فقد كانت المساجد تتخذ للتدريس منذ عهد الرسول عليه الصلاة والسلام وذلك فى مسجد قباء . وفى مصر كانت الدروس تلقى فى جامع عمرو وفى الجامع الطولونى والأزهر والحاكم . بل أن وظيفة المدرسة الرئيسية فى العصر الايوبى كانت إعداد أماكن ملحقة بموضع التدريس لسكنى طبقة مختارة من المدرسين والطلاب . وإنى إذ وافق أستاذنا الدكتور أحمد فكري على ما ذهب إليه من الناحية المعارية وهو أن المساجد الجامعة التى كانت تلقى فيها الدروس على أقل تقدير منذ القرن الثانى للهجرة . لم تكن فيها أماكن لسكنى المدرسين والطلاب . وأنى أرى أن السبب الأساسى فى نشأة العمائر التى عرفت باسم المدرسة لم تكن فى الواقع القصد منها إيجاد أماكن للمدرسين والطلبة . وإنما يرجع إلى عامل سياسى دينى مذهبى « القصد منه هو نشر المذهب المخالف لمذهب الدولة الرسمى متخذين من اسم المدرسة ستاراً يتسترُونَ وراءه . فالمدرسة البيهقية والسعيدية ومدرسة أبواسحق الاصفرانى التى أنشئت فى عهد محمود النزنوى فى القرن الرابع الهجرى فى نيسابور كان القصد منها نشر المذهب الشيعى المناهض لمذهب الدولة العباسية السنى . كما أن إطلاق اسم

(١) المخطط التوفيقية ج ٤ ص ٨٤ .

المدرسة على تلك العماير التي أنشئت في مصر في عهد الدولة الفاطمية في القرن الخامس الهجري على يد الوزير رضوان بن الولخش وابن سلال في الاسكندرية وابن مسرور في القاهرة لنشر المذهب السني كان القصد منه مناوأة مذهب الدولة الفاطمية الشيعي . فلما جاءت الدولة الايوبية بعد دولة الفواطم وجدت في هذه المنشآت للسماة بالمدارس بيتها في نشر المذهب السني والقضاء على المذهب الشيعي ، فاكثرت موح بنائها حتى بلغ ما أثنى من المدارس في العهد الايوبي أربعة وعشرين مدرسة في القاهرة واثنين في الفيوم ، وجعلت منشآت عامة بعد أن كانت منشآت خاصة في العهد الفاطمي . ثم أخذت في تطوير عمارتها حتى أصبحت تفي بكل مطالب المدرسة من صلاة وتدريس وإيجاد أماكن للدارسين . وقد اكتمل التخطيط للمدارس في العصر المملوكي ومن أحسن الامثلة لها مدرسة السلطان حسن بن محمد ابن قلاوون سنة ٧٥٧ هـ .

ومن العماير الدينية الهامة عند المسلمين الخاناتاوات التي انتشرت في القرن الرابع للهجرة جملة لا بواء الصوفية فيها للعبادة . أما عن نشأة التصوف فيذكر المقرئ (١) نقلا عن أبي القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري ، أن المسلمين بعد رسول الله لم يتسم أفاضلهم في عصرهم بتسمية علم سوى صحبه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إذ لافضيلة فوقها فقبل لهم الصحابة ولما أدرك أهل العصر الثاني سمي من صحب الصحابه التابعين ، وقبل لخواص الخواص ممن لهم شدة عناية بأمر الدين الزهاد والعباد . وانفرد خواص أهل السنة المراعون انفسهم مع الله باسم متصوف واشتهر هذا الاسم قبل المائتين من الهجرة وغلبت التسمية على هذه الطائفة فيقال رجل صوفي وللجاعة الصوفية .

وهناك رأي آخر في نشأة التصوف في الاسلام يورده المقرئ ولكنه لا يفسره

(١) المقرئ ج ٤ ص ٢٧١

قال : « المتصوفون ينسبون إلى صفة مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم » ورأى ثالث قال : « أنه من الصفاء » .

أما عن المهامة مبان لسكنى هؤلاء المنتظمين ، فإن أول من اتخذ بيتا للعبادة زيد بن صوحان بن صبرة وذلك إنه عمده إلى رجال من أهل البصرة قد تفرغوا للعبادة وليس لهم تجارات ولا غلات فبنى لهم دوارا وأسكنهم فيها وجعل لهم ما يقوم بمصالحهم من مطعم ومشرب وملبس وغيره .

وهناك نرى أن عمائر الزهاد نشأت منذ القرن الأول للهجرة ولكنها انتشرت في شرق العالم الاسلامي في القرن الرابع ، أما في مصر فقد انتشرت المباني المخصصة لإقامة الزهاد المنتظمين للعبادة الذين عرفوا بالتصوفين في العصر الأيوبي ، فقد أنشأ صلاح الدين الأيوبي أول دار لهم . وقد عرفت هذه الدور في مصر كما عرفت في مشرق العالم الاسلامي باسم الخانقاة أو الخانكة . وهي كلمة فارسية معناها البيت وقيل أصلها خوتقاة أى الموضع الذى يأكل فيه الملك . وعرفت خانقاة صلاح الدين باسم الخانقاه الصالحية وهي بخط (١) رجة باب الميد من القاهرة وكانت أولا دارا تعرف في الدولة الفاطمية بدار سعيد السعداء . فلما تولى صلاح الدين ، عمل هذه الدار برسم الفقراء الصوفية الواردين من خارج البلاد ووقفها عليهم في السنة تسع وستين وخمسمائة ورتب لهم معاشهم .

وتبين من الفقرة السابقة التي أوردها للمقرئى ، أن خانقاه الصالحية كانت عبارة عن دار فاطمية قديمة اتخذت دارا للصوفية وبذلك نستطيع القول أن الخانقاة وجدت في العصر الأيوبي أما اتخاذ تخطيط مमारى خاص بها فلم يظهر إلا في العصر المملوكى . ولعل أقدم الامثلة لها وأكملها الخانقاة التي بناها ركن الدين بيبرس الجاشنيرى قبل أن يسلى السلطنة وهو أمير ، فبدأ في بنائها سنة ٧٠٦ هـ وبني بجانبها رباطا كبيرا

يتوصل إليه من داخلها وجعل بجانب الخاتمة قبة لكي يدفن بها . ومن جملة شبائيك القبة كما يقول القرظي الشباك الذي حمله الامير أبو الحارث البساسيري من بغداد لما غلب الخليفة العباسي القائم بأمر الله ووضع بدار الوزارة الفاطمية ودمر فيها إلى أن عمر ببيرس الخاتمة المذكورة فجعله بالقبة .

وتقع الخاتمة بحى الجمالية وهى من جملة دار الوزارة الكبرى وتبلغ مساحتها خدانا وثلاث فدان . وتتكون الخاتمة من صحن على جانبيه الشرق والغرب ابوانان معقودان وهى فى ذلك تشبه المدارس ذات الابوانين . أما الجانبان الآخران فقد أنشئ بهما خلوات للصوفية بعضها فوق بعض .

ومن المماز التي انتشرت فى العصر الايوبى الاضرحة التي أخذت شكلا معيناً وهو مربع منطى بقبة . على أن اقامة الاضرحة ليست حدثاً فى العصر الايوبى ، فقد أقامت الدولة الفاطمية كثيراً من الاضرحة وقصرتها على أهل البيت وكبار رجال الدولة من الشيعة مثل السيدة نفيسة ورقية وعاتكة والجعفرى وبدر الجمالى وعرفت بالمشاهد، أسوة بما أطلق على أضرحة الأئمة من العلويين . فلما جاءت الدولة الأيوبية رأت أن تحول الانظار عن اضرحة الشيعة وذلك ببناء أضرحة لأئمة السنة ، فأقامت أم السلطان الملك الكامل قبة الامام الشافعى سنة ٥٠٨هـ واجرت عليها الماء من بركة الحبش ومنذ ذلك الوقت أقبل الناس على بناء مفاير موتاهم بجوار الامام الشافعى وعرفت تلك المنطقة بالمجاورة بالقرافة الصغرى . ويعتبر ضريح الامام الشافعى اكبر الاضرحة فى مصر على الاطلاق وأقدم قبة خشبية بمصر وذلك إذا استبعدنا الاضرحة الملحقة بالمدارس والخانات ، إذ تبلغ مساحته ٥٠٠ متر مربع تقريباً وارتفاعه ٢٩ متراً . ومن الطريف أن قبة الامام الشافعى يعلوها عشارى طولها متران ونصف وقد اختلف المؤرخون والاثريون فى تفسير وجود العشارى فوق القبة ، فقال البعض أنها أعدت لوضع الحبوب للطيور والبعض الآخر قال أنها رمز على أن الامام الشافعى بحر فى العلوم والمعارف اعتماداً على قصائد

الشعر التي احتوت هذا المعنى والتي تذكر منها بعض آيات من قصيدة البوصير صاحب
البردة :

بقية قبر الشافعي سفينة رست في بناء محكم فوق جلود
ومذ غاض طوفان العلوم بقبره استوى الملك من ذلك الضريح على الجودي
وقال أبو الفتح موسى بن ملهم في القرن الرابع عشر :

مررت على قبة الشافعي فعاين طرفي عليهم المشاري
فقلت لصحبي لا تمجبوا فان المراكب فوق البحار

على أني أرى يا لاضافة إلى المعنى السابق أنه يريد بالاضافة إلى وصفه بالعلم بأنه
بحر العلوم والمعرفة أنه لا يقال عن أئمة الشيعة ، الذين قصر الفواطم لفظ الامامة
عليهم درجة ومنزلة .

ومن الاضرحه الهامة في العصر الايوبي ضريح السادات الثمالة ، والحلفاء
العباسين وضريح شجر الدر ، ثم ضريح الصالح نجم الدين أيوب الذي يمكن اعتباره
أول ضريح الحق بمدرسة . ثم أصبحت الناعدة بعد ذلك الحاق القباب بالمدارس
والمساجد والخانقاوات .

أما في العصر العثماني فقد اختلف تصميم المساجد اختلافا كبيرا عن العمار الدينية
السابقة فلا هو تصميم مسجد ولا هو تصميم مدرسة . وهنا لا نستطيع القول
أن الوظيفة هي الدافع في تمييز تخطيط المساجد العثمانية ، بل هو دافع سياسي
أرادت به الدولة العثمانية صبغ الولايات التابعة لها بتبعية فنية لتأكيد التبعية السياسية.

فقد اتخذ العثمانيون من طراز المصليات السلجوقية في القرن الخامس الهجري
ساسا لعمارهم الهامة (١) . وكان قوام التخطيط العثماني هو القبة الكبيرة المبنية من

(١) نجد وصفا مفصلا لمصلى (Barsiyan) بإرسيان بالقرب من أصفهان للمقدس

في كتابه احسن التقاسيم .

الحجر عادة وتحيط بها من جميع الجهات فيما عدا جهة القبلة أيوانات محمولة على
 أكتاف تماؤها قباب منخمة . ومن أحسن الامثلة لذلك مسجد سنان باشا ومسجد
 محمد علي بالقلمة الذي يعتبر نسخة من مسجد السلطان أحمد باسطنبول .

ومن المأثر الدينية الأخرى في العصر العثماني غير المساجد ، التكايا التي حلت
 محل الخانات في العصر العثماني إذ أنها تؤدي نفس الوظيفة أي أنها خاصة باقامة
 المنقطعين للمعبادة ولسكنها تطورت بعد ذلك وأصبحت خاصة باقامة العاطلين من
 العثمانيين الوافدين على البلاد ، ومن هنا قيل عنها أنها مأوى (تنابلة السلطان) ، أي
 الكسالى الذين لا عمل لهم . أما من حيث التخطيط فهي مجموعة من الطرز والأساليب
 المعمارية فهي أساسا تشبه تخطيط المنزل الاسلامي ذي الصحن المتسع وتوجد بالدور
 الأرض مجموعة من الايوانات والقاعات المنسمة ومسجد . وبالادوار العليا توجد غرف
 للمبيت ثم يلحق بالتكسية مطبخ ودورات مياه ومنزل لشيخ التكسية .

obeykandi.com

التنمية الاقتصادية لبلدان الخليج العربي

في العصر العباسي

دكتور ابراهيم احمد العنوي

صارت الدولة العباسية في حقيقة جوهرها — منذ تأسيس بغداد — دولة خليج عربي ، وجزء لا يتجزأ من عالمه وأهله^(١) . وقد ورثت هذه الدولة عظمة دول الخليج القديمة التي سبق أن أسسها الآشوريون والكلدانيون ، وأخيراً الفرس الساسانيون وعرف العباسيون من هذا التراث المائل الذي آل إليهم ولاعتادهم بصفة خاصة على الفرس في إدارة دولتهم أمثل السبل للنهوض بأحوال الخليج العربي وتنمية هذا المصدر الأساسي من مصادر الدخل في دولتهم . وكانت الحقيقة الهامة التي وقف عليها العباسيون من تراث للآضي أن العقبة الخطيرة التي واجهت دول الخليج القديمة والتي حالت دون سلامتها هو فشلها في تنمية موارد تلك البلاد بسبب التناحر الذي سيطر على سواحل الخليج الثلاثة والتناحر الذي ساد سكان تلك السواحل من أجل الاستئثار بأكبر قدر ممكن من ثروات الخليج لأنفسهم دون مراعاة للصالح العام^(٢) .

(١) كان لتأسيس بغداد على دجلة الذي تجرى مياهه إلى الخليج العربي أثر في ربط هذه العاصمة بتجارة الشرق الأقصى في الهند والصين التي أتأتى إلى الخليج ، فضلاً عن تدفق سلم الجهات المجاورة عليها . وعبر عن ذلك مؤسس بغداد الخليفة أبو جعفر المنصور ، فقال « هذه دجلة ، وليس بيننا وبين الصين شيء يأتينا منها كل ما في البحر » ثم أضاف هذا الخليفة أيضاً عن بغداد موضحاً أنها « مشرعة للعالم » كل ما يأتي دجلة من واسط والبصرة والإبلة والاهواز و فارس وعمان واليمامة والبحرين وما يتصل بذلك فاليها تلقى وبها ترسى . انظر : الطبري، تاريخ الرسل والملوك (المطبعة الحسينية) ج ٩ ، ص ٢٣٨ ، يعقوبي، كتاب البلدان (ليدن ١٨٩٢ ، ص ٢٣٧) .

(٢) يعتبر الهجوم الذي قام به أكابرة الفرس على البحرين والشاطئ العربي للخليج زمن كسرى المشهور باسم سابور ذي الاكتاف نموذجاً لهذا الطمع الذي أساء إلى اقتصاديات الخليج العربي قبل الاسلام .

وانجهدت سياسة العباسيين منذ أيامهم الأولى إلى العمل على تخليص بلدان الخليج العربي من تلك الروح المدمائية والقضاء على رواسيها كذلك بين السكان اعتمدت تلك السياسة العباسية الجديدة على تنمية الموارد الاقتصادية لبلدان الخليج، ثم تنسيق التكامل الاقتصادي بينها بما يهيء لكل بلد من تفجير طاقاتها الكامنة بشكل يحقق لأهلها أولاً الرفاهية والطمأنينة، ويمكن الدولة العباسية تانياً من السيادة، وأخذ النشاط التجاري للخليج العربي يستند لأول مرة في تاريخه — بفضل سياسة العباسيين — إلى زراعة واسعة وصناعة راقية أسهمت فيها كل بلد من البلدان حسب إمكانياتها وقدراتها . وغدا طريق الخليج على عهد العباسيين منطقة جذب كبرى للتجارة العالمية ، تجدد في موارد بلدانه ما يثريها ويوسع مجالها . فالنجارة في كل مكان وزمان ليست إلا تاجاً لما تفيض به ميادين الزراعة من محاصيل وما تخرجه ميادين الصناعة من سلع وأدوات على اختلاف الأشكال والأنواع .

واستلزمتم تنمية الموارد الاقتصادية لبلدان الخليج العربي عودة العباسيين إلى التنظيم الإداري الساساني الذي جعل من المقاطعات البحرية المطلقة على الخليج وحدات لها كيانها المستقل عن الجهات الداخلية المجاورة لها (١) . واشتملت تلك المقاطعات البحرية على بلاد العراق التي يجري فيها القسم الأوسط من دجلة والفرات ثم اتقاهما معاً في شط العرب إلى الخليج العربي . وكذلك مقاطعتي عمان والبحرين على الشاطئ العربي للخليج ، وأخيراً مقاطعات هوزتان وفارس وكرمان على الشاطئ الفارسي للخليج . وكانت معالم هذه المقاطعات قد تعرضت بعد الفتح الاسلامي وطوال عهد الأمويين للتغيير والتبديل حسب مقتضيات الفتوح وسياسة الأمويين في دمشق . فكانت عمان والبحرين تنضم أحياناً إلى الجامة ونجد بوسط شبه الجزيرة العربية، وأحياناً

(١) لسترنج ، بلدان الخلافة الشرقية (ترجمة كوزكيس عواد ، بغداد ١٩٥٤ ص ١٤)
Wilson, The Persian (Gulf London 1956) .

كان والى الكوفة يشرف على تلك المقاطعات ومعها المقاطعات الفارسية حتى بلاد ماوراء النهر ، ولا سيما زمن الفتن التي واجهت الأمويين في العراق ، وأيام الفتوحات الأموية في المشرق أيضاً (١) .

وحدد المبسوطون منذ أيامهم الأولى معالم النظام الإداري لبلدان الخليج العربي وذلك بالعودة إلى نظام المقاطعات البحرية الذي ساد أيام الفرس الساسانيين والاحتفاظ كذلك بأسمائها وأقسامها المحلية ، التي اتفقت مظاهرها ومعالمها مع البيئة الجغرافية لعالم الخليج العربي . فظلت كل مقاطعة تنقسم طبقاً للنظام الفارسي إلى كور أو أساتين وكل كورة أو أساتين إلى رساتين وكل رستان إلى طسا سبيج وشرح الجغرافي ياقوت هذه الاصطلاحات الإدارية قائلاً : الكورة إسم فارسي بحت يقع على قسم من أقسام الاستان ، وقد استمارتها العرب وجعلتها إسماً للاستان فالكورة والاستان واحد (٢) .

« والكورة كل صقع يشتمل على عدة قرى ، ولا بد لتلك القرى من قصبه أو مدينة أو نهر يجمع إسمها ذلك إسم الكورة كقولهم . . نهر الملك (بالعراق) فإنه نهر عظيم ، يخرج من الفرات ويصب في دجلة ، عليه تمر ثلاثمائة قرية ، ويقال لذلك جميعه نهر الملك . . » (٣) وانتقل ياقوت إلى شرح معنى الاستان قائلاً إنه في الأصل يعنى المأوى ، ثم صار الاستان والكورة شيئاً واحداً . وأوضح أن الاستان ينقسم بدوره إلى الرساتين ، وينقسم الرستان إلى الطساسبيج وينقسم كل طسوج إلى عدد من القرى . . (٤)

(١) الطبرى ، نفس المرجع ، ج ٩ ، ص ١٤٩ .

(٢) حتى ، تاريخ العرب (مول — بيروت ١٩٦٥ ، ج ٢١ ص ٤٠٧ ، ٤٠٨ .

(٣) ياقوت ، معجم البلدان (القااهرة ١٩٠٦) ج ١ ، ص ٣٧ .

(٤) ياقوت ، نفس المرجع ، ص ٣٦

« وأما الرستان : فهو .. مشتق من دودنهستا .. ودوده إسم للسطر والصف والباط ، ونسأ إسم للحال .. وللعنى أنه على التسطير والتنظام . قلت : الذى عرفناه وشاهدناه فى زماننا فى بلاد الفرس إنهم يمتنون بالرستان كل موضع فيه مزارع وقرى ولا يقال ذلك للمدن كالبصرة وبندباد ، فهو عند الفرس بمنزلة الجواد عند أهل بنداد وهو أخص من الكورة والاستان . » (١)

« وأما الطسوج .. فهو أخص وأقل من من الكورة والرستان ، والاستان ، كانه جزء من أجزاء الكورة .. لأن الكورة قد تشمل على عدة طساسيج ، وهى لفظة فارسية أصلها تسو ، فعربت بقلب التاء طاه ، وزيادة الجيم فى آخرها ، وزيد فى تعريبها يجمعها على طساسيج . وأكثر ما تستعمل هذه اللفظة فى سواد العراق وقد قسموا سواد العراق على ستين طسوجا ، أضيف كل طسوج إلى إسم » (٢) .

ومهد العباسيون عند احتفاظهم بالنظام الادارى الساسانى لبلدان الخليج العربى على تطهيره فى نفس الوقت من عيوبه القديمة التى تجلت فى التفرقة بين سواحله وسكانها . ونجح العباسيون فى ذلك بفضل اتباعهم للنظام المركزى منذ أيامهم الأولى والذى يستهدف مراقبة العمال والاشراف الدقيق على أحوال البلاد . وساعد العباسيين على دعم هذه الخطوة انتظام ديوان البريد ، الذى اهتم به الخليفة أبو جعفر المنصور اهتماما عظيما ، واتخذة أداة لربطه بسائر أرجاء الدولة ، ومعرفة أحوال رعيته وللبادرة إلى رفع أى حيف أو غبن يقع عليها . وعبر الخليفة أبو جعفر المنصور عن الطابع الجديد الذى استهدفه من الادارة على عهده قائلا :

(١) ياقوت ، نفس المرجع ، ص ٣٧

(٢) ياقوت ، نفس المرجع ، ص ٣٨

« ما كان أحوجنى إلى أن يكون على بابى أربعة معز لا يسكون على بابى أعف عنهم فقيل له يا أمير المؤمنين ، من هم ؟ قال : هم أركان الملك ، لا يصلح إلا لهم ، كما أن السرير لا يصلح إلا بأربعة قوائم إن نقصت واحدة تداعى ، وهى : أما أحدهم فقاض لا تأخذه فى الله لومة لائم ، والآخر صاحب شرطة ينصف الضعيف من القوى والثالث صاحب خراج يستقصى ولا يظلم الرعية فإنى من ظلمها غنى . والرابع ثم عض على أصبمه السبابة ثلاث مرات يقول فى كل مرة آه ، قيل له من هو يا أمير المؤمنين ؟ قال : صاحب بريد يكتب إلى غير هؤلاء على الصحة » (١) .

ونالت بلدان الخليج العربى قدرا كبيرا من هذه العناية الادارية المباشرة ، فتولى إدارة المدن الكبرى فيها عمال وفق النظام الذى تحدث عنه الخليفة للنصور ، مع آخرين تتفق مهامهم مع طبيعة تلك النواحي التجارية . وكان من هؤلاء العمال الكبار : القاضى وصاحب البريد والبندار وصاحب المعونة (٢) وساد تلك البلدان أيضا الرخاء الاقتصادى الذى سهر الخليفة للنصور على تحقيقه إذ حرص على مراقبة الأسعار باعتبارها عنوانا على الأحوال الاقتصادية والعمل على عدم ارتفاعها ضمانا لاستقرار الناس وتوفيرا لأسباب العيش الكريم لهم . فكانت ولاية البريد فى الأفاق كلها « يكتبون إلى للنصور أيام خلافته ، فى كل يوم : بسمر القمح والحبوب والادم ، وبسمر كل ما آكل وبكل ما يقضى به القاضى فى نواحيهم ، وبما يعمل المولى ، وبما يرد بيت المال ، وكل حدث .. فإذا أوردت كتبهم نظر فيها ، فإذا رأى الأسعار على حالها أمسك ، وإن تغير شيء منها عن حاله كتب إلى المولى والعملى هناك وسأل عن العلة التى تعطلت ذلك عن سعره فإذا ورد الجواب بالعلة تلتطف لذلك برحفته حتى يعود سعره ذلك إلى حاله » (٣) .

(١) الطبرى ، نفس المرجع ، ج ، ص ٢٩٧

(٢) متر ، الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى (ترجمة أبو ريده) (١٩٥٧)

ج ٢ ، ٢٧٣ .

(٣) الطبرى ، نفس المرجع ، ج ٩ ، ص ٣١٤

وبلغ من انتظام البريد في عهد أبي جعفر المنصور أن عماله كانوا يوافونه بذلك مرتين في كل يوم ، فإذا صلى المغرب وافوه بما حدث طول النهار ، وإذا صلى الصبح كتبوا إليه بما جرى في الليل من أمور (١) . واستطاع الخليفة أن يحقق هدفه الاقتصادي وهو توفير الرخاء للناس ، حتى قال أحد معاصريه « رأيت في زمن أبي جعفر المنصور كبشا بدرهم ، وحملا بأربعة رواق ، والتمر ستين رطلا بدرهم ورأيت ستة عشر رطلا بدرهم . والسمن ثمانية أرطال بدرهم . » (٢)

ونقلت طرق البريد المتفرعة من بغداد إلى سائر بلدان الخليج العربي صورة زاهرة عن هذا الرخاء الاقتصادي الذي سادت تلك الأرجاء ، وهزم رجال الإدارة هناك إذ دأب للعباسيون على تعيين كبار العمال في بلدان الخليج من أبناء البيت العباسي نفسه أو من كبار رجالات الدولة للشهود لهم بالولاء للبيت العباسي والقدرة على تحقيق سياسته . وغدت بلدان الخليج العربي تشعر بالترابط والموودة لأول مرة في تاريخها ، حتى صار الخليج العربي بحيرة عباسية ينعيم أهلها في ظل الإدارة العباسية بالطمأنينة ويأتيهم رزقهم رغدا .

ووصف الجغرافيون والرحالة المسلمون هذه الروح الجديدة التي سررت في بلدان الخليج العربي ، وما اقترن بها من تنمية اقتصادية واسمة النطاق إذ جعل النظام الإداري العباسي من مقاطعات الخليج العربي وحدة مترابطة أشبه بالطائر له صدر وجناحان . أما الصدر فهو مقاطعة العراق ، والجناح الأيمن ضم عمان والبحرين التي صارت مقاطعة واحدة حاضرتها البصرة في العراق أما الجناح الأيسر فانتظم مقاطعات الساحل الفارسي للخليج والتي ظلت تحمل نفس اسمائها وتمدادها القديم وهي : خوزستان وفارس ثم كرمان .

(١) Von Kromer, Orient under the Caliphs, P. 233.

(٢) الخطيب البغدادي ، تاريخ بغداد (الفاخرة ١٣٤٩ هـ) ج ١ ، ص ٨٠ ؛ الجهشيارى ،

الوزراء والكتابات (تحقيق السقا) ، ص ١١٧

أولاً : العراق أو السواد :

انتظم العراق في ظل النظام الإداري للدولة العباسية نفس المقاطعة البحرية التي أنشأها الفرس الساسانيون حين نقلوا عاصمتهم إلى المدائن من أجل السيطرة على طول الخليج العربي وعالمه (١) . فكانت بلاد العراق تعني نفس اشتقاقها اللغوي من الهلوسة وهو الأراضي الواطئة (٢) إذ جرى سهل العراق الفسيح امتداداً طبيعياً لحوض الخليج العربي نحو الشمال على شكل مستطيل منبسط ينحصر بين جبال زاغروس وكرستان من جهة الشرق وبين الهضبة الصحراوية من جهة الغرب غير أن العباسيين فضلوها أخلاقاً (السواد) على بلاد العراق إمعاناً في التمييز بين هذا الإقليم الخصيب الحافل بالبحار مجرى دجلة والفرات وفروعها المديدة نحو الصحراء الممتدة في كل من بلاد العرب وجنوب الشام (٣) .

ووضع العباسيون لعاصمتهم بغداد نظام إدارياً يدعم روايتها مع أرض السواد باعتبارها جزء من عالم الخليج العربي . ذلك أن بغداد كانت بفضل شبكة الملاحة النهرية التي أقامها العباسيون تطل بوجهها نحو الخليج العربي وتعتبر مدينة من أهم مدنه ، ومعاملاً كبيراً في حياة الاقتصادية . ولذا حرص العباسيون في نظامهم الإداري على جعل بغداد إحدى حواضر إقليم السواد ، فضلاً عن مكائنها باعتبارها مقر الخلافة وعاصمة الدولة العباسية . فكان القسم الشرقي من بغداد حيث قصور الخلافة تحت إشراف الخلفاء أنفسهم : أما باقي أرجاء العاصمة فكانت تتبع إدارياً لمسوح بادوراياء (٤) ، أشهر نواحي العراق خصوبة وزدهارا بالزراعة .

(١) Wilson . op cit. 60.

(٢) حتى : تاريخ العرب — مطول (بيروت ١٩٦٥) ج ١ ، ص ٢١٠

(٣) ابن خردادبة ، المسالك والممالك (ليدن ١٨٨٩ ، ٦٢٥) .

(٤) الطبري ، نفس المرجع ، ج ٩ ، ص ٢٤٢ ، متر . نفس المرجع ، ج ٢ ، ص ٢٢٣

واقضى هذا الوضع الإدارى لبنداد ، فضلا عن نظرة العباسيين إلى العراق باعتباره أرض السواد أن تكون الزراعة والثروة الزراعية موضع الاهتمام الرئيسى للخلفاء وعملهم . واستطاع العباسيون تنمية الزراعة بالعراق عن طريقين ، أولهما تنظيم وسائل الري والثانى توسيع رقعة الأراضى الصالحة للزراعة . أما عن الأولى فكانت مجارى دجلة والفرات لا تطلب إلا شق الترع والقنوات لتوصيل المياه إلى الأراضى الزراعية . وتولى دجلة رى مساحات واسعة من الجانب الشرقى للبلاد ونحويلها إلى حقول لزراعة الحنطة والشعير والأرز . وتولى نهر الفرات رى معظم أراضى السواد ومساهمتها فى الميدان الزراعى بإنتاج حاصلات جديدة ، مثل الملس وهو نوع من الحبوب والجاروسى وهو نوع من الدخن (١) .

وتتطلب العامل الثانى وهو توسيع رقعة الأراضى الزراعية صيانة السدود والمنشآت واللبثوق . وكان هذا الأمر شاقا ، لأن أرض السواد تضررت كثيرا للفيضانات وانسباح الماء فى البطامخ وتخريب الأراضى الزراعية وكانت المحافظة على السدود تتطلب بدورها سهرا مستمرا لأنها كانت شىء من القصب والتراب الذى يمجز أحيانا عن مقاومة اندفاع الماء . وكان يكفى أن ثغرة يسيرة على إحدى نواحي السد حتى يتولى الماء الهدم والتخريب فربما أفسد فى ساعة تمب سنة أو نحوها (٢) وخصص العباسيون لهذا الغرض طائفة من العمال قائمة بذاتها ، لا مهمة لها إلا حماية الجسور وتوفير السلامة للأراضى الزراعية . وإلى جانب ذلك أقيمت قناطر عديدة على مجارى الأنهار لتنظيم توزيع المياه ومنعها من تخريب الأراضى الزراعية .

(١) متر ، نفس المرجع ، ج ٢ ، ٢٩٧ وصالح العلى : التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية فى البصرة (بيروت ١٩٦٩ ، ص ١٨٦) .
(٢) متر ، نفس المرجع ، ج ٢ ، ص ٢٣٠ .

وحرص العباسيون على تخفيف الأعباء عن كاهل الفلاحين وإتاحة السبل أمامهم للعمل في طمأنينة وعدالة . وكان من أهم الخطوات التي قام بها العباسيون في سلك هذا السبيل إنشاء « نظام المساحة » الذي كان معمولا به منذ عهد عمر بن الخطاب — بل من قبل ذلك زمن الفرس الساسانيين وتطبيق « نظام المقاسه (١) » ومعنى نظام المساحة أن يكون هناك خراج مقرر معين على مساحة محددة من الأرض تجتبه الدولة في كل عام — جملة أو متجزأ — دون نظر إلى ما يحدث من اختلاف كمية المحصول أو اعتبارات أخرى .. أما نظام المقاسه فهو أن تقاسم الدولة والناس ما ينتج من محصول بنسبة معينة : الثلث مثلا للدولة والثلثين للمزارعين دون اعتبار للمساحة . فيغير الخراج بطبيعة الحال بتغير المحصول الذي ينتج (٢) وجاء نظام المقاسه فائدة للفلاحين وتخفيفا للاجحاف عنهم . وقد طبق هذا النظام على جميع ما تنتجه العراق ليس فقط من الحبوب ، بل وعلى التمور والفاكهة أيضا .

وكان يزرع في العراق أنواع كثيرة من التمور ونجاحه في البصرة . وترتب على ذلك أن صارت العراق تحمل بالحبوب والفاكهة ، وغدت تجارة المواد الغذائية من أهم مصادر الثروة في البلاد فصدرت للعراق الحبوب ونجاحه إلى جهات الساحل العربي للخليج والجهات الداخلية من شبه الجزيرة العربية التي تفتقر إلى تلك المنتجات الهامة . واشتهرت بعض مدن العراق بأنواع خاصة من التجارة تتفق مع منتجاتها الزراعية ، ومن ذلك الكوفة التي اشتهل أهلها بتجارة الزيوت المستخرجة من السمسم . (٣)

صعب الانتاج الزراعى تقدم صناعى كذلك ، فاشتهرت بلاد العراق بصناعة المنسوجات الكتانية والصوفية والحريرية حتى وصفها الجغرافيون والرحالة المسلمون

(١) الماوردى ، الأحكام السلطانية (مصر ١٢٩٨ هـ) ص ١٦٨ .

(٢) ضياء الدين الرئيس ، الجزائر (١٩٦٩ ، ص ٤٣٠) .

(٣) مز ، نفس المرجع ، ج ٢ ، ص ٣٩٠ ، صالح العلى ، نفس المرجع ، ص ١٩٥ ، ١٩٦ .

بأنها أكثر الاقطار الإسلامية «صوفا وقزا» (٥) وكانت البصرة أهم مراكز تلك الصناعة وإنتاج أنواع جيدة من الخبز والبر. وأدى الازدهار الزراعي واللقدم الزراعي إلى قيام تجارة رائجة بالعراق ومع جيرانه كذلك. وسرعان ما ظهرت الحاجة إلى وضع كثير من التشريعات لتنظيم تلك التجارة وحمايتها من جشع التجار. إذ كان أولئك التجار يتلاعبون أحيانا في تجارة الحبوب، وذلك بشراء كميات كبيرة وتخزينها انتظاراً لارتفاع الأسعار ثم بيعها واضطرت السلطات العباسية إلى إغراق الأسواق بمقادير من الحنطة للقضاء على مثل هذا التلاعب وأصاب تاجران من تجار الحبوب على عهد المأمون خسارة فادحة أمام بقظة الإدارة ورقابتها الفعالة. فبعد أن توفما ربحا مقداره عشرة آلاف درهم انخفض سعر الحبوب وخسرا ستة آلاف درهم (١).

ووضعت السلطات العباسية الأسواق تحت مراقبة دقيقة فبعد غروب الشمس تنتهى الحركة في الأسواق، ويجعل التجار سلمهم إلى المخازن وتخلو الأسواق من الناس عدا الحراس. وجلس في الأسواق رجل يسمى «القائد» حرفة تمييز الدراهم وفحصها واكتشاف الزائفة منها. وطبقت السلطات العباسية أيضاً الشريعة الإسلامية في المعاملات المالية بما يقضى على الربا وغيره من وسائل التحايل حتى صار البائع والمشتري يتعاملان في ثقة وطمانينة. وحمل الفقهاء لواء البصرة العباسيين باى خلل يصيب النواحي الاقتصادية وبخاصة عن مساوىء جياة الضرائب وكان أولئك الجباة يتخذون أما كنهم على طرق للتجارة النهرية والبرية المدينة بالعراق، وينصبون حبالاً بين صفى دجلة والعرات ويوقفون السفن وتحصيل الضرائب منها حسبما تحمله

(١) المقدسى، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ص ٦٤٥.

(٢) متر، نفس المرجع، ج ٢، ص ٣٩٦.

من تجارة . وكانت السلطات العباسية تبادر إلى منع أى أذى ينزل بالتجار أو الناس ومراقبة الجباة مراقبة شديدة (١)

ونمت بلاد العراق زمن العباسيين بذلك برفاهية جملت وارداتها تزيد على صادراتها ، فكان أهل العراق مثلاً يستهلكون كل إنتاجهم من التمر عدا أنواع جيدة تصدر إلى الخارج . وحملت هذه الظاهرة التجارية بلاد العراق على أن تدعم صلاتها مع بلدان الخليج العربي ، باعتبارها أقرب الأرجاء إليها ولتحصل منها على ما يسد حاجاتها ويوفر أسباب الهناء لسكانها . وبدأت حركة التبادل التجارى فى الخليج العربى تلقى قوة دافعة جديدة من مقر العباسيين الزاهر فى بلاد العراق .

ثانياً : ولاية الساحل العربى للخليج :

جعل العباسيون عمان والبحرين ولاية واحدة تشمل الساحل العربى للخليج ، وحاضرتها البصرة فى أرض العراق (٢) . وكان هذا التنظيم يتمشى مع سياسة العباسيين فى الحكم المرزى ، كما يتفق أيضاً مع الأوضاع الجغرافية والاقتصادية للساحل العربى للخليج . فكانت البحرين كما وصفها ياقوت « اسم جامع لبلاد على ساحل بحر الهند بين البصرة وعمان » (٤) . وأوضح الجغرافى الاصطخرى طبيعة هذا الموقع القائم بنفسه من شبه الجزيرة العربية فقال : « وأما البحرين فإنها من ناحية نجد ومدينتها هجر ، وهى أكثر تمورا ، إلا أنها ليست من الحجاز وهى على شط بحر فارس . . . ولها قرى كثيرة وقبائل من مصر ذوو عدد قد احتقوا

(١) متر ، نفس المرجع ، ج ٢ ، ص ٢٣٠ .

(٢) الدورى ، مقدمة فى التاريخ الاقتصادى العربى (بيروت ١٩٦٩) ص ٧٠ ،

صالح العلى ، ص ٢٦٧ ، ٢٦٨ .

(٣) حتى ، نفس المراجع ، ج ١ ، ص ٤٠٧ .

(٤) ياقوت ، نفس المرجع ، ج ٢ ، ص ٧٢ .

(٥) الاصطخرى ، المسالك والممالك (تحقيق د . أحمد جابر عبد العال - ١٩٦١) ص ٢٣

وأكل الجغرافي ابن حوقل صورة البحرين قائلاً: أنها تشمل على مدن ونواحي أهمها
« هجر والاحساء والتطيف والمقير وبشة والخرج وأوال » (٥).

ويتضح من أوصاف الجغرافيين المسلمين أن مدن البحرين ليست إلا أقسام لهذا
الساحل اشتهرت بأسماء المدن الكبرى فيها . فهجر كانت المقاطعة الرئيسية ،
واشتملت على عدة مدن صغيرة وقرى ، اشتهرت باسم أهمها وهي هجر . وكذلك
الاحساء اشتملت على امتداد من الأرض على الساحل العربي للخليج ، قامت به
مدن كان من أشهرها الاحساء نفسها التي فرضت اسمها على تلك المنطقة . وعلى هذا
التحو جرت أسماء باقي النواحي التي اشتملت عليها بلاد البحرين طبقاً لتعريف
الجغرافيين المسلمين . ويبدو أن السبب في الجمع أو الخلط بين أسماء المدن والجهات
المجاورة لها ، هو أن تلك الأرجاء من الساحل العربي كانت مهبط القبائل من وسط
شبه الجزيرة العربية طلباً للإقامة بها والبحث عن أسباب العيش على ضفاف الخليج
وغدت أماكن الاستقرار تحمل أسماء لا تلبث أن يتسع مدلولها إلى ما جاورها من
النواحي ، وأحياناً يبقى الاسم علماً على المدينة التي تفوقت على ما عداها من
المدن والقرى .

وقام إلى جوار هذا الساحل عدة جزر هي التي علق بها إلى اليوم اسم البحرين
وكانت أشهر هذه الجزر هي أوال بالقرب من التطيف ، وهي في البحر «على مسيرة
يوم للريح الطيب عن التطيف وبها كروم كثيرة للنساية ونخيل وأترج
ومراعى (١) » . واشترك في هذه الظاهرة من الحياة النباتية سائر بلدان البحرين
بمناها عند الجغرافيين المسلمين . فكانت جهات الاحساء نظراً لطبيعتها تحتوي

(١) ياقوت ، نفس المرجع ، ج ٢ ، ص ٧٣ .

على موارد من المياه الجوفية تساعد على قيام نوع من الزراعة البسيطة وبخاصة في الحبوب إلى جانب النخيل . واشتهرت مقاطعة هجرس باتاجها في التمر حتى صار يضرب بها اللؤلؤ المشهور « كناقل التمر إلى هجر » (١) .

وارتبطت بلاد عمان ارتباطا وثيقا بالبحرين بسبب موقعها الجغرافي ، إذ كانت أشبه بجزيرة تحيط بها الصحراء الشهيرة بالزبوع الخالي من جانب والبحر من جانب آخر ، وهو الأمر الذي جعلها تطل على الخليج العربي وتلمس فيه بدورها أسباب العيش لأهلها ، ووصف الاصطخرى هذا الموقع الجغرافي لعمان وطبيعة الحياة فيها فقال : « عمان مستقلة بأهلها ، وهي كثيرة النخيل والفواكه الجرومية من اللوز والمان والنبق ونحو ذلك ، وقصبتها صحار وهي على البحر » (٢) . وقد أشار الجغرافيون القدامى من اليونان والرومان إلى أن عمان كانت مدلولا واسعا ، يمتد غرباً إلى اليمن وشمالاً إلى البحرين (٣) . ويبدو أن تلك الأوصاف القديمة هي دلالة على الاتصال البحري لعمان بكل من اليمن والخليج العربي ، حيث كان البحر هو السبيل الوحيد لاتصالها بالعالم الخارجي وميدان لنشاط أهلها .

وكان العباسيون بذلك موفقين في ضم كل من عمان والبحرين واعتبارها ولاية واحدة عاصمتها البصرة . وكانت وسائل الاتصال ميسورة بين البصرة وكل من البحرين وعمان بجزراً وبراً ، وكذلك المحطات على امتداد تلك الطرق ، والزمن الذي تقطع فيه تلك المسافات أيضاً . ومن ثم علا شأن هذه الولاية الجديدة بالنسبة لدورها في شبكة اللواصلات البحرية والبرية على امتداد طريق الخليج العربي . فكانت المدن التي عددها الجغرافيون المسلمون على البحرين وجزرها مراكز

(١) ياقوت ، نفس المرجع ، ج ٢ ، ص ٧٢ ، ٧٣ .

(٢) الاصطخرى ، نفس المرجع ، ص ٢٧ .

(٣) جواد علي ، الفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام (بيروت ١٩٦٨) ، ج ١ ،

ص ٥٥٥ ، ٥٥٦ .

هامة للسفن وتموينها، فضلا عن اشرفها على نهاية طرق القوافل البرية عبر الجزيرة العربية،
ومن أمثلة ذلك جزيرة أوال نفسها، وميناء القطيف على ساحل الاحساء ثم ميناء صحار
ببلاد عمان .

وحبت الطبيعة الساحل العربي للخليج بمصدر هام من مصادر الثروة الطبيعية ،
كان له بدوره أثر عظيم في عملية التنمية الاقتصادية على عهد العباسيين ، اذ اشتهر الخليج
العربي بمناص اللؤلؤ والتي انتشرت أيضا في اجزاء عديدة من المحيط الهندي . غير ان
ساحل الخليج العربي عند البحرين امتاز بانتاج اجود أنواع اللؤلؤ ، والذي
تهافتت كل البلاد في الحصول عليه وبخاصة الصين بالشرق الاقصى . (١) اذ ارتكزت
جزيرة البحرين على شط اللؤلؤ العظيم الذي يتألف من تكوينات جيرية من الشعاب
المرجانية ، وتوجد على عمق قليل في مياه الخليج . (٢)

وكان العمل يجرى بنشاط واهتمام من أجل استخراج اللؤلؤ في البحرين حيث كان
لتجارة اللؤلؤ دور عظيم في بناء اقتصاد تلك النواحي . وكان الصيف هو الموسم النوص على
اللؤلؤ حيث يخرج النواصون لذلك من أول ابريل الى اخر سبتمبر . وجرى استخراج
اللاؤ على قاعدة هامة ، فكان التجار يجرّون النواصون شهرين ، ويدفون لهم أجورهم
بانتظام ، وفي بعض الاحيان يدفعون لهم مبالغ مقدما ، مقابل استقلال جهدهم . وكان
للنواصون يلتقون متاعب جمّة ، لم تنزل منذ اقدم العصور ، أهمها تعرضهم لاختار
البحر (٣) .

ووصف المسعودى حياة أولئك النواصين على اللؤلؤ فأوضح انهم لا يتناولون شيئا

(١) السعدى ، مروج الذهب ومعادن الجوهر (تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد) ١٩٥٨ ، ج

١ ، ص ١٤٨

(٢) محمد متولى ، حوض الخليج العربي (القاهرة ١٩٧٠) ، ص ٢٧٠

(٣) متر ، نفس المرجع ، ج ٧ ، ص ٣٢٥ .

عن اللحم الا السمك ، وياً كللون التمر ونحوه من الاقوات ، وتشق اصول اذانهم
ليخرج منها النفس بدلا من المنخرين « لان المنخرين يحمل عليها شئ من الدبل وهو ظهور
السلاحف البحرية التي تتخذ منها الاقماط ، او من القرن يضمهما كالمشقاص لامن
الخشب ، وما يحمل في آذانهم من القطن فيه شئ من الدهن ، فيمصرون من ذلك الدهن
اليسير في الماء في قعرة ، فتضئ لهم بذلك في البحر ضياء بينا ، واما يطلبون به اقدامهم
واسواقهم من السواد خء فامن بلع دواب البحر اياهم وبنفورهم من السواد
وصياح الغناسة في قعر البحر كالسكلاب وخرق الصوت الماء فيسمع بعضهم صياح
بعض . (١)

ووصف الرحالة الجغرافيون اهمية هذا اللؤلؤ وتجارته بالنسبة للبحرين ، فقال عنها
نصارى خسرو « والبحرين ايضا اسم لمدينة هامة ، تحيط بها مزارع النخيل وتمارس عملية
الغوص على اللؤلؤ في بحر البحرين ، ونصف اللؤلؤ التي يخرجها الغواصون تخص
زعماء الاحساء ، وكان اصطول الصين يخرج في عدة مراكب تحمل الغواصين ، ويتقدمهم
القائد ، فاذا وجد شيئا القى مراسى سفينته ، والقى الاخرى مراسى سفنهم حوله ،
ثم يستعد الغواصون بملابسهم . وياخذ كل منهم سكيناً ومخلواً ، ويقعد على حجر مربوط
في حبل يمسكه المساعد به وينزل الى قعر البحر ، واذا اشار احد الغواصين بتحريك حبله
جذبوه الى السطح (٢)

وكان اللؤلؤ يفرز بواسطة غرابيل ثلاثة متفاوتة اتساع الخروق ، بعضها فوق
بعض . وتعتبر احسن أنواع اللؤلؤ المستدرة تمام الاستدارة . وقد اشتد الطلب على
لؤلؤ لواء والبحرين زمن العباسيين لقلة ما كان يستخرج من النواحي الاخرى بالمحيط الهندي

(١) السعدي ، قس المرجع ، ج ١ ، ص ١٤٨ ، ١٤٩ .

(٢) متر ، قس المرجع ، ص ٣٢٠ .

فضلا عن جودتها . وكثير تهريب اللؤلؤ الى البحرين ، وحق ان التجار الاجانب الذين قصدوا الصين كان من عادتهم ان يخبثو اللؤلؤ في بطائن ملابسهم أو مقابض مظلاتهم ، هربا من دفع المكوس . (١)

واشتهرت ولاية البحرين بنوع من الصناعات الوطنية البسيطة الى جانب تجارة اللؤلؤ وكان اهم تلك الصناعات هي صناعة نوع من من الفوط التي اشتهرت بها الاحساء ، وزاد الطلب على فوط الاحساء ، وصارت تصدر الى البصرة بصفة خاصة ، حيث عاصمة ولاية عمان والبحرين . وجرت عملية الصفقات التجارية في البحرين على نطاق واسع ، وبمقادير كبيرة . وأعد من اجل ذلك قفاف (سلال او أ كياس) تزن كل منها ٦٠٠٠ درهم ، تعتبر الوحدة التي يتم بمقتضاها البيع والشراء ، فاذا ماتم الاتفاق على سلعة من السلع تقوم بما يعادل ثمنها من تلك القفاف . ولم يكن مسموحا بتصدير هذه النقود حفظا لموارد الولاية (٢)

واستطاعت عمان والبحرين ان تسهم بمقدار كبير في دخل الدولة العباسية فذكر قدامه بن جعفر أن خراج هذه المقاطعة بلغ في ميزانية سنة ٢٣٧ هـ / حوالي ٥١٢٠٠٠ دينار (٣) . . وشهد هذا المقدار على مدى التراء الذي تدفق على ولاية عمان والبحرين ، إذ كان هذا الخراج هو الفائض عن حاجة المقاطعة بمد سداد نفقاتها ورواتب عمالها جريا على المادة التي سار عليها بيت المال المركزي في الدولة الاسلاميه .

(١) متر ، نفس المرجع ، ص ٣٢٥ .

(٢) Wilson, op cit, P.88.09.

(٣) قدامه بن جعفر ، نبذه من كتاب الخراج (لندن ١٨٧٩ ، ص ٢٤٩) -

شهدت مقاطعات الساحل الفارسي للخليج تطوراً هاماً في العصر العباسي أدى إلى دعم الطابع العربي للخليج ، وإعطائه الشخصية التي جعلته حراً أن يدعى باسم الخليج العربي . وكان قوام هذه الظاهرة هو استقرار القبائل العربية التي تدفقت منذ الفتح الإسلامي زمن الراشدين والامويين على بلاد فارس ، وتطور كثير من المعسكرات الحربية إلى أماكن دائمة ومدن زاهرة . وكانت هذه الظاهرة من أهم المميزات التي سادت الخليج العربي في العصر العباسي ، وجملته يدخل في مرحلة جديدة من مراحل تاريخه ونشاطه . ذلك أن الفرس الساسانيين برغم سيادتهم أحياناً لبعض السواحل العربية للخليج ، لم يترتب عليه هجرة فارسية إلى تلك السواحل أو تغيير في بنائها البشرية . ولكن الهجرات العربية القديمة التي دأبت على الانتقال إلى الساحل الفارسي للخليج وجدت في الفتوحات الإسلامية حافزاً ودافعاً ، وأخيراً وجدت في العباسيين سنداً وسبيلاً للاستقرار وإضفاء الطابع العربي بدوره على تلك السواحل الفارسية ، حتى غدا الخليج العربي الوجه واليد واللسان .

وكانت أهم خطوات العباسيين هو أنهم أتاحوا في ظل نظامهم الإداري السبيل أمام العرب للانتقال من حياة المعسكرات والفتوح إلى حياة التعايش في المدن والأشغال بشق الأعمال الزراعية والتجارية . وترتب على ذلك امتزاج العرب بأهالي مقاطعات الساحل الفارسي للخليج والاشتراف معاً في عجلة التنمية الاقتصادية وبناء التسامح الاقتصادي بين سائر أرجاء الخليج وبلدانه . فكان عصر العباسيين هو عصر الحضارة العربية وبناء أركانها وبخاصة في الميادين الاقتصادية ، وخلق الوسائل التي تكفل لجميع أبناء الدولة على اختلاف أجناسهم التماون فيما يحقق لهم الاطمئنان والاستقرار واقتسام أسباب الرزق عن عدالة في التوزيع وكفاية في الإنتاج .

وتجلت في مقاطعة الأهواز أولى مظاهر هذا التطور الجديد في الساحل الفارسي للخليج ، من حيث تعريبه وتنمية موارده الاقتصادية . وتقع هذه المقاطعة شرق العراق ، حيث تتلاقى في حدودها مع كورة واسط . وأطلت هذه الولاية على رقعة من الركن الشمالي الشرقي للخليج ، تمتد مياهها حتى مياه البصرة والأبلة (١) ، واشتهرت تلك المقاطعة بزراعة قصب السكر وسميت من أجل ذلك باسم خوزستان (٢) ، أى ولاية القصب . غير أن الاسم الذى شاع زمن العباسيون هو ولاية الأهواز لسبب إلى أكبر مدنها وهى التى اشتهرت بسوق الأهواز (٣) . إذ تدفقت القبائل العربية على تلك المدينة وغيرها من مدن المقاطعة ، وصارت مراكز استقرارها علما يميز تلك الولاية كلها . وأخيرا صارت تعرف باسم عربستان أى أرض العرب لكثرة القبائل العربية التى استقرت بها (٤) واتخذتها مأوى لها .

وساعد على تعريب الأهواز حتى اشتهرت باسم عربستان هو جوارها المباشر للعراق وسهولة اتصالها بأرضه جغرافيا وبشرىا واقتصاديا . ووصف الاصطخرى تلك المظاهر الجغرافية الطبيعية والبشرية قائلا : « وليس بجميع خوزستان جبال ولا رمال إلا شئ يسير والباقي من خوزستان كأنه أرض العراق . .

(١) بن حوقل ، نفس المرجع ، ص ٢٢٥ ، لسترنج ، بلدان الخلافة الشرقية ص ٢٦٨ ،

(٢) المقدسى ، نفس المرجع ، ص ٤٠٥

(٣) ياقوت ، نفس المرجع ، ج ١ ، ص ٣٨٠ .

(٤) على نممہ الحلو ، الأحواز (عربستان) بغداد ، ج ١ ، ص ٢١٧

وأما ترابها فإن ما بعد عن دجله إلى ناحية الشمال أبيض وأصح ، وما كان إلى دجلة أقرب فهو من جنس أرض البصرة في التسميح ؛ وكذلك في الصحة ونقاء البشرة في الناس . . . وأما لسانهم فإن عامتهم يتكلمون بالفارسية والعربية . . . وزبيهم زى أهل العراق في الملابس من القمص والطبالة والمهائم (١) .

وانتقلت القبائل العربية بذلك من العراق إلى أولى مقاطعات الساحل الفارسي فالتابعين دون أن نجد فارقا جغرافيا أو بشريا ، فنبتت على تلك الأنحاء من الأهواز الأشجار من النخيل ، ولأهلها « عامة الحبوب من الحنطة والشعير والباقلان ، وأكثر حبوبها هو الحنطة الشعير والأرز فيخرجونه ، وهو لهم قوت ، وكذلك في رستاق العراق . (٢) » ،

وقد لقيت الأهواز من العباسيين نفس العناية التي لقيتها أرض السواد من حيث تنظيم وسائل الري . وكان يجري في الأهواز نهر قارون الذي سماه المسلمون باسم دجيل ، وكان الشبه بينه وبين دجلة والفرات قويا من حيث جريان مياهه وانسيابها قرب للصب وضرورة الاهتمام به كوسيلة من وسائل الري والواصلات كذلك .

وحافظ العباسيون على تراث الساسانيين هناك من أجل النهوض بدجيل واستثمار الأراضي الزراعية حوله . وكان على هذا النهر مدينة تستر التي شيد عندها سابور سدا اشتهر باسم « الشاذروان » . وكان « امتداده بقرب من ميل قد بنى بالحجارة كله حتى تراجع الماء فيه ، وارتفع إلى باب تستر » ذلك أن الهدف من هذا السد هو الحصول على المياه المخزنة خلفه للري . ولذا أقيم خلف السد ثلاث قنوات عليها فتحات

(١) الاضطخري ، نفس المرجع ، ص ٦٢ — ٦٣ .

(٢) الاضطخري ، نفس المرجع ص ٦٣ .

لتنظيم تدفق المياه فيها إلى الأراضي الزراعية . وصارت المدينة بذلك محاطة بمحاذق الأعناب والبرتقال والتخيل ، فضلا عن أن الأراضي صارت خصبة جدا « لدرجة أن كل ما تحتاجه الأرض هو حراثة على الحجير وتنمو فيها الذرة والقطن وقصب السكر بشكل ممتاز أو تكاليف ذلك دائما رخيصة » (١) .

ويجربى من ناحية تستنهر آخر عرف باسم السرطان وصفه الاصطخري قائلا : « تجرى فيه السفن العظام ، وقد ركبتة أنا من عسكر مكرم إلى الاهواز ، والمسافة ثمانية فراسخ . فسرنا في الماء ستة فراسخ . . ولا يصنع من هذا الماء شيء » وإنما تسقى به أراضى قصب السكر وما في أضعافه من للتخيل والزروع . وما بخوزستان كلها على كمال عمارتها بقعة هي أعمر وأزكى من السرطان (٢) « وقام إلى الجنوب من كستر على بعد ستين ميلا تقريبا مدينة الاهواز التي اشتهرت باسم سوق الاهواز وإليها نسبت للقاطعة زمن العباسيين . واستمدت هذه المدينة شهرتها من موقعها الممتاز الذي جعلها مركزاً تتجمع به متاجر شتى أرجاء للقاطعة ، ثم تنقل منها بعد ذلك إلى النصير وبخاصة إلى البصرة بالمراق . (٣)

وكانت صادرات الاهواز تكشف عن قدر كبير من القيمة الاقتصادية في شتى الميادين الزراعية والصناعية . وقامت صناعة السكر على المنتجات الزراعية لهذه المقاطعة ، واشتهرت مدينة جندرسابور بانتاجها من السكر الذي حمل إلى شتى البلاد (٤) . غير أن صناعة الحرير كانت من أقدم وأشهر الصناعات ببلاد الاهواز زمن العباسيين ، وتنقل من مدنها إلى سائر الأرجاء . فاما كستر « فان بها يتخذ

(١) الاصطخري ، نفس المرجع ، ص ٦٤ - ٦٥

(٢) الاصطخري ، نفس المرجع ٦٢ - ٦٣

(٣) المقدس ، نفس المرجع ، ٤١٠

(٤) الاصطخري ، نفس المرجع ، ص ٦٣

الديباج الذي يحمل إلى الدنيا ، وكسوة مكة من الديباج يتخذها ، وبها للسلطات طراز . وأما السوس فإنه تعمل بها الخزوز ومنها تحمل إلى الآفاق ... وبقرقوب السوس مجرد الذي يحمل إلى الآفاق (١) .

وأشار الجغرافيون والرحالة إلى ظاهرة طريفة ، وهي أن صناعات كرمان اشتهرت بنهات الأسواق عليها حتى لجأ للكثيرون إلى تقليدها ، أو وضع علامة مدن كرمان التجارية على بعض اللسوجات ، مثل صناعة مدينة كذا ، من باب التحايل وتصريف السلع . فقال الاصطخري عن مدينة بصني بالأهواز أنه تعمل بها الستور : « التي تحمل إلى الآفاق ، المكتوب عليها عمل بصني ، وقد تعمل بيرذون وكيوان وغيرها من تلك المدن ستور يكتب عليها بصني وتدلس في ستور بصني . . . ونهر تبري تكون بها ثياب تشبه ثياب بغداد ، وتحمل إلى بغداد فتدلس بالبغدادى وتقرر ببغداد (٢) » ونشير عبارة الاصطخري الأخيرة إلى التجاء أهل الأهواز بدورهم إلى تقليد صناعات العراق وأن التكامل الاقتصادي كان قائماً بين سلع كل منهما بطرق مشروعة وغير مشروعة كذلك .

وصارت الأهواز بذلك ، وهي أولى مقاطعات الساحل الفارسي ، حلقة وثيقة الاتصال ببلاد العراق ، وتكفل الروابط بين سائر بلدان الخليج على عصر العباسيين . ودعم هذه الروابط تسيير أسباب المواصلات بين الأهواز والعراق ، والمناسبة بالطرق اللؤدية إلى كل منهما . واشتهر من الأهواز إلى العراق طريقتين عظيمين : أحدهما إلى البصرة ثم إلى بغداد ، والآخر إلى واسط ثم إلى بغداد . وحددت كتب الجغرافيين

(١) الاصطخري ، نفس المراجع ج٢ ، ص ٦٤ . ابن حوقل ، نفس المرجع ص ٢٣١

(٢) الاصطخري ، نفس المرجع ، ص ٦٤ .

بولسالك معام هذين الطريقين^(١) ، مما يدل على نشاط حركة التبادل التجارى بين مقاطعات الخليج فى ظل الادارة العباسية وحزمها ويقظتها .

مقاطعة فارس :

امتدت مقاطعة فارس من الأهواز شرقا ، وشملت تقريبا كل الساحل الشرقى للخليج حتى مشارف مضيق هرمز^(٢) . واشتهرت هذه المقاطعة فى التاريخ بسعتها وثراتها وأنها مهد الأكاسرة الذين أسسوا امبراطورية الفرس قبل الميلاد وبعدة . وقد أطلق اليونان القدامى اسم هذه المقاطعة على جميع البلاد التى خضعت للأكاسرة ، وصارت علما على دولة الفرس لدى جيرانها وفى كتب التاريخ كذلك . غير أن أكاسرة الفرس حرصوا على الاهتمام بهذه المقاطعة والاقامة فى عاصمتها اصطخر بستمدون منها مقومات سلطانتهم وقوتهم . ولكن بقيام الفرس الساسانيين على العرش انتقلت العاصمة من اصطخر إلى المدائن على دجلة^(٣) ، حيث صارت بلاد ما بين النهرين هى قاعدة طريق الخليج العربى وحنفة الربط بين سواحله الثلاث وما يطل عليها من منافذ تجارية .

وتابع أكاسرة الفرس الساسانيين من المدائن سياسة الاهتمام بمقاطعة فارس حيث حرص كل واحد منهم على جعلها مدداً يرودهم بالتراء ويمرز سلطانهم الجديد فى بلاد ما بين النهرين . وتجلى ذلك فى تقسيم تلك المقاطعة إلى خمسة كور كبرى ، خص الأكاسرة كل منها بالمشاريع الزراعية والصناعية العظمى ، ووضعوا الانتاج الزراعى

(١) ابن خرداذبه ، نفس المرجع ، ص ٦٠ ، ٦١ .

ابن حوقل ، نفس المرجع ، ص ٢٣٢ .

(٢) ابن حوقل ، نفس المرجع ، ص ٢٣٤ .

(٣) ارثر كرستينس ، ايران فى عهد الساسانيين (ترجمة تيجى الحشاب) ص ٨٢ ، ١٠٥ .

والصناعى فى خدمة تجارة تلك المقاطعة على الخليج (١) . وعندما أعتلى العباسيون العرش ورثوا هذا التراث الهام فى مقاطعة فارس ، ولم يجدوا أمامهم من سبيل سوى الاحتفاظ بأوضاعها وتقسيمها الإدارى كذلك ، ضمنا لاستمرار دورها كإحدى المقاطعات البحرية الكبرى على الخليج .

واحتفظت مقاطعة فارس بذلك بمقوماتها الاقتصادية على عهد العباسيين ، وأخذت تتطلق مرة أخرى فى ميدان الازدهار والتقدم الاقتصادى . وساعد على ما فعلت به من انطلاق وثاب فى تلك الميدان ظاهرة استقرار القبائل العربية على نحو ما حدث طوال العصر العباسى على الساحل الفارسى للخليج ، وازدياد تعريبه وتحول مراكز الجيوش العربية بفارس إلى مدن زاهرة أيضا . ولقيت مقاطعة فارس اهتماما كبيرا من العباسيين بسبب طبيعة أرضها الجغرافية . فكانت تلك المقاطعة تمتد على ساحل الخليج امتدادا طويلا بسبب مزاحمة سلاسل جبال زاغروس لأرضها ، حتى صارت مقاطعة فارس « بلد إلا وبه جبل ، أو يكون الجيل منه بحيث تراه إلا اليسير » (٢) .

وفرضت هذه هذه للظاهرة الجغرافية على القبائل العربية أن يتركز استقرارها على النطاق الساحلى لمقاطعة فارس وما جاوره من جهات معينة من سفوح الجبال . ذلك أن مقاطعة فارس انقسمت قسمين متباينين ، على نحو ما وصفها به الجغرافيون للسلمون ، وكما التسم به فعلا مناخها ، القسم الأول الجنوبى فهو كما سماه الجغرافيون للسلمون « جروم » أى مناخ المناطق المدارية الحارة ، والقسم الثانى الشمالى فهو « صرود » أى للنواح الباردة . « فأما الصرود فإن منها أما كن يبلغ من شدة البرد فيها ألا يلبث عندهم شئ من الفواكه سوى الزرع كالأرد . . . وأما الجروم فإن

(١) ابن حوقل . نفس المرجع ، ٢٣٦ .

(٢) اصطخرى ، نفس المرجع ، ص ٦٧ .

يها ما يبلغ من شدة الحر في الصيف الصائف ألا يثبت عندهم شيء من الطيور من شدة الحر (١) . وترتب على ذلك ترك استقرار العرب في الجهات المعتدلة على الساحل لقربها من البحر، وكذلك في الجهات الواقعة بين الجروم والسرود لاعتدال مناخها أيضا . وصارت جبال زاغروس تمثل الحد الذي وقفت عنده العروبة وتركت مقاطعة فارس الساحلية تدخل في نطاق التمريب الذي استقرت مظاهره على امتداد الخليج زمن العباسيين .

وعلا شأن كثير من العرب الذين استقروا في مقاطعة فارس ، وغدت لهم أسر عريقة ، ربطوا نسبها بالهجرات العربية قبل الإسلام إلى الساحل الفارسي للخليج ، إيمانا في الاعتزاز بموطنهم الجديد وسلطانهم هناك . وامتزج أولئك العرب بالسكان المحليين في مقاطعة فارس مما أتاح السبيل لكثير من الأسر للفارسية أن تمتنق اللسان العربي وتشارك مع العرب المستوطنين في دعم اقتصاد مقاطعتهم وتنميته باعتباره ملكا مشتركا للجميع . وشرح الجغرافي الاصطخرى في إسهاب هذه الظاهرة الهامة فقال :

« والعرب الذين توطنوا فارس وصاروا من أهلها . . . فهم آل عمارة ويعرفون بال الجلندي ، ولهم مملكة عريضة وضياع كثيرة وقلاع على البحر بفارس متاخمة كرمان ويزعمون أن ملكهم هناك قبل موسى عليه السلام . وأن الذي قال الله هز وجل (وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا) هو الجلندي . وهم قوم من أزد اليمن ولهم إلى يومنا هذا منصعة وبأس وعدد . . وإليهم أرساد البحر وعشور السفن . . . ومنهم آل أبي زهير المديني ينسب إليهم ابن زهير ، وهم من سامة بن لؤي

(٢) الاصطخرى ، نفس المرجع ، ص ٨٢

ابن حوقل ، نفس المرجع ص ٢٥٢

ملوك ذلك السيف ، ولهم منعه وعدد وجعفر بن أبي زهير القتي قال فيه الرشد وقد وفد عليه في ملوك فارس : لولا طرش به لاستوزرتة ومنهم آل حنظلة بن تميم من ولد عروة بن أديه الدين عبروا من البحر إلى فارس في أيام بني أمية بعد قتل عروة بن أديه فسكنوا اصطخر ونواحيها وملكوا الأموال الكثيرة والقرى النفيسة . وكان منهم عمرو بن عيينة ، وبلغ من يساره أنه ابتاع بألف ألف درهم مصاحف فوقفها في مدن الإسلام (١) .

وترتب على انتشار العرب بفارس شيوع اللسان العربي والتدوين باللغة العربية حتى أن أهالي فارس المحليين احتاجوا إلى من يفسر لهم اللغة الفهلوية التي دونت بها « كتب المعجم وأيامهم ومكاتبات الجبوس فيما بينهم » (٢) ونبغ كثير من أهل فارس في اللغة العربية ، اشتهر منهم عبد الحميد بن يحيى ، وعبد الله بن المقفع وكان فارسيا أقام بالبصرة ، وسيديويه « وكان مقبلا بالبصرة ، ويقال أنه من أهل اصطخر فاقام بالبصرة وله (الكتاب) المنسوب إليه في النحو » واعتمد الباسيون على كثير من أهل فارس في إدارة دولتهم الجديدة لاجادتهم اللغة العربية وسائر فنون الأعمال الإدارية والسياسية . وشرح الاصطخرى هذه الظاهرة الهامة في تطور مقاطعة فارس فقال : « والفارس هم شحنة دواوين الخلافة والعمال الذين بهم قوام السياسة ، من الوزارات وسائر أعمال الدواوين ، منهم البرامكة وآل ذوى الرئاستين وإلى يومنا هذا من المادرائيين والفريبيين وسائر شحنة الخلافة من الأولاد الفرس وبفارس قوم يقال لهم أهل البيوتات ، يتوارثون فيما بينهم أعمال الدواوين ، منهم آل حبيب ، وكان مشايخهم مدرك وأحمد والفضل بنو حبيب وأصلهم من كام فيروز ومنشؤم

(١) الاصطخرى ، نفس المرجع ، ص ٨٢

(٢) ابن حوقل ، نفس المرجع ، ص ٢٥٣

عيراز ، قطنوها وتقلدوا الأعمال الجليلة الشريفة وكان المأمون الخليفة استدعى مدرك
بن حبيب إلى بغداد للحساب وغيره من وجوه الخدمة ، وحظى عنده وقرأ عليه
ومات ببغداد أيام المعتصم . وآل أبي صفية من موالي باهله ، منهم يحيى وعبد الرحمن
وعبد الله بنو محمد بن اسماعيل ، ناقة توطنوا بها في زمان المأمون وتقلدوا أعمال
الديوان بها . وأما آل الرزبان بن ازادية فانهم كانوا من أهل شيراز . فمؤلا مع آخرين
لم نذكرهم أهل بيوت يتوارثون هذه الأهمال (١) .

وغدت شيراز عاصمة مقاطعة فارس مرآة لهذا التعريب الذي ساد تلك المقاطعة
البحرية ، فكانت هذه المدينة في الحد بين الجروم والسرود ، أى في المنطقة المعتدلة
بمقاطعة فارس ، والتي أحبها العرب . وكانت هذه المدينة ممسكرا للمسلمين حين
اتجهوا لفتح اصطخر ، وبنائها القائد محمد بن القاسم بن أبي عقيل بن عم الحجلاج .
وسميت هذه المدينة بشيراز تشبيها لها بجوف الاسود ، وذلك أن عامة المير بتلك
النواحي تحمل إليها ، ولا تحمل إلى مكان (٢) . وحافظ العباسيون على تلك المدينة
وجملوها عاصمة لمقاطعة فارس وعنوانا على العهد الجديد الذي ساد الساحل الفارسي
للخليج . إذ تابع العباسيون سياسة الاهتمام بمقاطعة فارس وتنمية مواردها
الاقتصادية وتشجيع حركة التجارة والملاحة بها . ونعمت مقاطعة فارس بمدد من
من الأنهار التي تتدفق مياهها من الجبال إلى الخليج ، وعدد ابن حوقل تلك الأنهار
قائلا : « وأما أنهارها الكبار التي تحمل السفن إذا اجريت منها فانها نهر طاب ونهر
شيرين ونهر الشاذكان ونهر درخيد ونهر الخوبدان ونهر رسي ونهر سكار

(١) الاصطخرى ، نفس المرجع ، ص ٨٨

(٢) ابن حوقل ، نفس المرجع ، ص ١٤٥ ، ٢٥٦

المقدسي ، نفس المرجع ، ص ٤١١

ونهر جرعيق ونهر كر ونهر فرداب ونهر برزه فهذه العروقة المشهورة (١).

واستلزم الاستفادة من مياه تلك الأنهار للرى وبخاصة في الجهات المرتفعة القريبة من الجبال نظاما خاصا في بناء السدود والقناطر ، فكانت تعمل في جوف الأرض قنوات معقودة عليها قناطر ، وقد يبلغ طول القننوات خمسين كيلو مترا واحتاج هذا التنظيم إلى مهارة كبيرة ، فكان على القائمين أن يخالجوا الطبقات الأرضية التي يمرى عليها الماء ، كما كان عليهم أن يجمعوا لهذه الطبقات ميلا يساعد الماء على سرعة الجريان عند ازدياده (٢). واشتهرت كور فارس بذلك بوفرة الإنتاج الزراعى وبخاصة منتجات كل من للناطق الحارة والباردة مما ، مثل النخيل والكروم والزيتون والجوز والأترج (٣) . وانتشرت في مقاطعات فارس زراعة الحدائق والأهوار ، وعلا شأن بعض نواحيها مثل ناحية النوبندجان التي عاش بقرها شعب بوان « ويكون مقدار فرسخين قرى ومياها متصلة ، فقد غطت الأشجار القرى حتى لا يكاد يراها الإنسان إلا أن يدخلها ، وهو أزه شعب بفارس » (٤) .

واشتهرت مقاطعة فارس أيضا بكثرة الراعى على سفوح الجبال وسهولة انتقاله الرعاة عليها صيفا إلى الجهات العليا ، وشتاء إلى الجهات السفلى. وتشابهت حياة أولئك الرعاة مع حياة البدو للعرب ، حتى أنهم « دعوا الانتساب إلى أصول عربية . وأشار إلى ذلك ابن حوقل قائلا : عن مناطق أولئك الرعاة « ويخرج من الحى

(١) ابن حوقل ، نفس المرجع ، ص ٢٣٦ ، ٢٣٧ .

(٢) متر ، نفس المرجع ، ج ٢ ، ص ٢٣١ ، ٢٣٢ .

(٣) المقدسى ، نفس المرجع ، ص ٤٣٤ .

(٤) ابن حوقل ، نفس المرجع ، ص ٢٤٨ .

ألف فارس، وأكثر وأقل ينتجون في الشتاء واليهيف المراهي والصابغ واللحاني .
ويضم ابن دريد أنهم من العرب، وأن أكثرهم من ولد كره بن مرد بن عمرو بن عامر
في حماسته . وأبو بكر محمد بن الحسن بن دريد عن يعقوب بن عامر العرب واخبارها
يحتاج بقوله ويسلم له ما يدعيه من هذا الباب وغيره « (١) » .

ونمت أرض فارس بثروة معدنية أضافت إلى بهاها الزراعي والرعي . وعدد
الاصطخري أنواع تلك للمادن ، فذكر « ويكون بأرض فارس عامة للمادن
من الفضة والحديد والالانك والكبريت والنفط ، وإشياء ذلك مما يستقل به أهلها
عما يكون في سائر الأقطار . إلا أن الفضة بها قليلة بناحية يزد بموضع يعرف بنائين
ولا أعرف بها معدن الذهب . ومعدن الصفر بالسردان يوصل منها إلى البصرة
وسائر النواحي والحديد يرتفع من جبال اصطخر ، وبقرية من كورة اصطخر تعرف
بهدارا بجرد معدن الزئبق « (٢) » .

وقامت على هذه الثروة الزراعية والطبيعية نهضة صناعية باهرة في مقاطعة فارس
جعلت من الساحل الفارسي للخليج مصدرا هاما من مصادر التجارة الإسلامية
على عهد العباسيين . واشتهرت مقاطعة فارس بمرآة صناعة اللسوجات من الكتان
وصناعة البسط وصناعة الروائح العطرية . واشتهرت مدينة كازرون بصنع ثياب الكتان
حتى أنها كانت تسمى « دمياط الأعاجم » لاستيرادها للكتان من مصر أحيانا

(١) ابن حوقل ، نفس المرجع ، ص ٢٤٠

(٢) الاصطخري ، نفس المرجع ، ص ٩٣

(٣) ابن حوقل ، نفس المرجع ، ص ٢٦٢

ولطريقة صنعهم من جملك أيضا (١) . ولم تلبث كازرون أن صارت مركزا هاما لهذه الصناعة ونشاطها كذلك ، بفضل صلاحية البيئة الجاورة لها من مياه الأنهار . فكان السكان يبل في البرك القريبة من المدينة ثم يفصل بفضه عن بعض ويشزل . ثم يضل خيوطه في ماء نهر الرهبان ، وماء هذا النهر وإن كان قليلا شحيحا فإن له خاصية ببيض خيوط الكتان ، مع أنها لا تبيض في غيره من الماء (٢) .

وارتبط بتلك الصناعة نشاط تجارى عند أهل كازرون . وتولى تلك التجارة جماعة من السامرة يأخذون الأقمشة ، ويحتمون اللغائف قبل تحميلها للتجار الأجانب وكان هؤلاء التجار يتقون بالسامرة ، ويشترى اللغائف من غير أن يفكروا جبالها ، بل يأخذونها كما هي . وكانت إذا وصلت اللغائف إلى أي بلد اعترافها التجار من غير أن يفتحوها واكتفوا بمجرد السؤال عن شهادة السهمار بكازرون . وكثيرا ما كان يحدث أن يتقل الحمل من لغائف كازرون ، حتى تتداوله عشرايه ، من غير أن يهلك وثاقه (٣) .

وعلا شأن مقاطعة فارس في إنتاج الفرش الصوفية ومنافستها لنيرها من تلك الصناعة بالأقاليم الأخرى . وكان أحسن البسط الفارسية يصنع في مدينة سوسن مجرد حتى صار أهلها وأعمالهم نماذج يحتذيها سائر المشتغلون بتلك الصناعة ، وعزز صناعة البسط أشتهار سوسن مجرد أيضا بالمهارة في الجمع بين الصوف وخيوط الكتان في النسج وتجميل كل ذلك بالوشى . وحاولت بعض مدن العراق مثل قرقوب

(١) الاصطخرى ، نفس المرجع ، ص ٩٢ ، للقديسي ، نفس المرجع ، ص ٤٣٣ .

(٢) متر ، نفس المرجع ، ج ٢ ، ص ٤٣٨ ، ٤٤٩ .

(٣) متر ، نفس المرجع ، ج ٢ ، ص ٣٤٩ .

تقليد صناعة سوسنجرود ، ولكن هذه المدينة ظلت محتفظة بثقافتها الصناعية كما قاله
الاصطخري « لأن القرقوبي ابريسم ، وهذا صوف ، وتصوف أجود من الأبريسم
في الصنعة » (١) .

وراجت في مدن مقاطعة فارس صناعة روائح العطر ، والأدهان . « فامت
ما يرتفع من بلدان فارس عما ينقل إلى الأمصار ، وما يفضل في جنسه على سائر
ما يرتفع في البلدان فمن ذلك ماء الورد الذي يرتفع من جور ، فإنه يفضل في جنسه ،
وينقل إلى البحر فيفرق في الحجاز واليمن والشام ومصر والمغرب وخوزستان والجزيرة
ويرتفع من زجور ما هو أجود إلا أن معظم الجهاز منه . ويرتفع بجور ماء الطلع
وماء الفيصوم الذي لا نعرفه في بلد غير جور ، وماء الزعفران الموس وماء الحلاف
الذي يفضل على جسة في سائر البلدان واختصت سابور بصناعة الأدهان وتصديره
كذلك إلى سائر الجهات واشتداد الإقبال عليها (٢) .

وانتقل الانتاج الزراعي والصناعي من مدن فارس وكورها برا وبحرا إلى
سائر بلدان الخليج ، وتدفقت بصفة خاصة على بلاد العراق ، حيث كان نصيب
الحلابة مثلا من ماء الورد قدراً هائلاً ، سجلته قوائم الخراج على عهد العباسيين
وساعد على نشاط التجارة استياب الأمن على امتداد الطرق وتوافر الراحة أيضا .
ووضع العباسيون نظاما لذلك ، فكان على سائر لنواحي بفارس عمال « الزموا
اقامة البزقة (٣) القوافل وحفظ الطرق » (٤) وكان أهل القرى بفارس يتسارون

(١) الاصطخري ، نفس المرجع ، ص ٩٢

(٢) الاصطخري ، نفس المرجع ، ص ٩٣ .

(٣) البزقة ، هي الخفارة والحراسه .

(٤) الاصطخري ، نفس المرجع ، ص ٧١ .

عن يمينهم رجلا مهمته توزيع الصوف على أهل القرية ، وكانوا يسمونه الحرير ، كما اشتهر نفر من كبار رجال بيوتاتهم بإقامة الربط وإعداد أناس بها للعمل على حراة المسافرين من التجار . واشتهر أهل فارس بذلك بالتفوق في ميدان التجارة على عهد العباسيين وتقلد أئمة مقاليد الشؤون الاقتصادية في شتى النواحي ، وقد اعطوا من ذلك ، كما قال الاصطخرى « حظا جزيلا حتى أن أحدهم يبلغ ملكة . وم أهل صبر على التربة وحرس على جمع المال ، وفيهم اليسار ظاهرا حينما كانوا ، وما علت مدينة في بر ولا بحر فيها قوم من الفرس مقيمون إلا وم عيون تلك المدينة ، والقاب عليهم اليسار واستقامة الحال والمفة » (١) .

مقاطعة كرمان :

قامت هذه المقاطعة عند الطرف الجنوبي لساحل الفارسي للخليج إلى الشرق عن مقاطعة فارس . وعلا شأن كرمان بسبب موقعها الجغرافي الممتاز على للدخل للجنوبي للخليج ، وطبيعة التضاريس الأرضية هناك . ففي أرض كرمان يتأثر امتداد سلسلة جبال زاغروس ببعض التغيرات ، تجعلها تنبعج إلى الشمال ، بحيث تتسع تقويس كبير من الساحل يمتد بدوره إلى مسافات عميقة بالداخل . وهذا التقويس الساحل لكرمان يختلف بذلك عن التقويس الجنوبي لمقاطعة فارس ، بحيث صار تقويس كرمان صالحا لتو الموانئ الهامة وسيطرتها على التجارة والملاحة بالخليج الغربي . ووصف الجغرافيون المسلمون هذه الظاهرة لأرض كرمان بأنها عبارة عن امتداد في حد فارس « مثل الكعك ، وفيها يلى البحر لها تقويس » (٢) .

(١) الاصطخرى ، قس المرجع ، ص ٨٤ .

(٢) الاصطخرى ، قس المرجع ، ص ٩٣ .

وزاد في أهمية هذا « المعك » أو الدخلة الأرضية لساحل كرمان وجود بعض الممرات في النطاق الجبلي ، أتاح الاتصال اللين بين الساحل وداخل البلاد . ونفذت كرمان تنم يوقع برى على الطريق إلى بلاد الهند خلال بحر بولان ، وذلك فضلا عن إشرافها على الطريق البحري ، وأضفت للطبيعه أنشورا مزايهاها على كرمان بحيث جعلته جزءاً من ساحل عمان ينطلق كالسهم نحوها على هيئة شسبه جزيرة مسندم وخلفتها بالتالي في جوف التقويس الساحل لسكرمان مضوقاً ببحرياً هاماً ، اشتهر باسم أكبر . من كرمان وهو مضيق هرموند ، وهياً هذا الضيق لسكرمان التعمك في الملاحة بين كل من الخليج الفارسي وخليج عمان ، والمساهمة في نفس الوقت مع عمان في تقوية حلقة للواصلات البحرية مع الساحل العربي للخليج (١) .

وصارت كرمان بذلك وثيقة الصلة ببلاد العرب ، ولقيت بدورها الكثير من المهجرات العربية التي انطلقت في سهولة ويسر من عمان عبر رأس مسندم ، ودعت مظاهر التعريب على الساحل الفارسي للخليج . وركت هذه المهجرات العربية التي استقرت بدورها زمن المباسين أسماءها على جهات عديدة من كرمان وبخاصة على بعض الجزر القريبة من الساحل ، مثل جزيرة قيس ، التي يتفق اصحابها مع اسم من الأسماء العربية الشائعة . وشاهد العصر المباني تطوراً هاماً أيضاً في حياة سكان كرمان الأصليين ، إذ ظلوا على « الجوسية أيام بنى أمية كلها . . . فلما ولي الأمر بنو المباس أسلموا » (٢) وصار السبيل مفتوحاً أمامهم للمساهمة في إدارة بلادهم والدولة العباسية كذلك .

واختصت كرمان بسبب طبيعتها الجغرافية بموارد طبيعية عديدة ، كان لها شأن

(١) الاصطخري ، نفس المرجع ، ص ٩٧ ، ٩٨ .

(٢) الاصطخري ، نفس المرجع ، ص ٩٩ .

عظيم في التنمية الاقتصادية على عهد الباطين . فجمعت بعض أبحاثها بين منتجات
 الجروم (الجمات الحارة) والصنوبر (البساتين الباردة) . ولكن كرمان اشتهرت
 بمنتجات صناعة بها وهي زراعة شجر النيل الذي يستعمل في صناعة اللون الأزرق ،
 وصدرت كميات كبيرة منه إلى الهند والمراة ، وكذلك ازدهرت كرمان بزراعة
 السمك الذي « يحمل منها إلى الأفاق » . وأسهمت كرمان بدورها في إنتاج القمح
 الذي صار أحد الثروات الرئيسية ببلدان الخليج العربي كلها . وكثرت القصور على تلك
 للفاطمة حتى إن أصحابها لم يمتنعوا أحدًا من الحصول على ما يريدون ، فكانت لهم
 منة حسنة ، لا يرفضون من تمرهم ما أصقطه الريح ، فيأخذونه غير أربابه ، وربما
 كثرت الرياح فيصير إلى الضفاد من التمور في التقاطهم إياها أكثر مما يصير للارباب .
 وانبس أهل كرمان أسلوباً تجارياً فريداً في تشجيع تجارة التمور الخاصة ببلدهم لم
 يعرف في جهة أخرى سوى جهات الخليج ، إذا ألتحقوا للعمالين كل التمور إلى آخره
 منافسة تشجيعاً لهم ، وضماناً لزيادة الدخل . ومن ثم قصد كرمان كل سنة
 مائة ألف جبل : « يدخلونها على غفلة ويكثر الزنا والفساد في هذه القوافل » (١) .

وكانت ظاهرة اشتداد الرياح على كرمان ، وإسقاطها للتمر سيلا دفع الأهالي
 إلى الإفادة منها في خلق نهضة صناعية قوية ، فنصبوا عليها أرحاء يسرونها بها
 وبخاصة زمن اشتداد تلك الرياح ابتداء من منتصف يونيو إلى نهاية شهر أغسطس .
 وكان للرحى الواحدة ثمانية أجنحة ، وتكون وراء عمودين ينفذ بينهما الهواء
 كالسهم ، والأجنحة تقوم عمودية على قائم عمودي أيضاً ، طرفه الأسفل يتركب حجرآ ،
 فيدور هذا الحجر على حجر آخر . وزودت هذه الأرحاء بمنافس تعلق وتفتح
 حسب الحاجة .

(١) تاريخ الكويت ، ج ١ ، ص ٤٦٩ .

(١) المقدسي ، نفس المرجع ، ص ٤٦٩ .

واشتهرت كرمان بصناعة « الفانيذ » وهو نوع من السكر الأبيض ، وصدرت منه كميات كبيرة إلى جيرانها . وأسهمت بدورها كذلك في استخراج الحديد والفضة ، حيث توافر هذان المعدنان في أرضها . على أن شهرة كرمان الصناعية بلغت أوجها في صناعة اللسوجات التي شاعت أيضاً في سائر بلدان الخليج العربي . وكان لا بد من قيام تنافس بين سائر تلك البلدان ، ومحاولة كل منها أن تتميز بنوع معين من تلك الصناعة . واشتهرت مدينة بم بشرق كرمان بصناعة الثياب القطنية الفاخرة والتي كانت محببة إلى الناس للاءمتها للجو الحار . « وكان من طرائف ما يعمل فيها الطيالة للفسورة التي تلسج برطاف ، يبلغ الطيلسان منها المشرب الرقيق ثلاثين ديناراً . وكانت تحصل إلى أقطار الأرض وتباع بخراسان والعراق ومصر » (١) .

وعُدت ثياب بم تتفوق على ما جاورها من صناعات البلاد الأخرى وبخاصة مدينة مرو التي كان يصنع فيها نوع من الثياب القطنية « لا يمكن أن يلبس لثقله وغلظه ، وذلك يسميه للتبي لباس القروود . ويقول أبو القاسم لقوم يهجومون : « على أبدانكم ثياب بفت ، خشن ، مروى ، غليظ ، من غزل البيت ، طاقة ضرطة ، وغزول مطابقة ، منها قصانكم ومنها عمامكم » (٢) .

وصارت مقاطعة كرمان تسهم مع سائر مقاطعات الخليج العربي في إنتاج اللسوجات الجيدة وتضع مواردها كذلك في خدمة التكامل الاقتصادي لبلدان الخليج . ونالت مقاطعات الساحل الفارسي للخليج شهرة فائقة زمره العباسيين حيث صارت تسمى « خزانة العراق » لكثرة واردات العراق من هناك . ونمحق لبلدان الخليج العربي على عهد العباسيين رخاء اقتصادي صار نموذجاً للحضارة الإسلامية ورفاهية أهلها مادياً ومعنوياً إذ اقترن رأس المال في بلدان الخليج

(١) الاصطخري ، نفس المرجع ، ص ٩٩ ، ١٠٠ .

(٢) متر ، نفس المرجع ، ج ٢ ، ص ٣٥١ .

بإستثماره في ميدان الزراعة والصناعة ولشجيع حركة التجارة . ونجم عن ذلك
 اغتفال كبار التجار وأصحاب الصناعات في بلدان الخليج بتجارة الترف والنعم
 (السكاليات) التي تمنح دليلا على أن أهلها تخطوا مرحلة الضروريات إلى مرحلة
 الحياة الرغدة الهنية . وتردد صدى هذه الحقيقة في كتب الرحالة والجغرافيين
 للمسلمين الذين جابوا بلاد الدولة الإسلامية . فينصح للقدس بنصيحة يعرف بها
 الإنسان خفة ماء بلد أو ثقله فيقول : إذا أردت أن تعرف خفة ماء بلد ، فاذهب
 إلى البرازين والمطارين ، فنصح وجوههم فإن رأيت فيها الماء فاهل أن خفته على قدر
 ما ترى من نضارتهم . أما إن رأيتها كوجوه اللوق ورأيتهم مطامئ الرؤس فاعلم الخروج
 منها « فالقدس يعتبر أن أقرب التجار إلى الترف والنعم هم البرازون والمطارون ،
 وهم طبقة كثر انتشارها في بلدان الخليج العربي نتيجة التنمية الاقتصادية التي سادت
 تلك البلدان على عهد العباسيين .

وسجلت لجنة الأرقام مدى رفاهية بلدان الخليج ونشاطها الاقتصادي زمن
 العباسيين . إذا أوضحت قوائم الخراج التي جاءت عن العصر العباسي أن بلدان
 الخليج العربي أسهمت بلصعب وافر في بناء ميزانية الدولة العباسية وتلك القوائم
 أربعة وهي : ١ - قائمة الجهمشيارى في كتاب « الوزراء والكتاب » ٢ - قائمة
 ابن خلدون في مقدمته - ٣ - قائمة قدامة بن جعفر في كتابه « الخراج »
 ٤ - قائمة ابن خرداذبه في كتابه « المسالك والممالك » فندت « هذه كلها وثائق
 تاريخية نادرة ، وهي تبين حالات الخراج بالتفصيل في مدى نحو نصف قرن من
 عهد الرشيد إلى عهد الواثق أو التوكل (١) .

(١) ضياء الدين الريس ، الخراج ، ص ٥٠٩ ، ٥١٠ .

وخطاب قاعة الجمع لباري مع عائجة ابن خلدون في بيانه لمخزل الدولة العباسية
زمن الخليفة هارون الرشيد (١). وكان نصيب بلدان الخليج العربي في المراجع
للمام أو دخل الدولة العباسية إذ ذلك كما يلي :

(١) ناقش الدكتور الرئيس في كتابه المراجع كلاً من قاعة الجمع لباري وابن خلدون وأثبت
أنهما ترجعان إلى عهد الرشيد ، وقد الأخطاء التي وقع فيها المؤرخون الذين تناولوا عن هاتين
القائمتين . واعتمدت لذلك على النتيجة التي وصل إليها الدكتور الرئيس في بحثه القيم ، وأثبت
عنه الجدول المذكور إلى أعلى بالتي عن مقدار استخراج مقاطعات الخليج العربي ، أنظر الرئيس .
المراجع ص ١١٥ .

اسم المادة	مقدار التجبئة من الأموال	الأمتعة والعروض
١ - اثمان غلات «السواد» ...	٧٨٠	٨٠ درم
٢ - أبواب اللال بالسواد ...	٨٠٠	١٤ درم
		٢٠٠ نسخة
		الطين للنجم: ٢٤٠٠ رطلا.
٣ - كوردجة	٨٠٠	٢٠ درم
٤ - الأهواز	...	٢٥ درم
٥ - فارس	...	٢٧ درم
		٢٠ ألف رطل
		الانبيقات: ١٥٠ ألف رطل
		الطين السراق: ٥٠ ألف رطل
		الزيت بالكسر
		المطاشمي ٣ أكرار
٦ - گرمان	٢٠٠	٤ درم
		للتاغ البمي والصيني
		٥٠٠ توب
		العصر ٢٠ ألف رطل
		السكر ١٠٠ رطل

وتتقارب قائمة قدامة التي جاءت في كتابه « الحراج » مع قائمة ابن خردادبه عن دخل الدولة العباسية^(١)، سواء من حيث الزمن أو للتقدير للبيئة منها، فكل منهما تشير إلى خراج الدولة زمن الخليفة المأمون وأوائل عهد الخليفة

(١) الرئيس « الحراج »، ص ٢٥٨، ٤٢٤

للمتصم (١) ويتضح منهما أن نصيب مقاطعات الخليج العربي في خراج الدولة العباسية كان على النحو التالي :

اسم الإقليم	مقدار الجباية بالدرهم
١ - السودان	٦٥٠ ٤٥٧ ١٤٦ درهم
٢ - الأهواز	٠٠٠ ٠٠٠ ٢٣٣ درهم
٣ - فارس	٠٠٠ ٠٠٠ ٢٤٤ درهم
٤ - كرمان	٠٠٠ ٠٠٠ ٦٦ درهم
٥ - الهجامة والبحرين	٠٠٠ ١٥٠ ٠٠٠ درهم
٦ - عمان	٠٠٠ ٣٠٠ ٠٠٠ درهم

ويتضح من استعراض قوائم الخراج السالفة الذكر على عهد العباسيين أن التنمية الاقتصادية لبلدان الخليج العربي خلقت رأس مال ضخماً أتاح للاهالي استثماره في ميدان التجارة العالمية والسيطرة على منافيدها، فظهرت طبقة هامة من كبار التجار من ابناء الخليج العربي استطاعوا بترأؤهم بث اللثة في المعاملات التجارية وتحويل نشاطها إلى الطريق الذي تطل عليه بلادهم، ذلك أن التجارة تفتقر دائماً في نشاطها برأس لئال ولا تزدهر إلا في ظل حمايته وقوته .

(١) وازن الدكتور الرئيس بن هاجين القاسميين في كتابه الخراج ، ودرس الأرقام التي وردت في كلا منهما وبخاصة من إقليم « السودان » وخرج بنتائج أثبتتها في الجدول الذي أرفقه منه فيما يتعلق بخراج بلدان الخليج العربي ، على النحو للثبت بالتالي إلى أعلى .

أظهر الرئيس ، الخراج ، ص ٥٣٨ ، ٥٣٩ .

وترتب على هذه الظاهرة الجديدة في بلدان الخليج انقلاب هام في الأحوال الاقتصادية للدولة العباسية وطريق الخليج العربي كذلك . إذ أصبح للتاجر النقي هو يمثل الحضارة الإسلامية التي صارت من الناحية المادية كثيرة للطالب باعثة على الاستطالة في ذلك . وكان تجار الخليج العربي هم القادرون على توفير تلك الطالب للمادية وجلب كل مقوماتها من شتى مصادرها العالمية . ومن ثم غدت تجارة الخليج العربي في العصر العباسي من مظاهر أبهة الإسلام ، كما صارت هي السيدة في بلادها وبلاد العالم المجاور كذلك . فكانت سفن أبناء الخليج وقوافلهم تجوب كل البحار والبلاد ، حيث مصادر التجارة العالمية وأسواقها كذلك ، وجعلت الدولة الإسلامية هي للتقلدة لأعنة تلك التجارة العالمية وللهيمنة على تصرفها وتوزيعها^(١) بما يحقق للعالم المعروف إذ ذاك شرقا وغربا الرفاهية والطمأنينة والاستقرار .

(١) راجع قائمة للتاجر الخاصة بهذا النشاط في كتاب :

HÜZAYYIN, Arabia and the Far East (CAIRO 1942) p. 189-214,

obeikandi.com

نشأة القاهرة وامتدادها في أيام الأيوبيين

بسم

و٠ عبد الرحمن زكي

١ - القاهرة في أيام الفاطميين

(٩٦٩ - ١١٧١)

بعد أن نجح الخليفة للمز لدين الله في دولته الإفريقية التي أسسها جسده أبو عبيد الله ، ومن حدودها إلى ساحل الأطلس ، عزم على فتح مصر ، وكان أبوه وجده قد حاولا الاستيلاء عليها فلم يفلحا . فلما تولى للمز الحكم أراد أن يحقق أمنيتهما ، وكانت مصر في ذلك الحين عرضة للنزاة ، فقد عمت فيها الاضطرابات الداخلية والمجاعة التي سببها انخفاض النيل والطاعون .

وكان للمز لدين الله ملما بحالة البلاد بعد أن اتصل به يعقوب بن كلس اليهودي الذي هاجر من مصر .

طلب الخليفة للمز إلى قائده جوهر الصقلي أن يضع الخطط العسكرية ويجهز حملة لفتح مصر ، فحشد مائة ألف رجل مجهزين بالمدات والذواب وأرسل معهم للؤن والعتاد وكل ما يحتاجه هذا الجيش الجرار . وبدأت الحملة مسيرها من القيروان في ١٤ ربيع الأول سنة ٣٥٨ هـ (٥ فبراير ٩٦٩) ، فوصلت إلى

الإسكندرية واستولى جوهر عليها . ثم واصل زحفه إلى الجزيرة فوقت في يده في ١٧ شعبان سنة ٣٥٨ هـ (٦ يوليو (١) وعبر النيل بالقرب من منية الشلقان وهزم الجيش الذي أعد للدفاع على الشاطئ الشرقي للنيل . وفي أعقاب ذلك دخلت الجيوش الفاطمية بقيادة جوهر مدينة القسطنطينية عند منبب الشمس وعسكرت في السهل الرملي الواقع إلى الشمال ، وكان يحده هذا السهل من الشرق جبل المقطم ومن الغرب الخليج (٢) الذي يصل بين شمالي القسطنطينية ومدينة هليوبوليس القديمة ، وينتهي عند القلزم على البحر الأحمر . وكان السهل المذكور خاليا من المباني إلا بضعة مبان ملحقة ببساتين كافور الإخشيدي ، ودير نسيح اسمه دير العظام وكان يشتمل مكان مسجد الأقمر حصن صغير يسمى قصر الشوك .

تأسيس القاهرة

وفي مساء ١٨ شعبان سنة ٣٥٨ هـ ، اختلط جوهر موقع القصر الذي قرر أن يستقر فيه للمز تنفيذاً لأوامر أبيه . وحينما أتى أعيان القسطنطينية في الصباح التالي لتنهته وجدوا أن أساس البناء الجديد كانت قد حفرت . وبنى سوراً خارجياً من عن اللبن علم شكل مربع طول كل ضلع من أضلاعه ١٢٠٠ ياردة وكانت مساحة الأرض التي حددها هذا المربع ٣٤٠ فداناً منها نحو ٧٠ فداناً بنى عليها جوهر القصر الكبير وخمس وثلاثين فداناً للبستان الكافوري ومثلها للميادين والباقي قدره مائتان فدان هو الذي وزع على الفرق العسكرية في نحو عشرين خطاً بجانب نسيح القاهرة (١) ، ونظراً لأن جوهر كان قد أسرع في حفر أساس القصر بالليل

(١) مذكر بعض المراجع هذا التاريخ ١١ شعبان عام ٣٥٨ هـ (أول يوليو ٩٦٩) .

(٢) ردم هذا الخليج في أواخر القرن التاسع عشر ، ويسمى الشارع الآن شارع الخليج المصري .

(٣) المخطط التوفيقية لعل باشا مبارك ج ٢ ص ٨١ .

فحدثت فيه انحناءات غير معتادة فلما شاهدناها في الصباح لم يعجبه ، لكنه قال :
 « قد حفر في ليلة مباركة وساعة سعيدة » وتركه على حاله . وفي اليوم الذى خط
 جوهر القاهرة أخذت كل قبيلة من القبائل الشيمية التى تآلف منها جيشه خطته
 فأتخذت زويلة الحطة المرفوفة إلى اليوم ، واختطت جماعة من برقة الحارة البرقية
 واختطت الروم حارتين البرانية والجوانية بقرب باب النصر^(١) وكان غرض جوهر
 من إنشاء القاهرة أن تكون مقلدا حصينا لرد القرامطة عن مدينة مصر الفسطاط
 ليقانلهم من دونها فأدار السور اللبن على مسكرات قوائمه وأنشأ من داخل السور
 جامعا وقصرا واحتفر خندقا من الجهة الشمالية لينسج القمامة جيش القرامطة إلى
 القاهرة ومصر من ورأسها^(٢) أما القصر الذى بناه جوهر فقد أوضح ابن دقاق
 الغرض الذى رما إليه جوهر ، فقال أنه بناه لمولاه حتى يكون هو وأعوانه وجيوشه
 بمنزل عن عامة الشعب . ويمكن تتبع حدود سور القاهرة للمزية فى أكثر
 أجزائه بفضل للملومات التى أمدنا بها للقرزى ما عدا ذلك الجزء الواقع بين باب
 النصر وباب البرقية فليس لدينا أية بيانات عنه . وقد كانت القاهرة تحدد من الشمال
 بموقع باب النصر والحلاء الممتد أمامه . ومن الجنوب بموقع باب زويلة القريب
 من موقعه الحالى المواجه للفسطاط ومن الجهة الشرقية بموقع باب البرقية والباب
 المحروق المواجهين للمقطم ، ومن الجهة الغربية بموقع باب سمادة اللؤلؤ أو الحاذى
 لحليج أمير المؤمنين بعيدا عنه بنحو ٣٠ مترا .

وقيل أنه لما فرغ جوهر من بناء قصر الخليفة وأقام حوله السور ، سمى المدينة
 فى أول الأمر للنصورية تيمنا بأهم مدينة النصورية التى أنشأها خارج القيروان للنصور

(١) المخطط القرزى طبعة النيل ج ٤ . ص ١٧٩

(٢) المخطط القرزى طبعة النيل ج ٢ . ص ١٧٤

بالله والد المعز واستمر هذا الاسم حتى قدم للمز إلى مصر فاطلق عليها القاهرة (١) وذلك بعد مرور أربع سنوات على تاسيمهم (٢). ومن الواضح كما أشارت «راينباير» أننا يمكننا أن نجزم بأن القائد جوهر كانت لديه تعليمات من الخليفة بأن ينشئ المنصورية مدينة تكون للمنسطاط بمثابة المنصورية لاقيروان أو بمثابة فرساي لباريس أو وندسور ل لندن .

ويلاحظ بهذه المناسبة ما ذكره البكري من أن بايين من أبواب المنصورية كان يطلق على أحدهما باب زوية والثاني باب الفتوح وقد أطلق هذان الأسمان على بايين من أبواب سور مدينة القاهرة المصرية .

وفي يوم الثلاثاء السادس من شهر رمضان سنة ٣٦٢ هـ (١٠ يونيو ١٩٧٣ م) لما وصل للمز إلى القاهرة على رأس أفراد أسرته تجاهل المنسطاط فلم يشقها وكانت قد زينت ابتهاجا لمقدمه ثم قصد القصر الكبير وأمر ببناء مقبرة لدفن أجداده الذين استحضر جثثهم معه في توابيت . وفي آخر شهر رمضان أقام الصلاة بنفسه بالأزهر وخطب خطبة العيد . وكانت الصلاة قد أقيمت

(١) كتاب اتماظ الحفاء بأخبار بلاط الخلفاء للمقرئى - بيت المقدس - ١٩٠٨ .

(٢) قيل في سبب تسميتها أن القائد جوهر لما أراد بناء القاهرة أحضر النجمين وعرفهم أنه يريد عمارة بلد خارج مصر ليقم فيها الجند وأمرهم لاختيار طالم سعيد لوضم الاساس وطالم لحفر السور وجعلوا بدائر السور قوائم إخشب بين كل قائمتين جعل فيها اجراس وقالوا للعمال إذا تحركت الاجراس قارموا بأيديكم من الطين والحجاره فوقفوا ينظرون الوقت الصالح لذلك فانفق أن غرابا وقع على جبل من الجبال التي فيها الاجراس فتحركت كلها فظن العمال أن النجمين قد حركوها فالتقوا ما بديابهم من الطين والحجارة وبنوا فصاح النجمون « القاهرة في الطالم » فضى ذلك وفاتهم ما قصدوه وقيل أن المربخ كان في الطالم عند ابتداء وضع الاساس وهو قاهر الملك فسموها القاهرة - المخطط المقرئية ج ٢ ص ٣٠٤ .

لأول مرة بالجامع الأزهر في يوم الجمعة لست خلون في رمضان سنة ٣٦١ هـ (٢١)
يونيو ٩٧٢) (١) .

فكان القاهرة المدينة المسورة لم يقصد جوهر من إنشائها في بادئ الأمر أن تكون قاعدة أو دار خلافة أو منزل ملك بل وضما لتكون سكنا للخليفة وحرمة وجنده وخواصه ومعقل قتال يتحصن به ويلتجى إليه (٢) . فنشأت القاهرة مدينة خاصة للدولة الفاطمية الناشئة واستمرت حينما بعد قيامها مدينة خليفية عسكرية لشمس على قصور الخلفاء ومساكن الأمراء ودواوين الحكومة وخزائن المال والسلاح ، ثم أصبحت بعد إنشائها بأربعة أعوام عاصمة الخلافة الفاطمية لما انتقل المزم وأسرتة من المغرب وزلوا في القصر الشرق الكبير واتخذ الخليفة مصر موطنه له . وكان ذلك في يوم الثلاثاء ٦ رمضان ٣٦٢ هـ (١٠ يونيو ٩٧٣) (٣) .

(١) ذكر المقرئى فى الخطط (بولاق ج ٢ ص ٢٧٣) أن ذلك كان من يوم الجمعة لسبع خلون من رمضان وهو خطأ لأن يوم ٧ يوافق يوم السبت - كما جاء فى التوقيعات الالهامية. وقد عنى المؤرخون بذكر أول صلاة جمعة تقام فى أية مدينة اسلامية منذ عهد الفتح ، وحدث ذلك فعلا بالجامع الأزهر يوم الجمعة لست خلون من رمضان سنة ٣٦١ هـ الموافق يوم ٢١ يونيو ٩٧٢ .

(٢) الخطط المقرئية ، طبعه اليل - ج ٢ - ص ١٨٤

(٣) أن تصمى القاهرة الأصلى يوضح تأثر القائد جوهر والمزبما راياه فى أفريقيا - الشماليه من التخطيط الرومانى فإنه يمكن التشبيه بين مدينة تمجد الرومانية ومدينة القاهرة من حيث وجود شارعين أساسيين للسكراد وما كسيموس والديكومانوس ما كسيموس اللذان يقسمان المدينة أحدهما من الشمال إلى الجنوب منتها إلى طرق المواصلات للوجهين القبلى والبحرى مارا بالميادين الوسطى التى بها قصر الحاكم وخدمه وجنده وحدائقه بدلا من المعبد والبسيوم والادويون الرومانى . وأما الطريق الثانية فيقسم المدينة من الشرق إلى الغرب أى من باب الوزير وكان ذلك الطريق ينتهى إلى الجامع الأزهر . وليست القاهرة بالمدينة الوحيدة ذات الأسوار العتيده المتعدده بل يمكن القول بأن مدينة باريس وعمرها عشرون قرنا قد اعيد تشييد حصونها ست مرات متوالية إلى أن تخلصت نهائيا منها .

ولم يكن لقاطى مصر أن يدخلوا « القاهرة » إلا بإذن يسمح لصاحبه بدخول إحدى بوابات القاهرة وكان مفوضو الدول الأجنبية الذين يحضرون المنفلات الرسمية يترجلون عن جيادهم ويستقدمون إلى القصر بين صفين من الجنود على الطريقة البيزنطية — وكانت أسوار القاهرة العالية وأبوابها المحروسة تحجب الخليفة عن أنظار شعبه .

وبعد بضعة أعوام ادمت المدينة الناشئة ونمت نموا كبيرا وبدأت القاهرة حياتها في ظل الخلفاء الفاطميين وتبوات مكاتبها العظيمة بروقتها وبهاؤها ثم اتصت بمصر الفسفاط وصارتا تؤلفان معا أكبر المدن الإسلامية في العصور الوسطى .

أسوار القاهرة الفاطمية (١)

كانت المدن في أغلب أنحاء العالم في الزمن للماضى تحصن بأسوار تقام حولها لصد هجمات الغنيرين عليها . ولهذا فإنه لما أنشأ القائد جوهر مدينة القاهرة حرص على أن يقيم حولها سورا سميكاً من اللبن وفتح فيه الأبواب الضخام .

وبعد مضي حوالي القرن من تأسيس القاهرة رأى أمير الجيوش بدر الجمالى وكان يومئذ وزيراً للخليفة للسنتصر أبو عيم معد أن الناس بنوا خارج السور بسبب الساع العمران ، لاسيما في الجهتين البحرية والقبلية من المدينة فأحاطها بسور وصله بسور جوهر القائد ميمناً ويساراً وفتح فيه أبواباً أمام الأبواب القديمة لتسكون عوضاً عنها .

(١) رجنا عند كتابة هذا الفصل إلى مذكرات للرحوم المؤرخ محمد بك رمزى

ولما زاد العمران بعد ذلك والسمت للدينة أخذ صلاح الدين من سنة ٥٦٦ هـ
٩٧٠ م وهو يومئذ وزيراً للخليفة الماضد عبد الله بن يوسف آخر الخلفاء الفاطميين
في بناء سور جديد بالحجر بدلا من أسوار للدينة القديمة التي كانت باللبن على أن
يشمل السور الجديد جميع ما زاد على القاهرة في غربها إلى النيل (بسبب ما طرعه
النهر من الأرض) وفي جنوبها إلى مصر القديمة ، واستبقى أبواب بدر الجمالي لأنها
مبنية بالحجر أمثن بناء وأروعه .

السور الأول :

لما تكلم للقرنبي في خططه على سور القاهرة (١) ذكر أن القائد جوهر بدأ
من عام ٣٥٩ هـ - ٩٧٠ م ببناء السور الذي أنشأه من اللبن على مناخه الذي نزل
فيه هو وجنوده حيث القاهرة الآن ثم أداره على القصر والجامع وأدخل في دائرة
سور القصر برّ المعظم وجعل للقاهرة حارات للواصلين صحبته وصحبة مولاة للمز
ورتب في القصر جميع ما يحتاج إليه الخلفاء .

ومن جهة تعيين موقع السور وحدوده فإنه يستفاد مما ذكره للقرنبي عند
السلام على باب النصر وباب الفتوح وباب زويلة القديين وباب زويلة الحالي
وباب البرقية وعلى جامع الحاكم وحارة بهاء الدين وعلى غير ذلك من اللباني التي
حدثت بين هذا السور وسور بدر الجمالي - يستفاد من كل ذلك أن مدينة القاهرة
القديمة التي أنشأها جوهر القائد كانت واقعة بين مباني القاهرة الحالية وكانت
محاطة بسور على جهاتها الأربع في المنطقة التي تمد اليوم من الجهة البحرية بخط يبدأ
من رأس حارة الوسامة من جهتها الشرقية حيث كان يبدأ السور البحري ثم يسير

(١) المخطط القرنبي ج ١ ص ٣٧٧

إلى الغرب حتى يتقابل بشارع باب النصر عند نقطة واقعة على بعد عشرين متراً إلى شمال جامع الحاج محمود الحنو المعروف بجامع الشهداء حيث كان يقع في تلك النقطة باب القدس الذي كان بداخل باب النصر ومن هناك يسير السور إلى الغرب حتى يتقابل بشارع المزمّلين الله (شارع باب الفتوح سابقاً) على رأس مدخل شارع بين السيارج حيث كان يقع في تلك النقطة باب القوس الذي كان داخلاً في باب الفتوح ، ثم يمتد السور في مكان الوجهة البحرية للمباني الواقعة في شارع بين السيارج إلى نهايته الغربية عند نقطة تجاه جامع حسن الزركسي ، وكان السور البحري لمدينة جوهر ينتهي عند تلك النقطة .

كان السور الغربي يبدأ من النقطة المذكورة ثم يسير متجهاً إلى الجنوب إلى أن يصل إلى رأس شارع أمير الجيوش الجواني حيث يقع باب القوس الذي كان بداخل باب القنطرة ثم يسير السور إلى الجنوب في مكان الوجهة الغربية للمباني الواقعة بشارع الشمراني البراني وشارع بين السورين وشارع بين النهدين إلى باب الخوخة على رأس شارع قبو الزينة (وصوابه قبو الزينة) ثم يمتد السور بعد ذلك بالوجهة الغربية لمباني شارع جامع البنات إلى أن يلتقي برأس شارع الاستئناف الحالي حيث كانت خوخة الأمير حسين ثم يسير السور جنوباً إلى حيث مبنى محكمة الاستئناف على بعد ٢٠ متراً جنوب مدخل الاستئناف وعلى بعد عشرة أمتار في شمال الباب الغربي لمحكمة الاستئناف . وعند تلك النقطة كان يقع باب سمادة وهو آخر السور الغربي لمدينة جوهر .

وكان السور القبلي يبدأ من الكنف القبلي لباب سعادة ثم يسير إلى الشرق إلى شارع المنجلة من الجهة القبليّة ثم يمتد إلى شارع المنجدين من الغرب وبين شارع للمزّمّلين الله (شارع المناخية سابقاً) من الشرق وكان يقع باباً زويلة القديمان

الذات أنشأها جوهر في السور القبلي تجاه جامع سام بن نوح ومن الجامع
للاذكور يمتد السور القبلي حتى يصل إلى درب المحروق وإلى هذه النقطة ينتهى
السور القبلي .

أما السور الشرقى فكان يمتد إلى الشمال حيث موقع باب البرقية الأول ثم يمتد
من تلك النقطة إلى الشمال حتى يتلاقى بالسور البحرى عند النقطة التى يحددها اليوم
برج الظفر تقريباً .

هذه هى مواقع السور القدى أنشأها جوهر القائد حول مدينة القاهرة الأصلية ،
ولبى لهذا السور أثر اليوم .

السور الثانى :

لما تكلم للمقرزى فى خططه عن أسوار القاهرة فى أيام الدولة الفاطمية ذكر أن
السور الثانى بناه أمير الجيوش بدر الجمالى فى سنة ٥٤٨٠ هـ - ١٠٨٧ م وزاد فيه
من الشمال الزيادة التى بين باب القوس الدين أنشأها جوهر القائد فى سور القاهرة
البحرى وبين السور الحالى الذى فيه باب النصر وباب الفتوح الحالىين ثم زاد فيه من
الجهة الجنوبية الزيادة التى فيما بين بابى زويلة القديمين اللذين أنشأهما جوهر فى سور
القاهرة القبلى وبين السور الذى فيه باب زوية الحالى وجعل بدر الجمالى الأسوار التى
أنشأها من اللبن وأقام الأبواب من حجارة .

ويستفاد مما ذكره المقرزى ، عند الكلام على باب النصر وباب الفتوح وباب
زويلة وعلى جامع الحاكم وعلى حارة بهاء الدين وعلى السور الثالث القدى أنشأها
صلاح الدين يستفاد من كل ذلك أن الزيادة التى برز بها بدر الجمالى فى الجهة الشمالية
من سور جوهر هى التى تحد اليوم من الشمال بالسور الحجرى للوجود الآن الذى

يبدأ من النقطة القدي يشغلها اليوم برج الظفر ثم يسير إلى الغرب إلى أن يصل إلى باب النصر ثم إلى باب الفتوح ، وتحد هذه الزيادة من الغرب بسور كان يمتد إلى الجنوب التي يبدأ منها السور الغربي لمدينة جوهر ، وتحد من الجنوب بسور جوهر وتحد من الشرق بسور من اللبن كان يمتد من النقطة التي في أول الحد الشمالي من الشرق ومنها يسير إلى الجنوب بشكله المتعرج .

أما الزيادة التي برز بها بدر الجمالي في الجهة الجنوبية من سور جوهر ، فتحد اليوم من الشمال بسور جوهر ومن الغرب بسور من اللبن ثم يسير إلى الجنوب حيث كان موقع باب الفرج ثم يسير إلى الجنوب حيث ينتهي السور الغربي لهذه الزيادة عند موقع باب الخلق وتحد من الجنوب بسور من اللبن يسير إلى الشرق في مكان الوجهة القبليّة للبناني القائمة بالجهة الشمالية من شارع تحت الربع إلى أن يصل إلى النقطة حيث يقع باب زويله الحالي، ثم يمتد السور إلى الشرق عند مدخل حارة الروم حيث كان موقع خوخه أيدغمش ثم يسير من هذه النقطة إلى جهة الشرق في مكان الوجهة القبليّة للبناني الواقعة بجزء من شارع الدرب الأحمر الواقعة في حارة سمد الله ومنها تمتد إلى حيث ينتهي الحد القبلي عند البرج القدي يتبعه القاريء على السور للبنين على خريطة القاهرة الحالية وتحد من الشرق بسور القاهرة الحالي .

أشأ بدر إلى أسواره باللبن ماعدا الجزء الواقع بين بابي الفتوح والنصر فهو بالحجر إلى اليوم . وكذلك الأجزاء الواقعة على جانبي البابين المذكورين وعلى جانبي باب زويله فهي بالحجر على مسافة ١٢٠ مترا تقريبا من كل جانب وقد زال أثر الأسوار التي أنشأها بدر الجمالي باللبن وأقام صلاح الدين في مكانها بعض أجزاء منها أجزاء أخرى بالحجر في سيوره الثالث القدي سيأتي ذكره في قاهرة صلاح الدين .

أبواب القاهرة

كان للقاهرة ثمانية أبواب ، لكل جنب من أجنابها الأربعة بابان . ففي الجنوب باب زويلة وكان بابين في الأصل بينهما قبيلة زويلة من قبائل البربر وكانا عند مسجد أبي البناء وعند الحجارين (١) .

باب الفرج : يمكن تحقيق موقع هذا الباب بالضبط بأنك إذا سرت في حارة الجداوى من ناحية السكرية تقابل على يسارك جامع المؤيد فحمام المؤيد فإثناء صغير به ضريح لمن يدعى « سيد فرج » وهو ليس سوى باب الفرج ، وفي الجهة البحرية التي يسلك منها إلى عين شمس .

باب النصر : موضعه الأول بالرحبة التي أمام جامع الحاكم قرب المكان الذي يشذله الباب الحالي . وقد ذكر القريرى أنه رأى جزءا من جانبه المواجه للركن الغربي للمدرسة القاصدية حيث كانت هناك الرحبة المذكورة تفصل هذه المدرسة عند البابين لجامع الحاكم .

باب الفتوح : ذكر القريرى أنه كان لا يزال يوجد في عصره من باب الفتوح الأول أجزاء من عقده وعضادته اليسرى وبعض أسطر من الكتابة

(١) مسجد ابن البناء هو الذى يعرف اليوم باسم زاوية العقادين بجوار سبيل المقادين بشارع المياخيليه وتسميها العامة زاوية سام بن نوح وقد بني المسجد المذكور الحاكم بأمر الله وما ابن البناء سنة ٥٩٨ هـ وقد ازبل بابا زويلة الاصليان وبني أمير الجيوش بدر الجمالي بدلها باب زويلة الكبير القائم إلى اليوم . وتسميه العامة بوابة التولى حيث كان يجلس في مدخله متولى حبه القاهره - تعليق محمد بك رمزي : النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٢٧ .

(٢) محمود أحمد : مجلة الهندسة - ١٩٣٤ ص ٣٣٢

الكوفية . وكانت هذه الأجزاء على رأس حارة بهاء الدين من قبلها دون جدار الجامع الحاكي (١) .

وكان في الجهة الشرقية من القاهرة وهي الجهة التي يسلك منها إلى الجبل بابان هما :

باب القراطين (المحروق) : يمكن تمييز موقع هذا الباب تعييناً أقرب إلى الضبط نظراً لأن موقع الباب الذي حل محله لا يزال معروفًا باسم الباب لمحروق (٢) ويرى الأستاذ كريستوف أن موقع باب القراطين الأول كان على مسافة خمسين ذراعاً من الباب المحروق الحالي (٣) .

وباب البرقية : ليس من السهل تحديد موقع باب البرقية لأن الفصل الذي بحث فيه للقرنيزي أبواب القاهرة وقف عند باب البرقية ، ومن المحتمل جداً أن موقعه كان شمالي الباب المحروق وبالتقريب من الجامع الأزهر وقد نسب إلى جنود برقة ثم عرف بعد يباب الغريب .

أما الجهة الغربية من القاهرة وهي المطلقة على الخليج الكبير فقد كان فيها باب سعادة : أول أبواب السور الغربي من الجنوب . وقد عرف باسم سعاد بن حيان غلام للمز لدين الله وأحد قواده . لأنه لما قدم من بلاد المغرب بعد بناء القاهرة

(١) الخطة المقرنية : ج ٢١٠ و ٢١١ - طبعة النيل

(٢) أطلق على الباب المحروق هذا الاسم بسبب ما فعله ٧٠٠ مملوك هربوا من القاهرة عندما علموا بقتل القارس الأمير اقطاي في ٢١ شعبان ٦٥٢ هـ في أثناء الليل تركوا منازلهم وتقدموا نحو هذا الباب فوجدوه مغلقاً كما كانت العادة في ذلك العصر إذا كانت تطلق أبواب مدينة القاهرة في الليل فاوقدوا النار في الباب حتى سقط من ذلك الحريق وخرجوا منه ومن ذلك الوقت عرف هذا الباب بالباب المحروق القرنيزي - طبعة النيل ج ٢ ص ٢١٣ .

K.A.C. Creswell: The Foundation of Cairo, P. 272 (٣)

نزل بالجيزة وخرج جوهر إلى لقائه وعاد معه إلى القاهرة ودخلها من هذا الباب، فعرف به وقيل له باب سمادة ويحدد موقع هذا الباب بالضبط بالطرف الجنوبي للجانِب الغربي من سور القاهرة وبالتقرب من الركن الشمالي الشرقي لمحكمة الاستئناف .

باب القنطرة أو الجسر : عرف بذلك الإسم لأن جوهر بنى هناك قنطرة فوق الخليج الذى بظاهر القاهرة ليسير عليها إلى القس عند مسير القرامطة إلى مصر (٣٦٠ هـ) وكان موضعه على مدخل شارع أمير الجيوش الجوانى تجاه مدرسة باب الشمرية (١) . وقد سمي العامة باب القنطرة خطأ باسم باب الشمرية فى حين أن ذلك الباب كان قائماً غربى الخليج بميدان المدوى بين شارعى المدوى وسوق الجراية وكانت قنطرة أخرى عند ذلك الباب ذكرها القرينى باسم قنطرة باب الشمرية وتعرف فى أيامنا باسم الحروبى والمدوى والخروبى مدفونان فى مسجد بجوار موقع الباب للذكور .

الجامع الأزهر

بعد عام من فتح الفاطميين مصر كان جوهر قد أتم إنشاء القاهرة ، فكان أول أعماله بناء الجامع الأزهر . وقد أكد القرينى أن القائد جوهر بدأ عمارته فى يوم السبت لست يقين من جمادى الأولى سنة ٣٥٩ هـ لما أتم تشييده بسد عامين فتح للصلاة فى شهر رمضان سنة ٣٦١ هـ (يونية ٩٧٢ م) (٢) ويعد الأزهر أول عمل فى معمارى بناء الفاطميين فى مصر لا يزال قائماً لليوم .

(١) تعليق محمد رمزى بك بالنجوم الزاهرة ج ٤ ص ٣٩

(٢) وفيات الأعيان لابن خلكان ج ١ ص ١٤٩ ، صبح الاعشى للقاتشندى ج ٣ ص ٣٦٤ ، حسن المحاضرة للسيوطى ، مطبعة الموسوعات ج ٢ ص ١٥٤ .

بني الجامع الأزهر في شرق المدينة على مقربة من القصر الكبير الذي كان موجوداً حينذاك بين حي الدبلم وحي الترك . وكتب جوهر بدائرة القبة في الرواق الأعلى نقشاً تاريخه عام ٣٦٠ هـ تجدد نصه في الحطط للقرنيزية وقد اندثر هذا النقش .

ويمد التخطيط الأصلي الذي أنشئ هذا الجامع عليه من الأمور الصعبة التي لا يمكن الإهتمام إليها . فقد زاد كثير من الخلفاء الفاطميين في بنائه وأعيد تجديد أجزاء كثيرة منه في خلال القرون اللاحقة كما أضيفت إليه زيادات عدة ويحتوي الجامع على بقية ضئيلة من الأفاريز المشتملة على كتابات كوفية التي تعد من مميزات العمارة الفاطمية فإن جل أجزاءه الحالية من عصر متأخر إذ أضاف للسننصر والحافظ في بيان الجامع بعض أجزاءه . ثم قطع عنه الأيوبيون كثيراً مما أوقفه عليه الحساكم ومنع صلاح الدين الخطبة عنه . وكان قايتباي أكثر الناس رعاية للجامع في القرن التاسع . وإنشاء الفاطميين لهذا المسجد لا يفسر الإسم الذي أطلق عليه ، فقد قيل أن الأزهر إشارة إلى الزهراء وهو لقب السيدة فاطمة التي سمت باسمها مقصورة في المسجد وقال بعضهم أن هذه التسمية نسبة إلى التصور الزاهرة التي بنيت حين أنشئت القاهرة ، وقال آخرون إنما سمى كذلك تفاقلاً بما سيكون له من الشأن والسكينة بازدهار العلوم فيه . وكان الخليفة العزيز الفاطمي أول من حول الأزهر من مسجد تقام فيه الشعائر الدينية إلى جامعة للشيعة تدرس فيها العلوم ويروج فيها المذهب الفاطمي كما كان أول من أجرى الأرزاق على طلاب العلم فيه بمن وفدا ومن جميع نواحي العالم الإسلامي .

(١) نص هذا النقش : بما أمر بيناته عبدالله ووليه أبو تميم معد ، والامام العزيز بن الله ، أمير المؤمنين صلوات الله عليه وعلى آبائه وأبنائه الأكرمين ، على يد عبده جوهر الكاتب الصقلي في سنة ٣٦٠ هـ (١٧١ م)

أخطاط القاهرة

نتقل الآن إلى ذكراهم الأحياء التي اشتملت عليها القاهرة للعرية :

سبق القول أنه في اليوم الذي خط فيه جوهر المدينة الجديدة أخذت كل قبيلة من القبائل التي تآلف منها الجيش الفاطمي خطه عرفت باسمها وقد كان أهم تلك الخطوط أو الحارات ما يأتي :

١ — حارة الروم : كانت حارتين : وهي التي لم تزل معروفة إلى اليوم بنفس الإسم بقسم درب الأحمر وحارة الروم الجوانية بقرب باب النصر على يسار الداخل إلى القاهرة . وقد نسبت إلى الأشراف الجوانيين .

٢ — حارة برجوان : منسوبة إلى برجوان أحد خدمة القصر في أيام العزيز بالله زار المييدي . وصار في أيام الحاكم بأمر الله مديراً لمملكته حتى قتله في أحد قصوره .

٣ — حارة زويلة : منسوبة إلى زويلة إحدى قبائل البربر التي وفدت على مصر صحبة القائد جوهر وكانت خطة كبيرة .

٤ — حارة الجدرية : وهي طائفة منسوبة إلى جوهر خادم عبيد الله المهدي أبو الخلفاء الفاطميين . وقد سكنها اليهود بعدم إلى أن بلغ الحاكم أنهم يزأون بالمسلمين فسد عليهم أبوابها وحرقتهم ليلاً .

• — حارة الأمراء : بالقرب من باب الزهومة (١) وقد عرفت فيما بعد باسم درب شمس للدولة توران شاه بن أيوب شقيق السلطان صلاح الدين ، وكانت بهادار الوزير عباس

(١) باب الزهومة أحد الأبواب الغربية للقصر الكبير وموقعه اليوم الدكاكين الواقعة في أول شارع خان الخليلي على يسار داخله من جهة شارع القمصانجيه من شارع بين القصرين — تعليق محمد رمزي — النجوم الزاهرة ج٤ ، ص ٣٦ .

٦ — حارة الديلم : منسوبة إلى الديلم الذين أتوا برفقة « فتكين » غلام المز ابن بويه الديلمى الذى تغلب على الشام فى عهد المز وقاتل جوهر واستنصر بالقرامطة لكنه وقع فى أسر العزيز بالله فى مدينة الرملة وساقه إلى القاهرة فامله بالحسنى وأزله مع أصحابه بهذه النخطة وكانت بها دار الصالح طلائع بن رزيك .

٧ — حارة الباطنية وتعرف بقوم أتوا مع المز ولما قسم العطاء بين الناس لم يعظم شيئاً فقالوا « رحنا نحن فى الباطل » فسمو الباطلية (١) .

٨ — حارة الكافورى : كانت بستاننا للأستاذ الملك كافورا لأخشيدي ثم صار من بعده للخلفاء المصريين .

٩ — حارة قائد القواد : (درب ملوخية) سكنه فى بادىء الأمر حسين بن جوهر القائد الملقب بقائد القواد ثم نسبت هذه الحارة إلى ملوخية أحد فراشى القصر ويعرف هذا الدرب اليوم باسم حارة درب الشوك .

١٠ — حارة المطوف منسوبة إلى الخادم عطوف أحد خدم القصر الفاطمى وتدل على موقعها المنطقة التى يتوسطها اليوم حارة المطوف بالقرب من باب النصر .

١١ — الوزيرية : منسوبة إلى الوزير يعقوب بن كلس وكانت حارة كبيرة .

١٢ — حارة المحمودية : أو المسامدة منسوبة إلى الطائفة المعروفة بالمحمودية التى قدمت أيام العزيز بالله الفاطمى إلى مصر .

وعلى مر الأيام زاد عدد هذه الخطط وتطورت كثير فى أيام الأيوبيين والمماليك بما لا يتسع هذا البحث لشرحه ووصفه مفصلاً (٢) .

(١) يدل على موقعها اليوم شارع وحارة الباطنية فى الجنوب الشرقى لجامع الأزهر .

(٢) تبحث المراجع المفصلة - كالقريزى وعلى باشا مبارك ورائيس .

القصور الفاطمية

وصف للقرنيزي قصور الفواطم فيما لا يقل عن مائتي صنحة . وقد حفر جوهر
أساس القصر الكبير في ١٧ شعبان ٣٥٨ هـ (٦ يوليو ٩٦٩) واستمر العمل في أقسامه
للمتعددة عدة سنين . واشتمل هذا القصر في داخله على عدة مناظر وقاعات وقصور
صغيرة أهمها جهو الذهب والاقبال والظفر والشجرة وقصر الشوك والازرد والنسيم
والبحر والحريم .

ولما آلت الخلافة إلى العزيز أضاف إلى القصر قاعة الذهب والديوان الكبير وكانت
للصغير الكبير وحده تسعة أبواب أهمها وأجلها باب الذهب ثم باب البحر وباب الزمر
وباب السميد وباب قصر الشوك وباب الديلم وباب تربة الزعفران ثم باب الزهومة .
وكان باب الذهب تدخل منه القوات العسكرية وجميع أهل الدولة في يوم الإثنين
والخميس لقاعة الذهب . وكان هناك أمام القصر ميدان فسيح تعرض فيه الجنود
في يومى العيدين .

أما القصر الصغير فقد أمر ببنائه العزيز بالله عام ٤٥٠ هـ / ١٠٥٨ وقد قال المسبحي
عنه « لم يبن مثله في شرق ولا في غرب » وكانت له عدة بوابات أهمها باب السباط
وباب التبانين وباب الزمرد ، وكان يتصل بالقصر الكبير بواسطة نفق تحت الأرض
وكان ينزل منه الخليفة متطياً ظهر بفنائه تحيط به نيات للقصر .

ولم يتم بناء القصر الصغير إلا في عام ٤٥٧ هـ / ١٠٦٥ م في خلافة المنتصر
وقد شغل موقعه فيما بعد للمارستان الكبير للنصوري إلى جوار حارة برجوان .

وشيد الفاطميون دوراً كثيرة ومناظر جميلة منها دار الضيافة، ودار الوزارة
السكبرى ودار الترب ودار الذهب . وقد بنى دار الوزارة (الدار الأفضلية) أمير

الجيش الأفضل بن بدر الجمالي ثم سكنها أرباب السيوف أمراء الجيوش المصرية
بالتوالي إلى أن تولى الأيوبيون الحكم في مصر فسكنها السلطان الملك الصالح وولده
دار الحكمة .

وفي أيام الخاكم بأمر الله شهدت دار العلم (دار الحكمة) بجوار القصر الغربي ،
وقد افتتحت في اليوم العاشر من جمادى الآخرة سنة ٥٣٩٥ هـ ، واستمرت تؤدي
رسالتها حتى أبطاها الأفضل ابن القائد بدر الجمالي ، وربما يكون أحسن وصف لقصور
القاهرة للمزية ما جاء في تلك الوثيقة التي ثبتت عظمة العصر الفاطمي وأهتسه حين
زار الخليفة رسولا الملك عموري (أماريك) سنة ٥٦٢ هـ / ١١٦٧ م ليقمدا معه باسم
سيدهما تحالفاً قوامه أن يدفع الخليفة للصليبيين مائتي ألف دينار ممجلة ومثلها مؤجلة
نظير دفاعهم عن مصر وصدوم الأعداء عنها .

وقد وصف غليوم رئيس أساقفة صور مؤرخ الحرب الصليبية زيارة الرسولين
الصليبيين وعبر عن حماسهما واعجابهما بمظمة ما رأوه وروعهه ، وقد نقل جستاف
شلمبرجيه إلى الفرنسية بعض ما كتبه غليوم في هذا الصدد ، كما لحص لين بول بعضه
في كتابه عن تاريخ مصر وكتابه عن صلاح الدين (٢)

« سار السفراء الفرنج يقودهم الوزير شاور بنفسه إلى قصر له رونق وبهجة
عظمان وفيه زخارف أنيقة نظرة ، وكان هؤلاء المبعوثون متأثرين بما حولهم جدد
التأثير دون أن يتطرق إلى نفوسهم أي خوف أو رهبة ، ووجدوا في القصر حراساً
عديدين وسار الحراس في طليعة اللوكب وسيوفهم مسالوة . وقادوا الفرنج في ممرات

(١) الخطط القرظية نقلها عن ابن عبد الظاهر ج ٢ ص ٣٠١ ، ٣٠٢ - طبعة النيل

(٢) كنوز الفاطميين للدكتور زكي محمد حسن ص ٧١ - ٧٥

طويلة وضيقة وأقنية حالكة الظلمة لا يستطيع الإنسان أن يتبين فيها شيئاً . وربما كان المقصود بذلك بث الرهبة إلى قلوبهم وزيادة التأثير فيهم . فلما خرجوا إلى النور اعترضتهم أبواب كثيرة متعاقبة . كان يسهر على كل منها عدد من الحراس المسلحين الذين كانوا ينهضون عند اقتراب شاوور ويحيونه باحترام . ثم وصل اللوكب إلى فناء مكشوف تحيط به أروقة ذات أعمدة ، وأرضيته مرصوفة بأنواع من الرخام متعددة الألوان . وفيها تذهيب خارق العادة بنصاراته وبهائه ، كما كانت ألواح السقف تزينها الزخارف الذهبية الجميلة .

كان كل ذلك موقفاً رائعاً وهيباً رائعاً بحيث لا يملك أشغل الناس بالا وأكثرهم هماً إلى أن يقف للاعجاب به ، وكان في وسط الفناء نافورة يجرى الماء الصافي منها في أنابيب من الذهب والفضة إلى أحواض وقنوات مرصوفة بالرخام ، وكانت زرف في الفناء أنواع لا حد لها من الطيور الجميلة ذات الألوان اللطيفة في النادرة جلوبة من شتى أنحاء الشرق ، ولم يكن أحد يرى هذه الطيور دون أن تصيبه الحيرة والدهشة إعجاباً بها ، ودون أن يقول أن الطبيعة كانت تموج وتلمب حيث كوت هذه المخلوقات ومن هذه الطيور ما كان يلزم النافورة ، ومنها ما كان يظلم بعيداً عنها — كل بحسب طبيعته ، وكان لكل منها هن الغذاء ما يوافقه .

وهنا أستأذن الحراس الذين كانوا يسيرون في ممية الفرسان للفرنج حتى ذلك الوقت في الرجوع وحل محلهم بعض العظماء من الأمراء المقربين إلى الخليفة نفسه .

وصار هؤلاء الأمراء بالسفيرين الفرنجيين في أقنية أشد جمالا وإبداعاً ثم إلى حديقة لطيفة غناء لم تكن الحديقة الأولى شيئاً بجانبها ، ورأوا في هذه الحديقة

أنواعها من الحيوانات ذوات الأربع غريبة بحيث يتهم اللرب بالكذب إذا وصفها
وتحدث عنها - وبحيث لا يحتمطع أى مصور أن يتخيل أو أن يحلم بمثل هذه
الكائنات العجبية ، فإن الترب لم ير قط مثل هذه الحيوانات ولم يكن يعرفها إلا بما
كان يسمع من الأقوال .

وبعد أن عبروا أبواباً عديدة أخرى - وساروا في تعاريج كثيرة كانوا يرون
فيها أشياء جديدة تزيدهم دهشة وإعجاباً . وصل الفرنج إلى القصر الكبير حيث
يقطن الخليفة . وفاق هذا القصر كل ما شاهدوه قبل ذلك . وكانت أفنتيه تفيض
بالمحاررين للمسلمين متقلدين أسلحتهم ، وعليهم الزرد والدروع تلمع بالذهب والفضة
وعليهم سياء الافتخار بما كانوا يحرسون من السكنوز .

وأدخل اللبموثون في قاعة واحدة تقسمها ستارة كبيرة من خيوط الذهب والحبر
المختلف الألوان . وعليها رسوم الحيوان والطيور وبعض صور آدمية ، وكانت
تلمع بما عليها من الياقوت والزمرد والأحجار النفيسة . ولم يكن في هذه القاعة
أحد ، لكن شاور خر را كما فور دخوله ونهض واقفا ثم قبل الأرض ثانياً وخلع
السيف الذى كان يلمع في عنقه ثم خر ساجداً مرة ثالثة في ذلة وخشوع كأنه يسجد لله
وارتفعت الحبال فجأة وانكشفت الستارة الحربية الذهبية بسرعة البرق كأنها ملاءة
خفيفة وظهر الخليفة الطفل (السلطان الماضد) لأعين الفرنج للبموثين ، وكان على
وجه هذا الأمير نقاب يخفيه تماماً وهو جالس على عرش من الذهب مرصع بالجواهر
والأحجار الثمينة .

المز لدين الله وبناء المقس

كان الخلفاء الفاطميين من أعظم الملوك الذين حكموا مصر ، وكان المز نفسه حاكما قادرا أدار بنفسه البلاد بمقدرة نادرة وكان زهبا عادلا يشرف على القضاء ويقود الجيش الذي اعتمد عليه في الدفاع عن اقبلاذ — وللمز هو الذي بنى مرفأ جديدا للسفن فى اللقس شمال مرفأى الروضة ومصر (بالقرب من موقع ميدان — رمسيس الحالى) ، ولقد ظلت اللقس مرفأ القاهرة حتى تحول النيل عن مجراه — وظهرت بولاق . وشاهد الرحالة « ناصر خسرو » عـدة سفن للمز فى عام ١٠٤٧ م . وكان طول السفينة الواحدة ٢٧٥ قدما وعرضها ١١٠ اقدام .

ومع أن المز كان حازما محبا للعمل فقد كان ميالا إلى للظاهر الرسمية فكان يذهب فى موكب فخم لحفل قطع الخليج . وكانت يتدفق فى الاتفاق على كسوة الكعبة فى مكة للمسكرة . وكان يتم لسكى تكون القاهرة مدينة ذات فخامة وترف وغنى وقد صرفت زوجه مبلنا على مسجدها فى القرانة والذى وضع تصميمه « الحسن ابن عبد العزيز الفارسى » وتولى زخرفته الفنانون الذين جاءوا من البصرة ، وقد شيد على طراز الجامع الأزهر تحيط به الاروقة المزخرفة البديعة . ولم يزل جامع القرانة قائما إلى أن احترق فى السنة التى احترق فيها جامع عمرو بن العاص سنة أربع وستين وخمسائة عند نزول « امريك » ملك بيت للقدس القاهرة اثناء حصاره لها .

وكانت الأموال اللازمة لقصر المز وللثلاثين ألف من اتباعه وما دعت إليه مظاهر الترف نجى كضرائب أو أقساط تجمع فى دار الامارة القديمة وكانت مجاورة لمسجد ابن طولون . وقد قال بعض المؤرخين أنه فى يوم واحد جمع من مدينة مصر فى أسد مجدها مبلنا يتفاوت بين ٢٦٠٠٠ جنيه و ٦٢٠٠٠ جنيه وكان التعامل بالعملة الفاطمية وليس بالعملة الصابية .

ولما توفي للمز بوبع ابنه العزیز بالخلافة وعین یعقوب بن کلس وزیرا له وقد شاطر العزیز اباہ صفاته السیاسیة فلم تضعف من همته مظاهر الترف وشید أسطولا لمحاربة امبراطور « باسیل » وانتصر للقائد « جوهر » فی عدة معارك بالشام وقد عرف عهده فی مصر بالسلم والرخاء . وكان مولعا باقتناء الکتب فجمع منها مکتبة کبیرة خصص لها قاعات فی قصره سماها « خزانة الکتب » وبذل الأموال فی تشجیع کتابة للؤلؤات المهمة فی التاریخ والآدب والفقه . وكانت بعض الکتب بمخط للؤلؤین أنفسهم کالحلیل بن أحمد والطبری (۱) .

ومن أثار العزیز جامع الحاكم القدی أمر بینائه فی شهر رمضان سنة ثمانین وثلاثمائة هجریة . وقد اتم جانباً کبیراً منه فی مدة عام وخطب فیہ العزیز وصلى الجمعة فی الیوم الرابع من شهر رمضان عام ۳۸۱ هـ . ولما تولى للعرش ابنه الحاكم أمر وزیرہ « یعقوب بن کلس » بأن یم بناء الجامع ویکمل زخرفته ومثذته . فبدأ عمله فی عام ۳۹۳ هـ وقدر للنفقة علیه أربعین ألف دینار وانتهى منه فی عام ۴۰۳ هـ وعند انجازه علق علی سائر أبوابه استاراً دیقیة عملت له وعلق فیہ أربعة تنانیر فضیة وكثیراً من القنادیل الفضیة كذلك ، وفرش أرضه بالسجاد ونصب فیہ للنبیر .

جامع الحاكم بأمر الله

عرف أولاً بجامع الخطبة ثم جامع الحاكم وقیل له الجامع الأنور (کلازهر) ولقد مرت علیه من حوادث الأيام ما لا تقبل عن حوادث جامع عمرو . فلما احتل الصلیبیون للقاهرة فی سنة ۱۱۶۷ حولوا جانباً منه إلى کنبسة ، وباستیلاء صلاح الدین علی مصر أبطل استخدام الأزهر وجعل جامع الحاكم المسجد الرسمى للدولة .

(۱) الدكتور زکی محمد حسن : کنوز الفاطمیین ۱۹۳۷ - القاهرة

وفي اليوم الثالث عشر من ذى الحجة عام اثنين وسبعمائة زلزلت أرض مصر والقاهرة فأصيب الجامع الحاكم بسقوط عدد كثير من بدناته وخربت أعالي مئذنتيه وتصدعت سقوفه وجدرانه . وفي العام التالي أمر ركن الدين بيبرس الجاشنكير بتعمير ما تهدم منه — وإعادة ما سقط من البدنات فأعيدت وأقام سقوفه ورممه فقاد جديدا .

ولما كتب المؤرخ للقرنيزي خططه المشهورة في ابتداء القرن التاسع الهجري كان الجامع مخربا وسقفه مهشما وآثار النار والحراب بادية على جدرانه . ومنذ ذلك الحين لم يقف المسجد على قدميه وكانت الفترة السعيدة التي مرت عليه لما أقيمت في بعض اجزائه دار الآثار العربية خلال القرن التاسع عشر . وكانت لانزال بعض النقوش والكتابات الكوفية ظاهرة على جدرانه تدل على جمال فنه .

وجامع الحاكم عمل أرى نادر ، ومئذنتاه جدداهما أثر زلزال عام ٧٠٣ هـ بيبرس الجاشنكير . قاعدة مربعة تتحول إلى شكل مشمن الاضلاع ويتطور إلى شكل أسطواني يحترقها سلم لولبي من الداخل على جوانبه طاقات ذات شرفات يستخدمها المؤذن .

تولى الحاكم بأمر الله (٣٨٦ — ٤١٤ هـ) الخلافة الفاطمية وعمره أحد عشر سنة وكان شخصية متناقضة عجيبة أفاضت كتب التاريخ بذكر الكثير من أحواله وحوادثه . ولما يدهشنا أننا بينما نقرأ عنه كل تلك التناقضات نراه في جامعهم العظيم يراقب زخرفته وتقوسه ، أو في داره — لم التي أنشأها بجوار القصر الغربي في سنة ٣٩٥ هـ — والتي حمل إليها الكتب من خزائن القصور ووقف عليها أما كن ينفق من ريعها ، وكان الترض من دار الحكمة لتشجيع الناس على المطالعة والدرس وكانت ندوة يجتمع فيها علماء الدين والعلم والأدب والتاريخ للمناقشة والتبحر في علوم الدنيا والدين .

ولما مات الحاكم تولى ابنه الظاهر لاهزاز دين الله أبو الحسن على فأباح ما منعه
أبوه الحاكم فشرب الخمر وسمح باحتسائها . وكان ضيف الرأي منصرفاً إلى اللهو
وكثر في أيامه الفتن العسكرية فلا تخمد فتنه حتى تمعها أخرى وضاعت أبواب
الرزق وعزت الأقوات وتفاقم الأمر من شدة النلاء فصاح الناس « الجوع يا أير
المؤمنين . لم يصنع بنا هذا أبوك ولا جدك . فإله الله في أمرنا » .

ولما توفي الظاهر تولى ابنه للتصير (٤٢٧-٤٨٧ هـ) وكانت سنه عند مبايعته
لا تزيد على سبع سنوات . وكانت أحوال البلاد قد هدأت قليلاً كما شهد الرحالة
الفارسي ناصر خسرو عند زيارته لمصر بين عامي (١٠٤٧ - ١٠٤٩ م) فقد قال
أن الصيارفة وتجار الجواهر تركوا حوانيتهم دون أن يلقوا أبوابها في أوجه
الصوص وكان عدد الحوانيت في القاهرة أكثر من عشرين ألفاً كلها ملك الخليفة
يدر الواحد منها عليه نحو عشرة دنائير شهرياً . وكان يملك أيضاً عشرين ألف
منزل يتألف الواحد منها من ست طبقات وكان إجمار الواحد منها سبعون جنيتها
في السنة . وكانت تلك للنازل مشيدة بالحجر ويفصل كل منزل عن الآخر حديقة
غناء . ولم يكن لقاهرة أسوارها فقد هدم السور القديم الأول وتهدمت أجزاءه
ولم يكن قد ابتدئ في بناء السور الثاني (شيد بعد ذلك بأربعين سنة) وكانت
تلك البيوت الشاهقة التي وصفها الرحالة مشيدة على نمق الاستحكامات . وكل قصر
منها يشبه قلعة مصفرة . وكانت للسافة بين القاهرة ومصر تقدر بميل واحد ، تناثرت
فيها البساتين ومناظر الضواحي وتمرها مياه النيل في أثناء الفيضان .

وفي أثناء إقامة « ناصر خسرو » اشتد الجفاء بين الأحزاب السياسية ولكن
الوزير القادر ليازوري استطاع كبح جماحها مدة تسع سنوات وجاهد للقضاء على
الجماعة التي نشبت أظفارها بمنزله كبات من الللال بمخازن يوسف بالقرب من
مصر القديمة .

ولقد أبدل الخليفة أربعين وزيراً من وزارته في مدة تسع سنوات فضاعت هبة الحكومة عند الشعب وكان الحكام الحقيقيون لها هم الجنود الترك الذين اتفقوا مع البربر وطردهوا الجنود السود من القاهرة . وتبت هؤلاء أقدامهم في بعض نواحي الوجه القبلي فأزعجوا سكانها وحاول البربر أيضاً الاستيلاء على الدلتا فأفسدوا مسالك الري ليفتسكوا بالفلاحين حينما انقرد الترك بالعاصمة فأتلفوا تصور الخليفة للقضاء ونهبوا مجموعات الثمينة من الجواهرات النفيسة مقابل متأخرات رواتبهم وبعد ما اتموا من نهب القصر دخلوا مدافن أجداد الخليفة وأخرجوا منها كل ما وجدوه فيها من التحف ثم عمدوا إلى خزانة الكتب فأخرجوا منها ألفاً من الكتب في جملتها ٢٤٠٠ مصحفاً . وقيل أن عدد مؤلفاتها كان مائة ألف وأخذ الناس مغلقاتها لإصلاح نظامهم ولإيقاد نيرانهم . وما لم يحرقوه منها سفت عليه الرياح فصار تلالا عرفت بتلال الكتب .

وتصادف أن قصر النيل في فيضانه مدة خمس سنوات فهدد البلاد بالمجاعة وامتد الجوع إلى سنة ٤٦٤ هـ . وكان أشده سنة ٤٦٢ هـ . ثم توالى القلاقل التي اقتضت الإسراف في الحبوب الخزونة وندرت الحنطة وبلغ ثمن الأردب الواحد مائة دينار والقط ثلاثة دنائير والسكر خمسة دنائير (إذا وجد) ورافق هذا القلاء وباء مكث صبح سنين ، فلم يبق من زرع . وأخيراً لما لم يجد الناس حيوانا يقتلونه لياً كاره اختطفوا بعضهم بعضاً وباع القصابون لحم الإنسان ، ثم جاء الطاعون فكان يحصل أسرة بعد أسرة . وكان كثير من أعيان البلاد يحاولون أن يرتزقوا من الخدمة في الحمامات العامة واضطر الخليفة في نهاية الأمر بمد أن تخلى عنه رجاله وحاشيته حتى زوجه وبناته وقد هجرته إلى بسداد إلى أن اضطرته الظروف أن يعيش على رغيفين تصدقت عليه بهما إبنه عالم . غير أن السنوات السبع كانت على وشك الانتهاء . وقد قامت مصر في أثناءها ما لم تره في أشد عصورها ظلاما وكان المستنصر قد التجأ

إلى حاكم سورية الأرميني « بدر الجمالي » فكتب إليه ليحجىء على رأس جيشه إلى مصر ليوليه عليها فقبل بدر المحجىء إليها وكان عبداً رفعته كفاءته للمنازة إلى الناصب السامية ، فولى إمارة دمشق ثم عكا .

أبواب بدر الجمالي

وصل بدر الجمالي إلى القاهرة في يوم الأربعاء ٢٩ جمادى الأولى سنة ٤٦٧ هـ / ١٠٧٩ وقابل الخليفة . وفي ليلة من الليالي دعا أمراء البلاد إلى وليمة أولها لهم في منزله وبيت مع أصحابه أن القوم إذا أمسى عليهم الليل فليتم لابدهم محتاجون إلى الخلاء فمن قام منهم قتل . فلبى الأمراء دعوته وظلوا نهارهم عنده وباتوا مطمئنين وما طلع النهار حتى صارت رءوسهم بين يديه واستولى أصحابه على دور الأمراء فقويت شوكته وعظم أمره وخلع عليه للتصريح والطيلسات وقليد وزارة السيف والقلم وزيد في القابله لقب « أمير الجيوش » كآفل قضاءة للسلمين وهادى دعاةة للؤمنين ولما أعاد النظام إلى نصابه في القاهرة انجبه فاصداً أقاليم القطر ليقضى على فتنها . فأخضع البربر والسودانيين والعرب ، وأعاد الطمانينة إلى قلوب الفلاحين . فازداد المدخل وشعر الأهلون بالرفاهية والرخاء مدة عشرين سنة كاملة . وعادت سطوة الخليفة السياسية والدينية إلى الديار المصرية وعادت مكة إلى مبايعة المنتصر بعدد أن قضت خمس سنوات تخطب للخليفة القائم بأمر الله المباسي في بغداد .

تنسبت القاهرة الصعداء مدة حكم الوزير بدر الجمالي . فمنذ مضى قرن على بناء الخليفة المميز القصر العربي ومنظرة الأؤلولة لم يصف إلا الأشياء القليل على عمارته ، وجاء المنتصر بفضل الإمامة في القصر الذي شيدته بالمطرية حيث أقام جوعهنا .

وكان أول ماوجه إليه بدر همتة — تحصين القاهرة ضد النزوات الخارجية

أو قن الجنود الداخلية . وكان سور القاهرة قد تم بنائه أمام نحو مساحة المدينة التي ازدادت وزحفت مبانيها خارج أبوابها الشمالية والجنوبية التي بناها القائد جوهر . فهدم بدر هذه الأبواب وبناها من الحجارة (١٠٨٧ - ١٠٩١) وجعل للمدينة تضم مساحة أكبر من الأولى . فمثلا أخذ حتى الروم في الجنوب إلى داخل السور وكان في خارجه ثم أقام السور من اللبن وقد زاده صلاح الدين فيما بعد — وزاد عند باب القصر الرحبة التي تجلده جامع الحاكم إلى باب النصر وتلك الأبواب الثلاثة لم تتغير إلى يومنا هذا — غير أن باب زويلة خفض قليلا من أبراجه لكي يتسع لبناء مئذنتي جامع قلويد في أثناء القرن الخامس عشر — الميلادى وتعتبر هذه الأبواب الثلاثة من من أعظم آثار العصر الفاطمى . وقد بناها ثلاثة أخوة وفسدوا من أدماء المدينة الأرمنية الأصل التي عرفها بدر في أثناء فتوحاته ، وقيل أن كل أخ منهم شيد بابا .

وتتمت مصر أكثر من ستين عاما تحت حكم بدر الجمالى إلى أن توفى في القاهرة وهو في الثمانين بعد حكم دام عشرين سنة ، وخلفه الأفضل وكان فاضلا حكيما تدرّب على أبيه وقد تمتع بجميع الألقاب والأمتيازات التي كانت لأبيه أمير الجيوش وظل في منصبه حتى أمر بقتله الخليفة الأمر في عام ١١٢١ وتولى الأمر من بعده ابنه « أبو على » في عام ١١٢١ . ولما قتل وهو في طريقه إلى ميدان لسب السكرة خلفه أحد مماليك الأفضل وأسمه « يانس » (١) ثم جاء من بعده « بهرام » للسيحى الذى تربع في كرسى الوزارة حتى عام ١١٣٧ م .

(١) ينسب إليه حتى (حارة) اليانسية وكانت واقعة خارج باب زويلة وتتصل اليوم بالدرب الأحمر .

الصالح طلائع

قتل الخليفة الأمر في ذى القعدة (٥٥٢٤) وهو في طريقه إلى زيارة معشوقته البدوية في جزيرة الروضة وكان عمره ٣٥ سنة . ومن أعماله التي تذكر له بناءه مسجد الأقر بين القهريين . وكانت عقوده الداخلية من الأجر القيمة على أعمدة من الرخام وقد نقش على أفريز المسجد بالكوفية اسم الأمر وتاريخ بنائه ٥٥١٩ هـ .

وفي أيام الخليفة الفائز بنصر الله قدم ابن زريك والى الأثريونين بمجموعة إلى القاهرة واستولى على الوزارة ولقب بالصالح وقام بأمر الدولة إلى أن مات الفائز في عام ٥٥٥ هـ وأقام الصالح بن زريك في الخلافة العاضد لدين الله ، وقد منحه لقب للملك الصالح . وكان شاعرا مثقفا وكريما سياسيا لازال مسجده قائما أمام باب زويلة . قدم مات ضحية نساء القصر اللاتي أرسلن إليه بعض رجالهن فكمنوا له في دهاليز القصر وضربوه حتى سقط منسيا عليه وحمل جريحا . وكان آخر ما فاه به ندمه على أنه لم يستخلص بيت للقدس من أيدي الفرنج ونصيحته لابنه أن يحذر « شاور » الحاكم العربي للوجه القبلي . وقد كان للندم والحذر في عملهما إذا خلع شاور بن الملك الصالح وأسمه محي الدين زريك وكان قد استوزره العاضد واستخلف بعده شاور في عام ١١١٣ م ودخل في السنة نفسها ملك بيت المقدس البلاد المصرية .

وكان جامع الصالح طلائع آخر أجمل جامع أنشئ في عهد الدولة الفاطمية ووجهته الغربية الفاطمية لانظير لها في جميع مساجد القاهرة من حيث تصميمها ويزيد في جمالها تلك المقود المملوءة بزخارف على هيئة مروحة . وبالجامع بقايا زخارف جصية ممتلئة بالكتابات الكوفية وأخشاب منقوشة تدل على مبلغ ما وصل إليه فن الزخرفة من الرقى في ذلك العهد .

ظاهر القاهرة الفاطمية

تكامنا عن أقسام القاهرة الداخلية ومنشأتها الهامة ، وسنصف ملحق بها من تغور ونحو حتى نهاية الفواطم . كانت القاهرة الفاطمية من الجهة القبالية (باب زويلة) متصلة بمصر التي امتدت بين الخليج الكبير وجبل للقطم وهذا الامتداد كان قسمن : ما حاذى يمينك إذا خرجت من باب زويلة تريد مصر ، وما حاذى شمالك إذا خرجت منه نحو الجبل . أما مواضع الأول فاشتمل على تحت الربع ، والقشاشين وقنطرة باب الحرق وخط قناطر السباع ويدخل في ذلك سوقة مصفور وحارة الحمزين وحارة بنى سوسى إلى الشارع وبركة النيل والملاية والممودية إلى الصلية ومشهد السيدة نفيسة . وكانت تلك الأماكن تعرف بجنان الزهرى وبستان سيف الاسلام وغير ذلك . وأما ما حاذى شمالك فكان جامع الصالح طلائع والدرج الأحمر إلى القطائع . وكانت فيها بعد الرملة والليدان تحت القلعة . وأما جهة القاهرة الغربية التي فيها الخليج الكبير فهي من باب القنطرة إلى القس وما جاور ذلك فانها كانت بساتين في غربها النيل ، وكان ساحل النيل بالقس حيث جامع أولاد عنان الآن . فيمر في القس إلى المكان الذي يقال له الجراف ومواقع هذه البساتين أصبحت فيما بعد أراضي اللوق والزهرى وغيرها . وكان فيما بين باب سعادة وباب الفرج وبين الخليج فضاء لابيان فيه . وللناظر لشرف على مافي غربى الخليج من البساتين التي خلفها النيل . وأما من جهة القاهرة البحرية فكانت قسمن خارج باب الفتوح والنصر . أما خارج الأول فكانت توجد منظر من مناظر الخلفاء وأمامها بستانان كبيران ، ومن غربى هذه للنظرة في جانب الخليج الغربى منظر أخرى . أما خارج باب النصر فكان فيه مصلى العيد ثم فضاء من اللصل إلى الريدانية .

أما جهة القاهرة الشرقية وهي بين السور والجبل فانه كان فضاء ، ثم أمر الحاكم

بأمر الله أن تلقى أتربة القاهرة من وراء السور لمنع السيل من دخوله القاهرة
فصارت منها الأكوام التي حُرقت بكيمان البرقية .

ولسكى نوضح مراحل نمو القاهرة بإيجاز نذكر مايلي :

١ - توسعت القاهرة في أيام الخليفة الحاكم بأمر الله (حكم بين ٩٩٦ و ١٠٢٠ م) من ناحيتها الشمالية والجنوبية . ففي الشمال خارج باب الفتوح ذكر اللقريزي (١) أن الطائفة الحسينية وهي إحدى الطوائف الفاطمية سكنت حارة (خطة) الحسينية وكانت تتألف من عدة حارات يتوسطها اليوم من الجنوب الى الشمال شارع الحسينية وشارع الليومي من باب الفتوح الى ميدان الجيش .

ويقول القريزي في الخطط عن الحسينية : احدهما ماخرج من باب الفتوح ، وطولها من خارج باب الفتوح الى قرية الخندق (٢) وهذه الشقة هي التي كانت معاكن للجند في أيام الخلفاء الفاطميين ، والشقة الأخرى ماخرج من باب النصر ، وامتد في الطول الى الريدانية (الباسية) ، وهذه الشقة لم يكن بها في أيام الخلفاء الفاطميين سوى مصلى العبد نجاه باب النصر وما بين المصلى الى الريدانية فضاء لا بناء فيه ، وكانت القوافل اذا برزت تريد الحج تنزل هناك ثم صارت هذه المنطقة مقابر أنشئت حول قبر بدر الجمالي الذي أقامه خارج باب النصر واستمر ذلك الى ما بعد سنة سبعمائة هجرية (١٣٠٠ م) .

وفي زمن الحاكم بأمر الله أيضا أخذ الأهالي جنوب السور الجنوبي يعمرن ويبنون خارج أبواب زويلة والفرج . وكانت هذه الجهة حتى أوائل القرن الحادي

(١) النجوم الزاهرة لابن تغري بردى / ج ٤ / ص ٤٥ .

(٢) على مبارك : الخطط التوفيقية ، ج ٢ / ص ٤٢ .

عشر غير عامرة بالباني حتى مدينة القطائع الطولونية ، وسرعان ما نهضت «ضاحية» امتدت تدريجياً حتى عظمت زمن المجاعة للمظلي في أيام الاستنصر لدين الله (١٠٣٥ - ١٠٩٤) حينما بدأ نجم الفسطاط في الأفول .

٢ - حارة اليانسية :

تسب هذه الحارة الى أبي القتيع يانس مملوك الخليفة الفاطمي الحافظ لدين الله (١١٣٠ - ١١٤٩) ووزيره ولقب بأمر الجيوش أيضا وهو صاحب الحارة اليانسية التي كانت واقعة خارج باب زويلة ، وحررها الناس الى حارة الانسية ولها اليوم مدخلان أحدهما من شارع الدرب الاحمر تجاه جامع قبحاس الأسحقى (أبوحرية) وثانيهما بشارع المغربلين .

وفي خطط ابن طولون في الجنوب (حول المسجد الكبير) ، أمر الحاكم بامر الله ببناء ثلاثة مساجد معلقة منها مشهد عمدة الأصغر ، ومنها المسجد المعروف عند العامة بمسجد الشيخ عبد الرحمن الطولوني لأن العامة تزعم أن به قبر الشيخ عبد الرحمن الطولوني ، وأما المسجد الثالث فلم يثر على آثاره ومن المحتمل أنه كان بالقرب منها . (١)

٣ - فوق جبل المقطم :

وفي أواخر القرن الحادى عشر شيد بدر الجمالى مسجد الجيوشى فوق المقطم ويرجع هذا المسجد الى عام ٥٤٧٨ هـ (١٠٨٥ م) وهناك عدة مشاهد - وقباب شيدت أيضا خارج قاهرة للنواظم في القرن الثانى عشر كمشهدى كلثم والسيدة رقية وقبة القاسم الطيب . وكان مسجد الصالح طلائع خاتمة الباني الفاطمية التي شيدت خارج باب زويلة في عام ١١٦٠ .

(١) على مبارك : المخطط ج ٢ ص ٤٢ .

ولنرجع إلى ما ذكره المقرئ في خطه عندما أشار إلى ما بناه ، الفاطميون في ظاهر القاهرة : « توسع الناس في العمارة بظاهر القاهرة ، وبنوا خارج باب زويلة حتى اتصلت العمارت بمدينة الفسطاط ، وبنوا خارج باب الفتوح وباب النصر إلى أن انتهت العمارت إلى الريدانية (العباسية اليوم) وبنوا خارج باب القنطرة إلى حيث الموضع الذي يقال له بولاق حيث شاطئ النيل . وبنوا خارج باب البرقية والباب المحروق إلى سفح الجبل بطول السور فصار حينئذ العامر بالسكنى على قسمين أحدهما تقال له القاهرة وآخر يقال له مصر » .

(٤) ويبدو أن للمقرئ نسي أن يذكر تاريخ هذا التوسع العمراني ومق حدث ولكن لم يفت على مؤرخنا الجليل أن يؤرخ للتوسع الفاطمي التالي ، فيذكر لنا أنه في عهد الخليفة الأمر باحكام الله (١١٠١ - ١١٣٠) نادى وزيره محمد بن فاتك المعروف بالمأمون بن البطائحي بتعمير الخرائب والفضاء الذي يقع بين باب زويلة ومشهد السيدة نفيسة فنودي لمدة ثلاثة أيام بالقاهرة ومصر بان « من كان له دار في الخرائب أو مكان فليصمه ومن عجز عن عمسارته بييمه أو يؤجره من غير نقل شيء من اتقاضه ومن تأخر بعد ذلك فلا حق له في شيء منه ولا حكر يلزمه » فلما نادى الوزير للأمون عمر الناس ماكان من ذلك مما يلي للقاهرة من جهة المشهد النفيسى إلى ظاهر باب زويلة ، ولم يبق من المعسكر ما هو عامر سوى جبل يشكر الذي بنى عليه جامع ابن طولون (٢) . ولكن في أيام صلاح الدين الأيوبي حينما بدأ بناء قلعة الجبل (بعد ١١٧٦) أمر بهدم عدد كبير من مساكن تلك الضاحية ، ربما حرصا على الأمن ، وأقام على أرضها البساتين وأخذت تشغل للساحة الممتدة من باب زويلة إلى المشهد النفيسى حيث كانت تهابه تلك البساتين الخضراء .

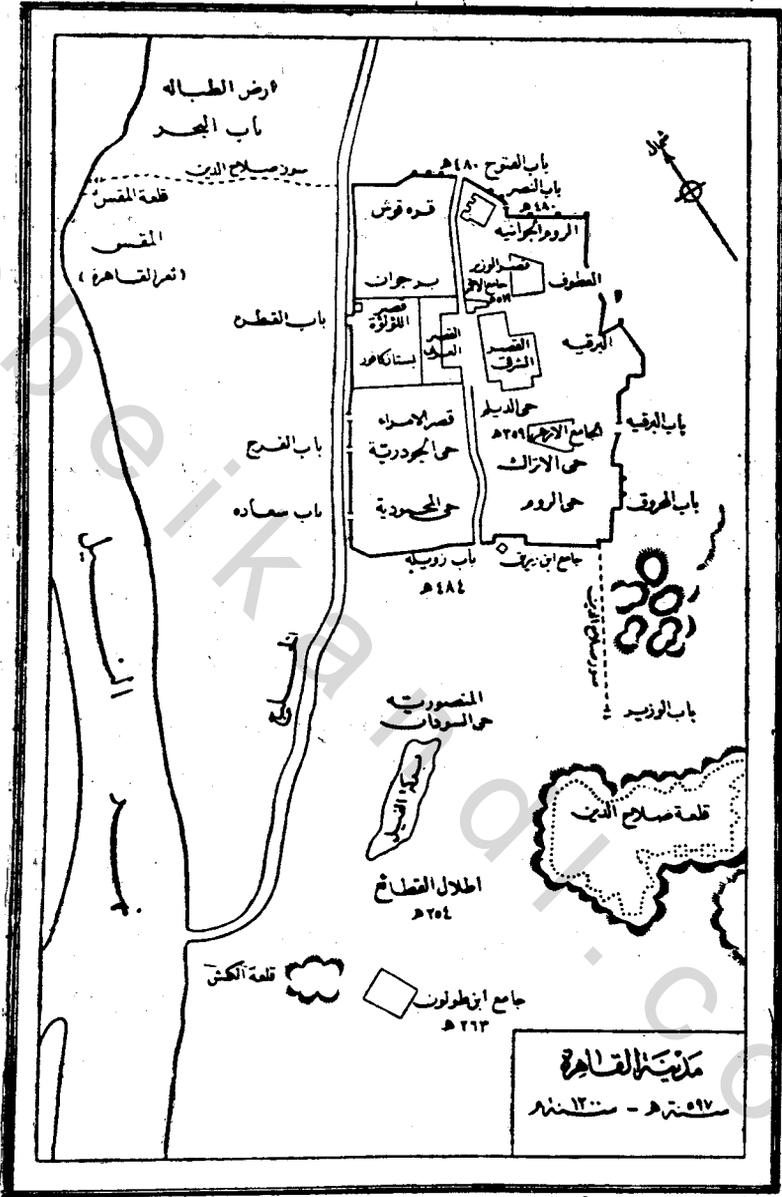
(١) المقرئ : خطط ، ج ١ ص ٣٠٥

وهناك في أقصى الجنوب ، وأمام مدينة الفسطاط حيث يجرى النيل تقابلنا جزيرة الروضة التي تتوسطه . وكان الولاة العرب قد عنوا بها وفي أثناء إمارة أحمد بن طولون (٨٧٠ - ٨٨٤ م) أهدأ بناء أموار الجزيرة وحصن — ونها (٨٧٦ م) وجعلها مقرا للخرائن أمواله وشيد فيها الدور كما أقام فيها دار صناعة للسفن الحربية وكانت مقر ديوان الجهد . وفي أيام محمد بن طنج الأخشيد أنشأ بستانا وداراً سماها المختار .

ثم عرفت الجزيرة بالروضة نسبة إلى البستان الذي أنشأ في نهايتها البحرية البحرية الأفضل شاهنشاه بن أمير الجيوش وبدر الجمالي في عام ٤٩٠ هـ (١٠٩٦) وسماه الروضة ، ويوضح هذا مبلغ عناية أحمد الأمراء الفواطم بموقع الروضة التي ما برحت متنزها ملكيا ومسكنا للاهالي .

طرح نهر النيل وظهور أرض جديدة :

طرا على ساحل النيل الشرقي في السافة للمتسدة من الفسطاط إلى روض الفرج تسع تغييرات على الأقل فيما بين عام ٦٨٨ م أي في زمن حكم الدولة الأموية ، وعام ١٨٣٠ في أثناء حكم محمد علي . ويهمننا ونحن بصدد الحديث عن القاهرة في العصر الفاطمي أن نشير إلى طرح النيل الثالث الذي ظهر حول سنة ١١٢٦ م في أيام الدولة الفاطمية ، إذ طرح النيل أرضا جديدة كسبتها القاهرة وزاد في عمرائها وبذلك تحول شاطئ النيل الشرقي للمرة الثالثة إلى الغرب في السافة التي بين جامع الطيبي بشارع الديورة . وبين النقطة التي يتلاقى فيها شارع عراقى بشارع رمسيس . وقد نتج عن هذا الطرح للمنطقة التي تقع فيها اليوم كلية تجارة عين شمس . ومه يانى وزارة



تمت بمصلحة للساسة المصرية (١٠٣٢/١٩١٢) (G. 32/102)

أحياء القاهرة الفاطمية وامتدادها في أوائل العصر الأيوبي
ملحوظة : صحة موقع باب الفرج في السور الجنوبي وليس في السور الغربي .

للمؤمنين القديمة) ووزارة البحث العلمي والرى والصحة ومجلس الشعب والجامعة
الأمريكية بالقاهرة وكلية اليمية ووزارة الأوقاف والبنك الأهلي ويمر فيها شارع
شريف وامتداده إلى ميدان عرابى .

والآن ننتقل إلى المرحلة الثانية لتطور القاهرة فى أيام الأسرة الأيوبية ،
وفى أيامها أخذت المدينة تتنازل عن مكاتها الأرسقراطية التى تمت بها خلال
فترتين ،

٢- امتداد القاهرة أيام الأيوبيين

أصبحت القاهرة الأيوبية فى آخريات القرن الثانى عشر ومستهل الثالث عشر
تتميز عى ذلك القر الملكى الفاطمى . وأضحت تشتمل مساحة قدرها عشر أمثال
ما كانت عليه ، فاحتوت على عدد كبير من المباني ذات الطابع الهندسى المستعذب ،
وضارت لها قلعة تشرف عليها فوق جبل للقطم ، وكان الفضل فى هذه الانجازات
لصلاح الدين الأيوبي . غير أنه مات قبل أن يراها ، بل شاهدها أشتاؤه وأبناؤه
وأحفاده وعاشوا فيها .

قلعة صلاح الدين :

كان بناء القلعة فكرة ابتكرها هذا الماهل ، فقد شاهد فى الشام أن لكل
مدينة قلعة حصينة تحميها . فلم لا يكون أيضا للقاهرة قلعتها ، كما لها سورها . . .
وهنا تنقل ما كتبه عماد الدين كاتب السلطان صلاح الدين فى هذا الشأن :

« كان السلطان لما ملك مصر رأى أن مصر والقاهرة كل واحدة منها سور
يحميها ، فقال : أن أفردت لكل واحدة سورا احتاجت إلى جنود كثير يحميها .
وأنى أرى أن أدير عليها سورا واحد من الشاهلىء . وأمر ببناء قلعة فى الوسط
عند مسجد أسد الدولة على جبل للقطم » :

وأمر صلاح الدين ببناء القلعة في عام ١١٧٧ ، فأقام على عمارتها الأمير الطوائشي بهاء الدين قرّة قوش الأسدي أحد أمراءه المخلصين ، ولم ينقض على العمل ست سنوات حتى نقش على الباب المدرج في الجدار الغربي من القلعة النص التذكاري لبنائها وذكر فيه عام ١١٨٤ ، ومات صلاح الدين (١١٩٣) قبل أن ينقضي بناء جميع أسوار القلعة فأهمل العمل مدة إلى أن كانت سلطنة الملك الكامل محمد بن الملك العادل . فأتم البناء

سور حول القاهرة :

أراد صلاح الدين أن يجعل على القاهرة الفاطمية ومصر (لانسقاط والمسكر والقطائع والقلعة سورا واحدا يحيط للمدينة الكبرى بأسرها فبدأ عمارة هذا السور الأيوبي (ويعتبر ثالث أسوار القاهرة عند الأثريين) عام ١١٧١ وهو يومئذ وزير الخليفة المعاضد لدين الله وفي عام ١١٧٤ انتدب بهاء الدين قرّة قوش الأسدي لعمل هذا السور . فبناه بالحجارة . وزاد في سور القاهرة الغربي الجزء للمتدمن باب القنطرة إلى باب الشمرية ومنه إلى باب البحر . ومن قلعة القس في نهاية السور الشمالي على النيل بجانب جامع القس واقطع السور من هناك (١) ثم زاد في سور القاهرة الشمالي الجزء الذي يلي باب النصر إلى برج الظفر في أقصى الشمال الشرقي للقاهرة . ومن هذا البرج الذي مازال باقيا في مكانه إلى باب البرقية في السور الشرقي . ومنه إلى درب بطوط وإلى خارج باب الوزير ليتصل بسور قلعة الجبل فاتقطع لوفاة صلاح الدين .

(١) كان أمل صلاح الدين أن يمد هذا السور إلى مدينة مصر حيث كانت تجري المياه-



بَابُ النُّصْرَةِ فِي بَغدَادِ عِرَاقٍ فِي يَوْمِ الْفَتْحِ

باب النصر

السور الغربي :

شرع صلاح الدين في سنة ٥٦٦ هـ في بناء السور الغربي للقاهرة على الحافة الشرقية للخليج المصري في محاذة سور بدر الجمالي وسور جوهر وطى بعد قليل منهما إلى جهة الغرب . وأقام صلاح الدين فملاقطة من السور الغربي امتدت في النهاية الغربية لسور بدر الجمالي الشمالي واتجهت نحو الغرب إلى باب القنطرة الذي انشأه صلاح الدين في السور الغربي تجاه باب القوس الذي كان يعرف باب الرماحين . لكنه أوقف العمل ورأى أن يزيد في سور القاهرة الشمالي وبعده إلى الغرب إلى شاطئ النيل الشرقى .

السور الشمالى :

شيد صلاح الدين قطعة من السور الشمالى غربى البرج المستدير الذى يقع طه بعد ١٠٣ مترا غربى باب الفتوح ، وتمتد هذه القطعة عند برج كثير الاضلاع ثم تنحرف إلى الجنوب الغربى وتتجه ثانية نحو الغرب إلى أن تلتقى قريبا بشارع الخليج المصرى ، وقد ازيات قطعة منها عندما شق شارع الجيش منذ ثلاثين سنة تقريبا . ولستمر هذه القطعة من السور إلى ما بين سكة الفجالة وشارع الطبالة حيث ما زالت توجد بقايا قاعدة برج مستدير ، كما بقيت اجزاء متناثرة من هذا السور و برج ، يشهد على ذلك اسم شارع البرج عند ملتقى شارع الظاهر وشارع الفجالة . وامتد السور الشمالى إلى جهة الشرق حيث موقع برج الظفر ولا يزال يوجد من هذه الزيادة جزء من سور للقسم الشرقى المجاور للبرج المذكورة .

السور الشرقى :

يمتد هذا السور من باب الوزير إلى درب المحروق ، ومن درب المحروق يمتد نحو الشمال إلى برج الظفر . وبه الباب الجديد وباب لبرة وباب لبرة وباب القراطين

(الباب -- المروق) ولا يزال باقيا إلى اليوم أجزاء كثيرة من لسور الشرقى ، منها الجزء الذى يمتد جنوبي برج الظفر بطول أربع مائة متر ويقع فى هذا الجزء الباب الجديد ، وتمتد قطعة أخرى إلى قبيل باب البرقية ، وتمتد أجزاء كثيرة تحت كيان التراب ومن اليوم للذكور القطعة التى تبدأ من برج درب المروق وتكبر إلى الجنوب بطول ٧٦٠ إلى أن تنقطع خلف زاوية الشيخ مرشد بشايع باب الوزير ، وهذا الجزء هو أطول الأجزاء الباقية من السور للشرقى وحائطه أغلبه سليم إلى اليوم ، ومنه جزء آخر يمتد إلى الجنوب بين الخانات النظامية (وقد خربت اليوم) وبين بقايا جامع المسيح سلاطين (خرب) وطول هذه الجزء ١٢٥ م . وأما الباقي من السور للشرقى وهو الجزء الذى يمتد من قلعة الجبل إلى سور مدينة مصر ، فلم يتبأ للسلطان صلاح الدين أن يقوم به .

السور الجنوبي :

لما مد صلاح الدين سور القاهرة الغربى إلى غربى السور الفاطمى ، جعل باب سعادة (الثانى) فى نهايته الجنوبية وشيد قطعة جديدة من السور الجنوبي للقاهرة تصل إلى باب الفرج (الثانى) ثم التحقت بسور بدر الجليل وباب زويلة .

أما سور الفسطاط الذى يبدأ من الطرف الجنوبي الغربى للقلعة إلى الفسطاط فلم يصل به إلى النيل ، وقد بقيت منه عدة أبراج لم يكشف عنها جيدا من الناحية الأثرية ، واحتوى هذا السور على كثير من الأماكن للمعمودة السقوف لتسهيل عمل المدافعين عن المدينة . ولا يزال واحد منها قائما على بعد سبعين مترا جنوبي باب القراة الذى فتحه الظاهر بيبرس فى حائط مجرى المياه وذلك ليسهل على أهل القاهرة الخروج بموتاهم إلى القراة (جبانة الماليك وسيدى جلال والإمام الشافعى)

أبواب القاهرة الايوبية

نوجز الكلام الآن على أبواب القاهرة الايوبيين على ترتيب الأسوار :

١ — أبواب السور الغربي ، من الشمال إلى الجنوب (٥٥٦٤ - ١١٦٩ م) :

(أ) باب القنطرة الثاني ٢ — باب الخوخة ٣ — باب سعادة .

(ب) أبواب السور الشمالي (٥٥٧٢ - ١١٧٦ م) :

١ — باب البحر (هدم حوالى ١٨٤٧) ٢ — باب الشمرية (هدم حوالى

١٨٨٤) .

(ج) أبواب السور الشرقي (٥٥٧٢ - ١١٧٦) :

١ — الباب الجديد ٢ — باب البرقية (تحت كيان الدراسة)

٣ — الباب المحروق وبرجاء الجانبين باقيان .

(د) أبواب السور الجنوبي للقاهرة (٥٥٦٤ - ١١٦٩ م) :

باب الفرج الثاني (لا يعلم متى خرب)

(هـ) أبواب سور الفسطاط (٥٥٧٢ - ١١٧٦ م) :

١ — باب الفرانة (بعض اجزائه باقية) ٢ — باب الصفاء (خربه الظاهر

بيروس) .

٣ — باب الفسطاط (بعض مداميك ابراجه الجانبية باقية) .

وننتقل إلى الكلام على كل منها :

باب القنطرة الثاني

شيد صلاح الدين في عام ٥٦٩ هـ - ١١٧٤ م على الحافة الشرقية للخليج، وعرف بهذا الاسم لأنه يقع تجاه القنطرة التي بناها جوهر القائل على الخليج الكبير في سنة ٣٦٢ هـ - ٩٧٢ / ٧٣ م (الخطط القرظية - ج ٢ ص ١٤٧)

باب الخوخة

شيد في واجهة باب الخوخة الفاطمي، ولا تعرف الظروف التي اختفى فيها هذا الباب. وكان يقع على مقربة منه مسجد باب الخوخة الذي يعرف اليوم باب جامع القاضي يحيى زين الدين.

باب سعادة

عرف باب سعادة الأول بهذا الاسم لنسبته إلى أحد قادة المماليك الفاطمي سعاد بن حيان.

باب البحر

كان يعرف هذا لباب بباب القس لوقوعه في قرية القس التي كانت يقال لها المقسم أو باب البحر لأنه كان يشرف على النيل، ثم عرف باسم باب الحديد لأنه كان مركبا عليه بوابة من الحديد، ونسب إليه ميدان باب الحديد وكان هذا الباب يقع عند مدخل شارع فم البحر من جهة الميدان المذكور وقد هدم حوالي عام ١٧٤٧.

باب الشعرية

كان يقع بين باب البحر والخليج في السور، وقد نسب إلى طائفة من البربر يقال لهم بنو الشعرية (الخطط القرظية ج ١ ص ٣٨٢) ورسم هذا الباب

على خريطة القاهرة التي وضعها جران بك. مدير التنظيم في عام ١٨٧٤ على رأس سكة باب الشمرية التي تعرف اليوم بسوق الجراية ، وقد أزيل هذا الباب في عام ١٨٨٤ خلال مبانيه ، وكان يعرف أخيراً باسم باب العدوى . لوقوعه بجناح جامع العدوى .

الباب الجديد

أحد أبواب السور الشرقي للصلاحى عرف باسم الباب الجديد لأنه كان أول باب أنشئ في سور القاهرة الشرقي من الناحية الشمالية بعد باب النصر وله بدينتان كبيرتان . وقد كشفه الأستاذ كريز ويل الأثرى المعروف .

باب البرقية

من الأبواب الصلاحية ذكره للقرينى (ج ١ ص ٣٨٠) وتكلم القلقشندي (صبح الأعنى ج ٣ ص ٣٥٤) بقى مدة طويلة مختفياً تحت كيان التراب حتى اكتشفه للرحوم على بهجت مدير الآثار العربية . ولا يزال هذا الباب موجوداً يأكله ومحتفظاً بشكله الأصلي من الأساس إلى الشرفات وقد نسب إلى جنود برقة في الجيش الفاطمى ، وعرف أيضاً بباب الغرب .

الباب المحروق

ذكره للقرينى (ج ١ ص ٣٨٣) والقلقشندي (ج ٣ ص ٣٥٤) وكان يعرف قديماً باسم باب القراطين لأنه كان يوجد بجواره سوق اللواشى والنم وكان يجلس عنده القراطون الذين يبيعون القراط وهو البسم .

يمكن أن نوجز أهم معالم القاهرة في أيام الأيوبيين فيما يلي :

(١) تمذمة الجليل والسور :

كان لبتاء القلعة والسور حول للمدينة أثر كبير على امتداد العمران في القاهرة الأيوبية ، ذلك لأن تركيز الإدارة الحكومية ومصالح الجيش في القلعة نقل مركز ثقل المدينة إلى وسطها وجعل القاهرة الكبرى تنمو وتتوسع من ناحيتها الجنوبية حتى كاد الاتصال يتم بين القاهرة الأولى وبين منسطاق والمعسكر والقطائع ، وبخاصة بعد إنشاء عدد كبير من المدارس الدينية بالقرب من ضريح الإمام الشافعي ، وجامع عمرو بن العاص ، وفي القاهرة الفاطمية أيضا . كما أن امتداد السور الجديد إلى النيل من ناحية القاهرة الشمالية يسر توسيع القاهرة في ذلك الاتجاه الجديد .

(٢) بركة الفييل :

تقع بركة الفييل خارج باب زويلة فيما بين القاهرة ومصر وشمال شرق ميدان السيدة زينب اليوم . ولم تكن بركة عميقة وإنما كانت تطلق في أرض زراعية ينمرها ماء النيل سنويا زمن الفيضان وكانت تروى من الخليج المصري وبعد نزول الماء تزرع أصنافا شتوية . تحولت أراضيها تدريجيا من الزراعة إلى السكن من سنة ١٦٢٠ هـ (١٢٢٢ م) في العصر الأيوبي ، ولم يبق من أرض البركة غير بناء إلى عام ١٨٠٠ لإلحظة أقيم عليها فيما بعد قصر عباس الأول وإلى مصر وهي للمروفة بسراى الحلبية وحديقتها وفي عام ١٨٩٤ قسمت أراضي الحديقة وفي عام ١٩٠٢ هدم القصر وقسمت أراضيها وبيعت وعرفت فيما بعد بالحلمية الجديدة .

كانت بركة الفييل تشغل من القاهرة الحالية المنطقة التي تحده اليوم شمالا بسكة

الجبانية ومن الغرب بشوارع درب الجميز واللبودية والخليج المصري، ومن الجنوب شارع عبد المجيد اللبان ، ثم يميل الحد إلى الشمال الشرقي حتى يتقابل مع أول شارع نور الظلام ويبر فيه إلى الشارع الأثني ، ومن الشرق تسكلة شارع نور الظلام فشارع مهذب الدين الحكيم فسكة عبد الرحمن بك وما في امتدادها إلى الشمال حتى تقابل الحد البحري (محمد رمزي : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ص ٣٦٦-٣٦٧) . وهكذا نلاحظ أن منطقة سكنية جديدة عمرت في القاهرة على أيام الأيوبيين ثم ازدهرت كحي أرسنقراطي في أيام للهايك وبقيت على هذه الحال على أيام العثمانيين .

(٣) جبل يشكر ومناظر الكبش :

يطلق اسم لكبش على الركن الشمالي الغربي من جبل يشكر حيث النقطة الواقعة غربي جامع ابن طولون ولا تزال هذه للمنطقة تعرف إلى اليوم باسم قلعة الكبش بشارع الشيخ عبد المجيد اللبان (مراسينا) سابقا . وفي أثناء سلطته الصالح نجم الدين أيوب أنشأ عدة قصور جميلة على ذلك الجبل عرفت باسم المناظر وكانت تُشرف من أعلى جبل يشكر على بركة قارون وبركة الفيل وعلى البساتين التي في بر الخليج الغربي من القس إلى فم الخليج ، والتي في بره الشرقي من باب زويلة إلى الصليبية ، كما أنها كانت تُشرف على النيل وجزيرة الروضة وقلعتها ، فكانت منزهات جميلة يقصده الناس وقد تائق الملك الصالح في بنائها . وما زالت بعد وفاة الملك الصالح من للنازل الملكية إلى أن هدمها الملك الأشرف شعبان بن حسين في عام ٧٦٨هـ (١٣٦٦م) فحكر الناس الكبش وبنوا فيه المساكن .

(٤) جزيرة الروضة :

وفي أقصى الجنوب ، وفي مقابل النيل ، شيد الملك الصالح نجم الدين أيوب (١٢٣٩م) قلعة الروضة أو قلعة الصالحية وقد شرع في حفر أساس القلعة في يوم الجمعة ١٦ شعبان ٦٣٨ هـ ، وفي عاشر ذي القعدة وقع المدم في الدور والقصور والمساجد التي كانت بالجزيرة ونحو الناس من مساكنهم التي كانوا بها وهدم كنيسة كانت لليمقابة بجانب مقياس النيل وأدخلها في القلعة واتفق في عمارتها أموالا جمة ، وشيد فيها الدور والقصور وعمل لها ستين برجاً وأقام بها جامعاً وغرس بداخلها أنواعاً شتى من الأشجار ، ونقل إليها عمد الصوان من المعابد القديمة ، وعمد الرخام وعمحنها بالأسلحة وآلات الحرب وما يحتاج إليها من الفلأل — والازواد خشية محاصرة الفرنج ، فأنهم كانوا حينئذ في عزم أن يقصدوا بلاد مصر .

وذكر المقرئ أن مباني القلعة امتدت إلى مقياس النيل من الجهة الجنوبية وموجز القول أن هذة القلعة كانت تشغل مساحة من الأرض لا تقل عن ٦٥ فدانا في جنوب جزيرة الروضة . وقد سكن الملك الصالح نجم الدين هذة الجزيرة مع مماليكه وكانت عدتهم ١٠٠٠ مملوك بعد أن نقلهم من قلعة الجبل . واستمرت تلك الجزيرة عامرة حتى تولى السلطنة عز الدين أيبك فأمر بتخريب القلعة ليمر بها مدرسته المزينة التي كانت برجة الجنة بمدينة مصر واقتدى به ذوو الجاه فاتخذوا كثيرا من سقفها ونوافذها وغيرها ، ويبيع أخشابها ورخامها وأشباه جلييلة .

٥ - قبة الإمام الشافعي :

لما توفي الإمام الشافعي في سنة ٢٠٤ هـ (٨١٩ م) دفن بتربة أولاد ابن عبد الحكم وفي عام ٥٧٢ هـ (١١٧٦ م) شيد السلطان صلاح الدين تربة الشافعي وبني بجوارها المدرسة الإصلاحية ، وفي سنة ٥٧٤ هـ (١١٧٨ م) فرغ من عمل التابوت الخشبي الذي يعلو تربة الشافعي وهذا التابوت صنع من خشب الساج الهندي المقسم إلى حشوات هندسية منقوشة ومكتوبة عليها الآيات للقرآنيّة وترجمة حياة الشافعي واسم الصانع الذي قام بعمله وذلك بالحيط الكوفي والنسخ الأيوبي . ولما توفيت والدة الملك الكامل بن العادل سنة ٦٠٨ هـ (١٢١١ م) شيد الكامل قبة كبيرة ضمت إلى قبر الشافعي وقبر أولاد ابن عبد الحكم وأفراد الأسرة الأيوبية ثم أرسل للماء إليها من بركة الحبش وكان الفراغ من إنشائها في يوم الأحد ٧ جمادى الأولى سنة ٦٠٨ هـ (١٢١١) ثم أنشأ تابوت من الخشب فوق تربة والده لا يقل دقة عن تابوت الشافعي .

وللكامل الكامل محمد هذا هو منقضى دار الخلافة التكاملية الجليلية في النعاسين وكان ذلك في عام ٦٢٢ هـ (١٢٢٥) وتقع بقايا الدار التكاملية على الجانب الغربي لسوق النعاسين وإلى الناحية الشمالية للمدرسة وضريح السلطان برقوق أمام منشآت الملك الصالح نجم الدين .

وتنسب إلى الملك الصالح نجم الدين الأيوبي للمدرسة الصالحية التي وضع أساسها في ١٤ ربيع الأول سنة ٦٤٠ هـ (١٢٤٢) وبدأت الدراسة فيما في العام التالي بالرغم من ضخامة بنائها وقد أقيمت على موضع القصر المظلمى الشرقى ، وأول من درس بها قاضى القضاة شمس أبو بكر .

ومثذنة للدرسة نموذج فريد للمأذن الأيوبية ولها مكاتبا من ناحية التطور
للممارى للمثذنة .

تلك ، كانت القاهرة الأيوبية الكبرى حينما استقبلت حكم دولة للمالك الأولى
في أعقاب انتصار الأيوبيين في معركة المنصورة عام ١٢٥٠ م .

د . عبد الرحمن زكى

صور من مجتمع القاهرة في العصور الوسطى (١)

بقلم

دكتور سمير عبد الفلاح عاشور
استاذ كرسى تاريخ العصور الوسطى بجامعة القاهرة

يتمد تاريخ القاهرة في العصور الوسطى من سنة ٩٦٩م حتى سنة ١٥١٧م .
وفي هذه الحقبة التي قاربت خمسة قرون ونصف تعاقبت على حكم القاهرة ثلاث دول
كبرى لكل دولة منها طابعها الخاص المميز ، هي دولة الفاطميين ، ودولة
الايوبيين ، ودولة سلاطين المماليك .

وللمعروف أن الحياة الاجتماعية تتصف دائماً بنوع من الثبات والاستقرار ويطء
التغيير بخلاف ما عليه الحال في الحياة السياسية أو الحياة الاقتصادية .

وإذا نحن نظرنا إلى مجتمع القاهرة اليوم فإننا لانرى وجها للمقارنة بين الأوضاع
السياسية والاقتصادية السائدة فيها ، وتلك التي كانت سائدة أيام الفاطميين
أو الايوبيين أو المماليك . ومع ذلك فإننا نلمس بعض الأوضاع الاجتماعية والمعادن
والتقاليد التي نحرص عليها اليوم والتي حرص عليها أهل القاهرة أيام الفاطميين
والايوبيين والمماليك .

(*) محاضرة القيت بالجمعية المصرية للدراسات التاريخية - ضمن موسم الفاعره الثقافي
بمناسبة مرور ألف عام على إنشاء مدينة القاهرة - وذلك مساء الاثنين ٢٩ ابريل ١٩٦٩
بمقر الجمعية المصرية للدراسات التاريخية .

ومن هذه المقدمة نخرج بحقيقة كبرى هي أن مجتمع القاهرة احتفظ بقدر ثابت من صورته طوال المصور الوسطى ، رغم تماقب ثلاث دول عليه في تلك المصور . ولا تقصد بذلك مطلقا اتفاق مجتمع القاهرة في تفاصيله أيام الفاطميين مع ما كان عليه أيام - الايوبيين أو أيام المماليك ، فلكل دولة من هذه الدول لثلاث ظروفها الخاصة السياسية والاقتصادية وربما العقائدية وللذهبية التي عكست صورتها على حياة العاصمة وتركزت أثرا في مجتمعها ، مما جعل هناك قدرا متفاوتا من التباين في بعض الأوضاع الاجتماعية بين الدول المشار إليها . وإنما كل ما قصدناه هو تأكيد حقيقة هامة هي وجود قدر كبير مشترك من الأوضاع الاجتماعية ظل سائدا في مجتمع القاهرة طوال المصور الوسطى ، بل ربما المصور الحديثة . وترجع بعض هذه الأصول المشتركة إلى ظروف البيئه التي تمتد بعيدا في بطون التاريخ ، في حين يرجع البعض الآخر إلى الطابع العام للمجتمع العربي الاسلامي ومساهمه من تقاليد اجتماعيه مشتركة في جميع انحاء الوطن الاسلامي الكبير تحت تأثير تعاليم الاسلام وآدابه .

ولا ينبغي في هذا البحث ذلك الطابع العام للحياة الاجتماعية في القاهرة طوال المصور الوسطى أو ذلك القدر المشترك من التقاليد والمعادن التي كلفت الحياة العامة في القاهرة في تلك المصور ، بقدر ما تمنين الإشارة إلى الطابع الخاص للحياة الاجتماعية في القاهرة على عصر كل دولة من الدول الثلاث التي تعاقبت في حكم مصر في المصور الوسطى ، مع بيان العوامل التي تحمكت في تشكيل الحياة الاجتماعية بالقاهرة أيام الفاطميين أو الايوبيين أو سلاطين المماليك ، كل على حدة

ولعل أهم ما يميز الحياة الاجتماعية في القاهرة على عصر الخلفاء الناطميين للبالنة في أحياء الاعياد والمواسم ، وهي ظاهرة تستحق منا لوقفه خاصة لتليلها . لقد قال البعض أن ثراء الخلفاء الفاطميين - وخاصة في المصور الأول لتلك الدولة - كان

الدافع الاساسى لتلك الاسراف وتلك اللبالة ، ولكننا نسمع عن بعض حكام مصر السابقين واللاحقين ممن كانوا لا يقلون ثروة عن الخلفاء الفاطميين الأوائل ، ومع ذلك فإنهم لم يسرفوا فى إحياء الاعياد واقامة الحفلات ومد الاسمطة والولائم مثل أسرف الفاطميون . ولا يخفى علينا أن بعض الوان الطعام وبعض المعادات والتقاليد للربطة بالاعياد والحفلات والتي مازال قائمة فى مجتمعنا حتى اليوم إنما ترجع جذورها إلى أيام الفاطميين بالذات فما هو التعليل العلمى السليم لهذه الظاهرة ؟ ؟

أن الأمر فى نظرنا لم يكن مجرد ثروة وافره نعم بها خلفاء الفاطميين ولم يجدوا مجالاً لتبديدها سوى اللبالة فى إحياء الحفلات ومد الاسمطة واقامة الحفلات . وإنما كان الأمر - من وجهه نظرنا - أبعد من هذا بكثير . لقد قامت الدولة الفاطمية على أساس الدعوة لمبدأ جديد ومذهب جديد فى أرض لا تدين بهذا المبدأ ولا تأخذ بذلك المذهب . وكان لابد لنشر تعاليم المذهب الفاطمى الشيعى من دعاية واسعة تنفذ إلى قلوب الناس وفق المستويات الفكرية السائدة فى تلك المصور . وهل هناك طريق للدعاية لأولئك الحكام الجدد وما أتوا به من آراء وعقائد أيسر من أشباع البطون وإحاطة الخلفاء بهالة من العظمة والمجد، وأشاعة جو من الفرح والخبور يجعل الناس - وخاصة فى العاصمة - لا يرون فى ذلك التحول الجديد إلا كل محبب إلى نفوسهم ويطونهم ؟ ؟

وهكذا اتخذت الدولة الفاطمية من الاعياد ولقواكب والاسمطة سبيلاً للدعاية والنفذ إلى قلوب الناس وكسب ولأهم ومحبتهم وأعجابهم بالنظام الجديد . هذا فى الوقت الذى دأب رجال الفكر من دعاة الفاطميين على اكتساب جماهير للناس عن طريق نشر مبادئ المذهب الجديد ، واتخذوا من الجوامع ودور العلم والحكمة مراكز لهذه الدعوة الفكرية . ومن الاعياد التى جرى الفاطميون على اللبالة

في إحيائها ما هو عام بالنسبة للمسلمين جميعا مثل عيد أول العام الهجري وعيد مولد النبي (ص) . ومنها ما أدخله الفاطميون في مصر مثل مولد علي بن طالب ومولد الحسن ومولد الحسين، رضى الله عنهم . وكذلك الاحتفال بليلالي الوقود الأربعة وهي أول رجب ونصفه وأول شعبان ونصفه ، فضلا عن الاحتفال بميد الندير - أى غدیر خم - وهو المكان الذى يقول الشيعة أن النبي (ص) ولى عليا بن أبى طالب عهدة فيه وجهه منه بمنزلة هارون من موسى . أما يوم عاشوراء - وهو عاشر المحرم - وقد احتفلت به الحكومة الفاطمية احتفالا كبيرا تعطل فيه الأسواق ، ويخرج أهل القاهرة إلى الطرقات يبكون وينوحون حزنا على الحسين بن علي الذى استشهد في ذلك اليوم . وكان يعد فيه سباط أطلق عليه اسم سباط الحزن ، لا يقدم فيه إلاخبز الشمير والمدس والملححات والجبن ونحوها . وهناك من الأعياد التى شهدتها القاهرة في العصر الفاطمي ما اتخذ صبغة قومية مثل عيد جبر الخليج - أى وقاء النيل - وعيد النوروز - وهو عيد الربيع - ، فضلا عن خميس العهد وهو أحد الأعياد للسيحية ، يأتى قبل الفصح بثلاثة أيام ، واحتفل به الفاطميون مشاركة للنصارى في أعيادهم^(١) .

وقد اعتاد الخلفاء الفاطميون أن يركبوا في مواكب ضخمة يشقون شوارع القاهرة وسط أفراح الناس وزغاريد النساء ومظاهر الزينة . وبعض هذه اللواكب كانت تسمى للواكب العظام ، ويتم في أول العام ، وأول رمضان ، والجمع الثلاث الأخيرة من شهر رمضان ، وصلاة عيدي الفطر والاضحى ، وجبر الخليج . أما اللواكب الأخرى فقد أطلق عليها القلقشندى أسم اللواكب المختصرة ، وكانت تحدث أربع أو خمس مرات في السنة عند ركوب الخلفاء لمناظرهم ، ويكون ذلك عادة أيام السبت

(١) القلقشندى : صبح الاعشى ج ٢ ص ٤١٧

والثلاثاء^(١). وفي بعض هذه اللواكب كانت تسمى آلاف الفرسان وصفوف الجبال ،
وعليها المواجه للزركشة تنهادي في شوارع القاهرة ، ويسير إلى جانب الخليفة أحد
كبار رجال الدولة يحمل مظلة الخليفة ، في حين يحف بهما خصيان يطلقون البخور
على جانبي الطريق^(٢) .

واشتهرت أعياد القاهرة في عصر الفاطميين بما كان يقام فيها من ولائم وما يعد
من أعمته صارت مضرب للثل في التاريخ . واشهر الاممطة التي كان يقيمها الخلفاء
الفاطميون هي تلك التي كانت تمتد في أول العام الهجري وفي مولد النبي (ص)
وفي غرة رمضان وفي عيدي الفطر والاضحى . ويكفي للوقوف على ضخامة هذه
الاممطة ، وما كانت تحويه من كميات ضخمة من ألوان الاطعمة أن نشير إلى أن
السهاط الواحد كان يبلغ طوله ٤٠٠ ذراع وعرضه سبعة أذرع ونصف^(٣) . وبذكر
القلقشندى أن السهاط الواحد كان يضم إحدى وعشرين جفنة بكل منها واحد
وعشرون خروفا ، وثلاثه وخمسون من الطير ، ما بين دجاج وحمم ، هذا عدا
القطائر والجلوى^(٤) . وبعد أن يفتح كبار القوم السهاط ، يباح لامة أهل القاهرة ،
فياً تكون ملاً بطونهم ، ويسمح لهم بحمل ما تبقى ويبيعه في الأسواق . وفي مولد
النبي (ص) كان يصنع عشرون قنطاراً من الجلوى توزع في الأزهر على عامة
أهل القاهرة^(٥) .

وهكذا عرف الخلفاء الفاطميون كيف يستميلون أهل القاهرة ، عن طريق

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٣ ص ٥٠٣ - ٥٢٠ .

(٢) ناصري خسرو ، ص ١٣٦ - ١٤٢ .

(٣) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ، ص ٦٦٢

(٤) القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٣ ص ٥٢٧ - ٥٢٨ .

(٥) المرجع السابق ، ص ٥٠٢ - ٥٠٣ .

إشباع بطونهم ، فظل الدعاء للخلافة للفاطمية طالما هي في يسر ، حتى إذا ما أدبرت الدنيا في وجهها ، وساءت أحوالها الاقتصادية ، أقتض عنها كثيرون ، وهذه هي سنة التاريخ .

أما الدولة الايوبية فقد جاءت من الناحية الزمنية بين دولتين اقتصتا بالبذخ وامتازت الحياة الاجتماعية في القاهرة طولهما بالاسراف والبلالة في أحياء الحفلات ، وهما الدولة الفاطمية والدولة للماليسكية . ولكن دولة بنى ايوب أحاطت بنشأتها ظروف غير الظروف التي أحاطت بالدولة السابقة لها أو الدولة اللاحقة بها ، إذ ولدت الدولة الايوبية في وقت صار الصليبيون بالشام أشد ما يكونون قوة واتساعا ، حتى هدد خطرهم بابتلاع البلدان العربية ليس في الشام فحسب ، بل أيضاً في مصر ، فضلاً عن الحجاز والعراق وبعض أجزاء المغرب . لذلك لم يكن هناك مجال أمام الايوبيين ليحيوا حياة اجتماعية مترفة ، إذ غلبت فكرة الحرب على السلاطين ، وتغلبت عقيدة الجهاد على أحاسيس الناس ومشاعرهم ، مما لم يترك مجالاً للتوسع في الاحتفالات وحياة الترف . وإذا توافر الوقت أحياناً في العصر الايوبي لمباشرة حياة الترف فإن المال لم يتوافر ، لأن حراسة القوافل ، وتحصين المدن ، وشحن القلاع ، واعداد الجيوش ، وبناء السفن والأساطيل ، وصناعة المدد وآلات الحرب . . كل ذلك كان كفيلاً بأن يستنفد آخر درهم في خزانة سلاطين بنى ايوب .

وبينا نقرأ في مصادر التاريخ أن أول ما شرع فيه جوهر الصقلي نور تأسيسه مدينة القاهرة هو بناء قصر كبير لمولاه الخليفة للمزدين الله ، إذا بابن شداد يروى عن صلاح الدين أنه « قنع من الدنيا بالسكون في ظل خيمة تهب بها الرياح ميمنة وميسرة (١) » . وبينما يحكى للقرزى عن الخليفة للمزدين الله الفاطمى أنه انجب

(١) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٤٤ .

بتنين إحداهما رشيدة وقد تركت ثروة منها مليون وسبعمائة ألف دينار من الذهب،
والأخرى عبدة وقد تركت عددا من خزائن الحلى والصناديق التي تحتوى على
أكياس الزمرد والدنابير والنياب الفاخرة (١) ، إذ بنا نسمع عن صلاح الدين أن
الجهاد استنفد كل دينار في خزائنه بحيث لم يترك عند وفاته سوى سبعة وأربعين
درهما من الفضة وجرام واحد من الذهب (٢) .

إلى ووصل الخليفة للمسلمين الله الفاطمي إلى مصر ، فكان أول ما شرع فيه هو
تعمير القاهرة والعناية بأسواقها ومنشآتها ، ورعاية الحفلات والبالغة في فخاما
للواكب . . . أما صلاح الدين الأيوبي فكان أول ما أهتم به عندما تمت له الأمور
في مصر هو بناء قلعة الجبل وتشيد سور القاهرة واتخاذ كافة الاجراءات لحماية
البلاد والمباد من خطر العدو الصليبي .

وليس معنى ذلك أن الحياة الاجتماعية في القاهرة على عصر بنى ايوب صارت
مجذبة كل الجذب ، خشنة كل الخشونة ، خالية تماما من مظاهر الأفراح واليسالى
لللاح . إذ الواقع أن الأيوبيين حافظوا على أحياء الأعياد الدينية وغير الدينية ،
ولكن في غير أسراف ودون مبالغة أو تهتك . فالمقرزى عندما يشير إلى بعض
الإحتفالات في مصر الأيوبي لا يتعرض لالوان الاباحية وصنوف للنكر التي انتقدتها
في مرارة عند كلامه عن الإحتفالات في مصرين الفاطمي وللهايكى (٣) . ذلك
أن الأيوبيين اقتصروا في الحفلات ، وألغوا بعض ما ارتبط منها بأعياد الشيعة ،
في حين حوروا البعض الآخر ، بما يتفق وإحلال للذهب السنى محل للذهب الشيعي .

(١) المقرزى : المواعظ ، ج ١ ص ٤١٥ ، ٤٨٥

(٢) ابن شداد : النواذر السلطانية ص ٢٧ .

(٣) المقرزى : السلوك ، ج ١ ص ٤٧

من ذلك مثلأن عاشر المحرم - وهو يوم عاشوراء - كان يوم حزن عند الفاطميين ،
تفلق فيه الأسواق ، فجعله الايوبيون يوم فرح يوسعون فيه على عيالهم ، ويصنعون
فيه الحلوى ويطحنون الحبوب (١) . وهكذا لم تحرم القاهرة في عصر الايوبيين من
أحياء الحفلات والاعباد ، ولكن في غير تبذل أو إسراف ، فنسمع عن الاسمطة
السلطانية في العصر الأيوبي ، ونسمع أن أول من ركب بشعار السلطنة في القاهرة
كان السلطان صلاح الدين الأيوبي نفسه ، ولكننا لانسمع عن الاسراف والبالغة
اللتين اتصفت بهما الحفلات وللواكب الفاطمية أو المماليكية (٢) .

حقيقة أننا نجد في المراجع إشارات إلى أن بعض خلفاء صلاح الدين بالنوا
أحيانا في إقامة بعض الحفلات . من ذلك ما اشتهر به السلطان العزيز عثمان من مد
الاسمطة الكبرى لاهيان دولته وموظفيها بين حين وآخر (٣) . كذلك روى
عن السلطات الكامل إنه قام مماطا سنة ٦٢٤ هـ (١٢٢٧م) بنسبة ختان ابنه المادل
الصنير ، واتفق في ذلك السباط أموالا باهظة (٤) . وتكرر ذلك في عهد السلطان
المادل الصنير الذي أقام مماطا في اليبندان الأسود تحت القلعة ذبح لأجله ألف رأس
من الغنم ، فضلا عن البقر والجاموس والإبل (٥) . ولكن هذه كلها كانت حالات
فردية ، لا تعتبر بحال من الأحوال عن الطابع الغالب على الدولة الأيوبية ، وبخاصة في
الشطر الأول من تاريخها .

ومهما يكن من أمر نشاط الحياة الاجتماعية في القاهرة على عصرى الفاطميين

(١) عبد اللطيف حمزة : الحركة الفكرية في مصر ، ص ٥٩ .

(٢) سعيد عبد الفتاح عاشور : مصر في العصور الوسطى ص ٤٠٧ .

(٣) المقرئى : السلوك ، ج ١ ص ٤٧ .

(٤) النويرى : نهاية العرب ، ج ٢٧ ورقة ٢٩ (مخطوط) .

(٥) المرجع السابق ، ورقة ٦٣ ، المقرئى : السلوك ج ١ ص ٢٨٩ - ٢٩٠ .

والأيوبيين ، فإن الحقيقتة الكبرى التي لا يرى إليها شك هي أن القاهرة في عصر
 سلاطين المماليك شهدت ازدهار حلقته، نشاطها الإجتماعى وغير الإجتماعى فى العصور
 الوسطى . حقيقة أن سلطنة المماليك قامت عند منتصف القرن الثالث عشر للميلاد
 وخطر التتار قد ابتلع فعلا بلاد الشام وبلغ غزوة مهودا بابتلاع مصر ووادى النيل .
 هذا بالإضافة إلى خطر الصليبيين الذى كان لا يزال رابضا على أرض الشام عند قيام
 سلطنة المماليك . ولكن المماليك استطاعوا فى مهتل دولتهم كسر شوكة التتار وطردهم
 نهائيا من بلاد الشام والوقوف لهم بالمرصاد لردعهم ككلما حدثتهم أنفسهم بعبور نهر الفرات
 لتهدت الشام . أما الخطر الصليبي فقد صار أضعف من أن يشكل خطرا حقيقيا على
 المماليك ودولتهم ، ولم يلبث سلاطين المماليك فى مدى أربعين عاما من قيام دولتهم
 أن قوضوا أركان البناء الصليبي بالشام ، واستولوا على اللدن وللماتل الصليبية
 واحدة بعد أخرى حتى انتهى الأمر بطرد الصليبيين نهائيا من بلاد الشام
 سنة ١٢٩١ (١) .

وهكذا لم تشعر القاهرة وأهلها فى عصر سلاطين المماليك بإحساس الخطر الذى
 أحسوه فى عصر الأيوبيين . ويكاد لم يخل يوم فى ذلك العصر إلا وشهدت القاهرة حفلا
 أو موكبا ، لاشتغال سلطان وقد عاد من الشام منتصرا على التتار أو على الصليبيين (٢) ،
 أو احتفال بشقاء سلطان من مرض ألم به (٣) ، أو إحياء لميئيد أو لمناسبة دينية
 أو قومية (٤) أو لمشاهدة موكب السلطان وقد نزل من القلعة فى طريقه إلى سرحة
 الصيد أو ملعب الكرة أو شاطى النيل طلبا للراحة وتغيير الهواء (٥) . وفى جميع

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور : العصر المماليكى فى مصر والشام ص ٥٩ وما بعدها .

(٢) المقرئى : السلوك ج ١ ص ١٣٨

(٣) تاريخ ابن الفرات ، حوادث ٧٩٩ هـ

(٤) ابن أياس : بدائع الزهور ج ٣ ص ٧٤

(٥) خليل بن شاهين : زبدة كشف الممالك ص ٨٦ — ٨٧ .

هذه للناسبات كانت القاهرة كلها تلبس حلة زاهية مشرقة ، فيقوم أصحاب الحوائيت بتبيضا وتزيينا، ومصطف للفانى من النساء فى المكايين ، وتفرش الشوارع بشقق الحرير ، وتضرب الكوسات بالقلمة والطبلخانات بدور الأمراء . ويتبارى الناس فى إقامة أقواس النصر — التى عرفت باسم القلاع — فى الشوارع ، وفى الليلة السابقة لموكب يخرج الناس إلى الشوارع الرئيسية التى يمر بها موكب السلطان لاستئجار الأماكن التى يقضون بها الليل استعدادا للفرجة فى اليوم التالى . وهكذا تقضى القاهرة ليلتها مضاءة بالشموع والقناديل ، وتختلط فيها أصوات للنساء بدق الدفوف وزغاريد النساء ودعاء الرجال (١) . فإذا مر يوم على القاهرة دون الاحتفال بميبد دىنى أو قومى أو بموكب سلطانى ، فإنه كان لا يخلو غالبا من احتفال عائلى فهذا شوار عروس تحمله الجمال والبغال التى قد يصل عددها إلى ثمانمائة جملى وستة وثلاثين قطارا من البغال لشق شوارع القاهرة فى موكب حافل إلى منزل الزوجية (٢) وهذا رجله شفى من مرضه فأجبه إلى الحمام وسط موكب من الأهل والأحباب التقوا حوله إبتهاجا بشفاؤه (٣) ، وهذه منبهة شهيرة تنفى فى مكان معين ، فيتدافع أهل القاهرة صوب ذلك المكان للاستمتاع بصوتها وغنائها (٤) .

على أنه إذا كانت الحياة الاجتماعية فى القاهرة قد بلغت ذروة نشاطها فى المصور الوسطى على أيام سلاطين المماليك ، فإن ذلك يستدعى منا وقفة قصيرة لتفسير أسباب هذه الظاهرة . وهنا يصح أن نشير إلى أن نشاط الحياة الاجتماعية فى أى مجتمع

(١) أبو المحاسن : النجوم الراهرة ، ج ٨ ص ١٦٥ ؛ ابن كثير ، البداية ج ٤ ق ٢

ص ٢١٦ .

(٢) ابن حجر : الدرر الكامنة ، ج ١ ص ٤١٨

(٣) أبو المحاسن : حوادث الدهور ج ٢ ص ٢٢٦ — ٢٢٧

(٤) السخاوى : الضوء اللامع ج ١٢ ص ٣٣ ، ابن حجر : الدرر الكامنة ج ٢

ص ٣٨٤ .

إنما يتوقف على طبيعة هذا المجتمع وخاصة من ناحية حجمه وبنائه ومدى ثرائه . فإذا نظرنا إلى القاهرة في عصر سلاطين المماليك من هذه الزوايا الثلاث وجدناها قد استوفت جميع أركان للنشاط الاجتماعى الخصب . فمن ناحية الحجم ، فافتت القاهرة في عصر سلاطين المماليك مثيلاتها من مدن العالم من حيث السعة وكثرة السكان . وحسبنا أن ابن بطوطة — وهو الرحالة الذى طاف بمعظم أركان العالم المعروف في القرن الثامن الهجرى (الرابع عشر الميلاد) — وصف القاهرة بأنها « أم البلاد المتناهية في كثرة العماره ، المتباهية في الحسن والنضارة ، مجمع الوارد والصادر ، ومحط الضعيف والقادر ، بها ما شئت من عالم وجاهل وجاد وهازل ، تموج موج البحر بسكانها وتكاد تضيق بهم على سعة مكانها (١) » وذكر جيهان تنود الذى زار مصر سنة ١٥٢٢م أن القاهرة تبلغ ثلاثة أمثال باريس (٢) ، في حين قال برنارد دي بريدنباخ أنه لا يمتقد في وجود مدينة أخرى في العالم كله تضاهى للقاهرة في كثرة سكانها والسامها وعظمتها وثروتها ، وأن جميع سكان إيطاليا لا يظاهون في الكثرة القاهرة وحدها (٣) .

أما عن بناء مجتمع القاهرة في ذلك العصر ، فكانت غالبية سكانها من المواطنين ومن هؤلاء كان العلماء والتجار وأصحاب الحرف والعامه من المسلمين وأهل الذمة سواء ولكن امتازت القاهرة في عصر سلاطين المماليك باكتظاظها بالمماليك — وهم الطبقة الحاكمة السائدة في البلاد — ومعظمهم من الترك ثم الجركس . هذا كله فضلا عن الأجانب من التجار والسفراء والرحالة وغيرهم الذين وفدوا على مصر من مشارق الأرض ومخارجها ومن البلاد الإسلامية والمسيحية سواء .

(١) رحلة ابن بطوطة ، ج ١ ص ٦٧ .

(٢) Carré : Voyageurs et Ecrivains Français en Egypte, 8. 4.

(٣) Clerget : Le Caire, Tome I, pp.152—153

وأخيرا ، فإن القاهرة صارت عاصمة العالم التجارية في عصر سلاطين المماليك ،
 بعد أن انسدت طرق التجارة العالمية للكبرى بين الشرق والغرب في ذلك العصر
 نتيجة لوقوع معظمها تحت سيطرة التتار ، وبقي طريق مصر والبحر الأحمر وحده
 بعيدا عن تهديدهم ، الأمر الذي مكن سلاطين المماليك من احتكار تجارة الشرق
 وخاصة تجارة التوابل . وهذا عاد عليهم وعلى مصر بثروة فائقة ، ظهرت صورتها
 في مجتمع القاهرة في ذلك العصر (١) .

وكان أن اكتظت القاهرة في عصر سلاطين المماليك بالقصور والمنشآت
 الدينية كالجوامع والزاويا والمدارس ، والمنشآت الاجتماعية كالسبل والبيمارستانات
 والحمامات والمؤسسات التجارية كالأسواق والفنادق والوكالات . وعنى سلاطين
 المماليك بتجميل عاصمتهم وكنس شوارعها ورشها بالمياه منعا لإثارة الأتربة (٢) .
 وأمر أرباب الحوانيت بأن تكون عند أبواب حوانيتهم أزيار مملوءة بالماء لتسهيل
 إطفاء ما يحدث من الحرائق (٣) واختص المشاعلية بأسرعة البيوت والحمامات وخزاناتها
 فقاموا على زحها وتنظيفها بين حين وآخر (٤) . كذلك أمر بعض السلاطين
 — مثل بيبرس وبرقون — باخراج البرصاء والمجدومين من القاهرة ، وانذروا
 من يظل منهم داخل أسوارها بالقتل (٥) . وهذا فضلا عن عنايتهم بتطهير العاصمة
 من الكلاب لأنها من الحيوانات المسكروهة لنجاستها ، فأمروا بامسكها ونفيها
 بعيدا خارج المدينة (٦) .

(١) سعيد عاشور : العصر المماليكي ، ص ٢٨٤ .

(٢) المقرئى : السلوك ، ج ٤ ص ٦٦٧ .

(٣) المقرئى : المواعظ ، ج ٣ ص ١٧٤ .

(٤) أبو المعاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٩ ص ٤٨ .

(٥) تاريف ابن الفرات ، حوادث سنة ٧٩٤ هـ ، العيني : عقد الجمان سنة ٦٦٤ هـ

(٦) ابن حجر : أنباء القمر ، ج ١ ص ١٢٥ .

وهكذا رأت القاهرة مجتمعا صاخبا في عصر سلاطين المماليك ، فبالإضافة إلى الاحتفالات وللواكب العديدة التي سبق ذكرها ، اتصفت الحياة اليومية في شوارع القاهرة بكثرة لباعة الجائلين ، وأصحاب الحرف الصغيرة كالحلاقين الذين يطوفون الشوارع ومراياهم معلقة في رقابهم يصيحون بأصوات مرتفعة ليسمعهم الراغبون في قص الشعر والزينة^(١) . هذا عدا المائة من النساء اللاتي تمتعن بحرية واسعة في الخروج من بيوتهن ، فكن يترددن على الأسواق لشراء ما يلزمهن ، أو يترددون على الحمامات العامة لاستكمال زينتهن ، وهناك يأسن بعضهم ويقضين الساعات الطوال بتناقل أخبار البيوت وأسرار العائلات^(٢) . يضاف إلى ذلك كثرة الدواب ، فالحياول للطهمة يركبها المماليك وقد ارتدوا ملابسهم للزركشة ، وأخذوا يركضون وسط الدروب والأسواق للزدحمة وهم يضربون الناس يمنا ويمرة ليفسحوا لهم ، غير مباليين إذا سقط بعض اللارة تحت حوافر خيولهم^(٣) والجمال العديدة تحمل القرب ويطوف بها السقاؤون على للنازل والأسواق لإمدادها بما تحتاج إليه من الماء . وقد قدر البلوي للثري هذه الجمال في القاهرة في القرن الثامن الهجري (الرابع عشر للميلاد) بمائتي ألف جملة^(٤) . أما السقاؤون فقد بلغ عددهم خمسة آلاف سجلوا أسماءهم عند الختسب وقاموا بدفع ضريبة معينة للحكومة ، مقابل السماح لهم بالتجارة في ماء النيل^(٥) ، أما الخمر فبانت عددا كبيرا لأنها قامت في قاهرة عصر المماليك بدور سيارات الاجرة ، فعنى أصحابها برسمها وتطهيرها ، وقدر ابن بطوطة

(١) Tafur : Travels, p. 101.

(٢) سيرة الظاهر بيبرس ج ١ ص ٦٦ ، ابن الحاج : للدخل ج ٣ ص ٢٧٣ .

(٣) Schefer : Le Voyage d' Outremer, p. XXX III

(٤) رحلة البلوي المغربي ، ص ٥٥ .

(٥) Dopp.: Le Caire Vu, Tome 23, p. 144.

عدد للسكرابين في القاهرة ثلاثين ألف مكارى (١) .

وإذا كان أهل القاهرة في عصر سلاطين المماليك قد تعرضوا أحيانا لبعض الضيق والشدائد نتيجة لتساقط طائفة المماليك على عامة الأهالى من المصريين (٢) ، أو نتيجة لضيق اقتصادى بسبب انخفاض النيل وما ينجم عنه من ارتفاع الأسعار وانتشار الوباء (٣) ، أو نتيجة لفتنة بين طوائف المماليك وعصبياتهم (٤) فإن هذا كله لم يفقد أهل القاهرة روح للروح التي عرفوا بها في كل زمان ومكان . وقد تعددت وسائل للتسليّة والترويح عن النفس عند أهل القاهرة في عصر المماليك ، منها خروج الناس إلى الحدائق وللتنزهات والبرك مثل الازبكية وبركة الحبش وبركة الرطلى وغيرها (٥) . وكان نهر النيل دائماً ملهى أهل القاهرة ، فزرعوا الحدائق على شواطئه واستأجروا القوارب والسفن فيه ، وخاصة في فصل الصيف (٦) .

وبالإضافة إلى ذلك فقد عرف أهل القاهرة خيال الظل واعتبروه تسلية شعبية (٧) هذا كله فضلاً عن الألعاب التي تلهى بها الناس والتي اتخذ بعضها طابع للناصرة ، مثل تطيير الحمام والناطحة والكباش والناقرة بالديوك فبرهن الشخص على هذا أو ذاك من الكباش أو الديوك ، فإذا ماز كسب الرهان (٨) كذلك عرفت

(١) رحلة ابن بطوطة ، ج ١ ص ١٧ .

(٢) أبو المعاسن : النجوم ج ٩ ص ٩٢ ، ج ٥ ص ٥٠١ .

(٣) المقرئى : السلوك ، ج ١ ص ٥٠٧ — ٥٠٨ .

(٤) سيرة الظاهر بيبرس ج ٤٩ ص ٢٠ ، السلوك ج ٣ ص ١٦٤ .

(٥) المقرئى : المواعظ ج ٣ ص ٢٤٧ وما بعدها .

(٦) ابن الحاج : المسئل ، ج ١ ص ٢٤٦ ، المقرئى : المواعظ ج ٣ ص ١٣٣ .

(٧) ابن أياس : بدائم الزهور ، ج ٢ ص ٣٤٧ .

(٨) المقرئى : السلوك ج ٢ ص ٧٥٤ ، أبو المعاسن : النجوم ج ٥ ص ٤١ .

القاهرة في ذلك العصر ألعاب البهلوانات والحواة والدبابة الذين يملون بالديبة والقرادة الذين يلعبون بالقروذ^(١) . وهكذا اكتسبت القاهرة في ذلك العصر شهرة واسعة في اللهو واللرح ، حتى أن الناصر ابن صاحب المين عندما أراد العودة إلى بلاده سنة ٧٥٥ هـ بعد أن قضى بمصر بضعة أشهر « أخذ معه كثيرا من الصناعات والساحر وأرباب اللامى^(٢) » .

على أن حب أهل القاهرة للروح واللهو لم يقلل أبدا من للسحة الدينية الواضحة التي انصفت بها القاهرة ومجتمعها في عصر سلاطين المماليك . وحسب القاهرة في ذلك العصر أنها صارت مقر الخلافة العباسية بعد أن سقطت في بغداد على أيدي التتار ، الأمر الذي جعل القاهرة محورا لنشاط ديني فذ ، تشهد عليه كثرة المنشآت الدينية لضخمه مثل الجوامع والربط والزوايا والمدارس وغيرها^(٣) وترجع أفخر العمار الإسلامية التي تزدان بها القاهرة اليوم إلى عصر سلاطين المماليك بالقدات .

ويميل بعض الكتاب والباحثين إلى القول بأن مجتمع القاهرة على عصر سلاطين المماليك كان ذا واجهتين ، أو بعبارة أخرى كان مزدوج الشخصية ، ظاهره التقوى والتدين وباطنه الاثم والفساد . ذلك أن طبيعة المماليك وحكمهم ونظامهم ، فضلا عن روح العصر نفسه ، كل ذلك ساعد على انتشار كثير من الأمراض الخلقية مثل الزنا والشذوذ الجنسي وتماطى الحشيش والخمر والرشوة وغيرها . ومهما يقال من أن مواجهة الانحلال الخلقى سادت بقية البلاد الإسلامية في تلك الحقبة من التاريخ ، فإننا

(١) سيرة الظاهر بيبرس ، ج ٩ ص ٤١ ، المقرئى : السلوك ج ٢ ص ٦٤٢ ،

(٢) للمقرئى : السلوك ، ج ٣ ص ٢٧ .

(٣) سعيد عبده الفتاح عاشور : المجتمع المصرى في عصر السلاطين المماليك ص ١٥٣

وما بعدها .

نرى أن المالك أنفسهم مسئولون إلى حد بعيد عن تفشى الأمراض الخلقية في القاهرة طوال مدة حكمهم لها . فالسلطان برقوق الذى وصفه المؤرخون بحب الخير والعدل واحترام الفقهاء ، لم يتخرج من ارتكاب الفواحش وتقريب « المالك الحسان لعمل الفاحشه فيهم »^(١) ويعبر الميرزى في مكان آخر من كتابته عن هذه الظاهرة الخطيرة فيقول بأنه « نفى في أهل الدولة عجة الكرمان » ، ومن الواضح أنه يقصد بأهل الدولة طبقة المالك بالذات^(٢) أما عن الحشيش فقد انتشر تعاطيه في القاهرة على عصر سلاطين المالك ، وعبر عن ذلك الميرزى بقوله « فشت هذه الشجرة الحبيثة في وقتنا هذا فشوا كبيرا ، وولع بها أهل الخلاعة والسخف ولوها كثيرا وتظاهروا بها من غير احتشام »^(٣) واشتهرت أرض الطبالة بالقاهرة بزراعة الحشيش في ذلك العصر ، كما اشتهر به باب اللوق^(٤) . ولم تكن الخمر أقل انتشارا من الحشيش بين مختلف طبقات الناس في القاهرة على عصر سلاطين المالك . وقد ابتكر بعض أمراء المالك أنواعا مستحدثة من الخمر نسبت إليهم مثل التمر بناوى نسبة إلى الأمير تمرنا والبشتكى نسبة إلى الأمير بشتك ، كما عرف في عصر المالك نبيذ التمر ويعمل من لبن الخيل . وقيل عن السلطان فرج بن برقوق أنه كان أحيانا يشق عوارق القاهرة وهو لا يكاد يثبت على فرسه من شدة السكر^(٥) ! وكان من الطبيعي أن ينتشر شرب الخمر بين عامة المصريين في القاهرة ، حتى أعتبرت الخمر

(١) الميرزى : السلوك ، ج ٣ ص ٥٢٣ .

(٢) الميرزى : المواعظ ج ٣ ص ١٦٩ .

(٣) المرجع السابق ج ٣ ص ٣٠٤ — ٣٠٥ .

(٤) المرجع السابق ج ٣ ص ٣٠٤ — ٣٠٩ .

(٥) الميرزى : ج ١ ص ٦٠٧ ، ج ٣ ص ٧٤١ ، ابن حجر : إنباء الفرج ج ١ ص ٣٨١ .

(٦) أبو المعاسن : النجوم ج ٦ ص ٢٥٠ ، ابن حجر : إنباء الفرج ج ٢ ص ٢٧ .

متممة للمنانى فى الحفلات والافراح (١) . وكذلك انتشر البناء فى القاهرة على عصر
ملاطين المالك ، حتى وقت البناء بالاسواق تحت عين المارة ، واعترفت به
الموتة ففرضت عليهم ضرائب مقررة (٢) .

لا شك فى أن نشو هذه الأمراض وغيرها فى مجتمع القاهرة على عصر ملاطين
المالك إنما كان نتيجة طبيعية لا كتظاظ مدينة كبيرة مثل القاهرة بالسكان، ووفود
نسبة كبيرة من الاغراب إليها ، وقيام طبقة حاكمة حديثة عهد بالاسلام بالاشراف
عليها ، فضلا عن الثروة الكبيرة المناجئة التى هبطت على ذلك المجتمع ولتى اعتبرها
ابن خلدون مسئولة عن تلك الانحرافات (٣) .

ولكن هذه الانحرافات لم تغير أبدا من الطابع العام للقاهرة ، وهو الطابع
الذى عبر عنه للسيوطى فى عصر المالك بأنها « صارت محل سكن العلماء ومحط
رجال الفضلاء (٤) » .

دكتور

سميد عبد الفتاح عاشور

استاذ كرسى تاريخ الصور الوسطى

كلية الآداب — جامعة القاهرة

(١) المقرئى : السلوك ج ٣ ص ٤٢٦ .

(٢) المقرئى : السلوك ، ج ٣ ص ٢٦٩ — ٢٧٠ .

(٣) مقممة ابن خلدون ص ٤١٨ .

(٤) السيوطى : حسن المحاضرة ج ٢ ص ٨٦ .

السلطنة الفتحية الإسلامية

في سودان وادى النيل

بقلم الشاطر بصبلي عبد الجليل

لقد جاءت هذه السلطنة إلى حوض النيل الأزرق بالسودان ، حيث اتخذت لها عاصمة من بلدة سنار التي تقع على مسافة مائة وسبعين ميلا جنوب الخرطوم . واستمرت في إدارة شئونها حتى العام الأول من العشرينات من القرن التاسع عشر . وقد كانت هذه البلدة مقراً لنائب السلطان الفنجي ويرجع اختيارها إلى موقعها على ملتقى طرق ملاحية ومحطة للقوافل التي تسير إلى الحبشة ، وساحل البحر الأحمر . كما تمتد أسفارها إلى داخل السودان .

ومن الواضح أن هذه السلطنة كانت تسيطر على منطقة النيل الأزرق والبطانة من عاصمتها جنوب غرب الأرتيريا حيث كانت تمارس سلطتها وكان السلطان يقوم برحلات عهـرية إلى مختلف نواحي مملكته كما أشار إلى ذلك الرحالة داود روييني (1) . ويبدو أن سبب انتقال هذه السلطنة من مركزها الذي احتلته في الأرتيريا منذ زمن طويل يرجع إلى حالة الحرب بين المسلمين والأجاش والتي نشبت

(1) Adler, Elkan, Jewish Travellers, Broadway, London 1931. See also Hillelson, S., David Reubini, An early Visitor to Sennar, Sudan Notes & Records Vol.XVI, p. 56—66.

لأسباب اقتصادية بحتة ، وقد انتقلت للمارك حتى اقتربت من الإقليم المدى تسيطر عليه السلطنة من الأرتيريا ، ولم يكن هناك بد من الإخلاء والهجرة نحو الغرب .

ومما يؤسف له أنه لم تصلنا وثائق تاريخية أو غيرها عن فترات حكم السلطنة تنطوي قيامها وتطورها ، ربما تكون هناك أشجار الأنساب ، وهذه عمليات روتينية يقوم بها النقباء . وقد وصلت إلينا مخطوطة طليقات ودضيف الله ، التي كتبت في أوائل القرن التاسع عشر ، وجاءت بعدها مخطوطة كاتب الشونة أحمد بن الحاج أبو طي ، الذي كان في خدمة الحكومة الجديدة في الخرطوم وجاءت بعد هذه المخطوطة مخطوطتان لا يعرف كاتبهما : وقد وجدت أكثر من نسخة من هذه المخطوطات تختلف الواحدة عن الأخرى بالإضافة والتعديل والتبديل وهذه المخطوطات قد تم وضعها في زمن غير بعيد حيث جمعت فيها الروايات للتداول . ويجد الباحث أن المعلومات التي جاءت في هذه الوثائق تتناقل كلما بمدت فترة الزمن ونجد أن ذكر السلطان الأوائل لا يزيد عن الإسم وتاريخ اعتلاء العرش والنزول عنه .

وعلى الرغم من كل هذه الجهد فإن مشكلات تاريخية وغيرها ، قد بقيت تطرح نفسها ، أمام الباحثين ، وتشتمل هذه المشكلات أصول البيت السلطاني ، وتطور هذه السلطنة في مراحل اتقالمها ، كذلك عن تظلمات الحكم والعلاقات بين السلطنة والشيوخ للتحدية منها كونفدرالياً عن طريق زعامة العبد اللاب أيضاً ما زالت العلاقات بين السلطنة والحاكم المتأني على ساحل البحر الأحمر عدا ما أشار إليه الرحالة أوليا شلي وهي كلمة مقتضبة لحد كبير لكنها تشير إلى وجود تلك العلاقات :

وليدرو أن كل هذه المشكلات ناجمة عن حقيقة عامة وهي : التي تحصلت بفضل الأخذ بدراسة وصفية للمجتمع وذلك عند دراسة تاريخ السودان ، بوصفه في دار الإسلام ولهذا يتم إجراؤنا للبحث بالكشف عن العلاقة بين أقاليم دار الإسلام في

هذا الجانب من أفريقيا . وقد كانت أقاليم السودان مشغل مركزاً استراتيجياً له
أهميته البالغة في التجارة والقوافل والهجرات التي تمتد طرغها إلى مناطق بيضاء من
داخل القارة ، ومن المعروف أن دار الإسلام تمتد من ساحل شرق أفريقيا وتمتد
إلى الداخل حتى هضبة البحيرات وقد تمتد إلى الغرب وإلى الشمال وتحتل جانباً من
الأراضي التي تتكون منها الحبشة الآن ويقدرها البعض أنها كانت تضم المنطقة
الواقعة جنوب أديس أبابا .

وكما أشرنا أعلاه فإننا نجد أن موضوع أصول البيت السلطاني مادة للنقاش
والجدال في الثلاثينات من هذا القرن وبصورة خاصة على صفحات مجلة السودان
في رسائل ومدونات التي تصدر بالإنكليزية في الخرطوم وقد توقفت هذه المناقشات
بسبب تقاعد الأطراف المعنية من خدمة إدارة السودان . وقد فشلت هذه المحاولات
ووصلت إلى طريق مسدود وقد رلى أن أوصل البحث في هذه المادة ، وقد توفرت لي
ذلك بعد أن عملت بمهد الدراسات السودانية (الأفريقية فيما بعد) بجامعة القاهرة
حيث أمضيت ستة عشر عاماً .

وعملت باهتمام في مراجعة النشاطات السابقة . وكان هدفي أن أجمع للمعلومات
وأضنها للباحثين ، دون أن أسمح لنفسى بإبداء رأي أفرضه ، لأن ذلك ليس في
قدرتي عمله . لأن عرض الحقائق التي أتحقق من صحتها لحد ما كافية للكشف عن
الوضع . فلذلك لا أتحمّل رأياً ولا أستطيع أن أعدل ذلك الرأي أو أتخطئ عنه .

وقد كان على أن اتخذ منهجاً للبحث ، وبمقارنات متباينة ، وجدت أن
المشكلة لا تحل إلا بدراسة تنازلية وأن تمتد تلك الدراسة إلى مناطق أقاليم دار
الإسلام المختلفة ، وقد تتكون لإقامة سلطنة في جنوب غرب الأتريريا كما شهدتها

داود رويني في العشرينات من القرن السادس عشر الميلادي نقطة البداية بالمسيرة
التنازلية . ووجدنا أن نقوش دار الفنج الموجودة على النحاس، الذي نشره
روبنسون (١) لها مغزى هام حيث يغطي الفترة السابقة لقيام السلطنة في الأرتيريا ،
وتعتبر هذه الفترة هي الجسر الذي يربط بين طرفي للمشكلة .

وطى هذا أخذنا بإعداد جدول مرحلي يبدأ من منتصف القرن السابع لليلاي
على الوجه التالي .

للرحلة الأولى من عام ٦١٥ / ٦٥٠ إلى عام ٩٥٠ :

- | | |
|---------|------------------------------------|
| تسمية أ | من ٦٦٠ / ٦١٥ إلى ٧٠٠ م |
| ب | من ٧٠١ إلى ٧٥١ سقوط الدولة الأموية |
| ج | من ٧٥١ إلى ٨٠٠ |
| د | من ٨٠١ إلى ٨٥٠ |
| هـ | من ٨٥١ إلى ٩٠٠ |
| و | من ٩٠١ إلى ٩٥٠ |

للرحلة الثانية من ٩٥١ إلى ١٢٥٠ :

- | | |
|---------|--------------------|
| تسمية أ | من ٩٥١ — ١٠٠٠ |
| ب | من ١٠٠١ إلى ١٠٥٠ |
| ج | من ١٠٥١ إلى ١١٠٠ |
| د | من ١١٠١ إلى ١١٥٠ |
| هـ | من ١١٥١ إلى ١٢٠٠ |
| و | من ١٢٠١ إلى ١٢٥٠ م |

(1) A. E. R., The Fung Drum or nehas, Sudan Notes & Records Vol. IV P. 211—212.

للرحلة الثالثة من ١٢٥١ إلى ١٥٥٠ :

قسمة أ	من ١٢٥١ إلى ١٣٠٠
» ب	من ١٣٠١ إلى ١٣٥٠
» ج	من ١٣٥١ إلى ١٤٠٠
» د	من ١٤٠١ إلى ١٤٥٠
» هـ	من ١٤٥١ إلى ١٥٠٠
» و	من ١٥٠١ إلى ١٥٥٠

للرحلة الرابعة من ١٥٥١ إلى ١٨٢١ :

قسمة أ	من ١٥٥١ إلى ١٦٠٠
» ب	من ١٦٠١ إلى ١٦٥٠
» ج	من ١٦٥١ إلى ١٧٠٠
» د	من ١٧٠١ إلى ١٧٥٠
» هـ	من ١٧٥١ إلى ١٨٠٠
» و	من ١٨٠١ إلى ١٨٢١

وليس في هذا التقسيم ما يشير إلى تكوين وحدات تاريخية غير مرتبطة بل بالعكس هي تصور تاريخي مستمر تضم أحداثاً مستمرة .

ووجدنا بعد القيام بالعملية التنازلية لجمع المعلومات المتوفرة ، أن ضرورة البحث تقتضى عرض الوقائع التاريخية وغيرها في تناسق تاريخي . فإذا افترضنا أن السلطان عمارة وهو السلطان الفنجي الذي انتقل على يديه كرسي الحكم إلى سنار في نهاية الخمسة والعشرين عاماً الأولى من القرن السادس عشر ووجدنا أن والده السلطان عدلان كان متولياً للعرش قبله ، فأخذنا بأن السلطان عمارة قد تولى الحكم في نهاية القرن الخامس عشر ، وباحتمال ولاية والده السلطان في النصف الثاني من القرن

الخامس عشر . وافترضنا عشرين عاماً لحكم الملاطين قبل ذلك ، خلال الفترة بين
حمارة وجده الكبير، نستطيع أن نقول أن الجدل الكبير قد جاء من لولة في أول القرن
الرابع عشر أو آخر الثالث عشر .

وهذا التاريخ يتفق اتفاقاً تاماً مع الحقيقة التي تستند لها المصادر التاريخية أن السلطنة
قد امتدت سيطرتها على إقليمى البطانة والنيل الأزرق وذلك على أثر خروج ملك
علوة السيسى في هجرته إلى الغرب حيث أخذ من بلدة « كوشة الواغلة » وقد بقي
هناك بعض الوقت ولا يعلم مصيره . ويتمتع أنه قد استمر في سفرته نحو الغرب ،
ويحتمل وصوله إلى الأقليم المعروف الآن بسيراليون حيث توجد هناك جالية من
المهجرين من إقليم الجزيرة السودانية وهم الكسو Kasa ويعرفون الآن بالكسى
Kiss (١٢) ، ويجدر بالباحثين الاهتمام بهذه الهجرات وهي التي قام بها :-

(أولاً) هجرة ملك مرو (في القرن الثالث الميلادى) .

(ثانياً) هجرة قبائل السجون من البطانة إلى الغرب (في القرن الرابع لليلادى) .

(ثالثاً) هجرة ملك علوة إلى كردفان والغرب في القرن الثالث عشر .

(رابعاً) هجرة قبائل سودانية في مقدمتها الكسو Kasa من الجزيرة إلى الغرب

وتحديد تواريخها .

(١) لعمر الدكتور إيرلبر Eber Eiber النمساوى مقالا عن مشاهداته في سيراليون
وأشار إلى هذه المجموعة السودانية الـ Kissi ولم يعر بطبيعة الحال إلى الوطن الأول لهذه
القبيلة . ولقد حققنا ما نبحثه مقالته ومقارنته مع ما ذكره بن سليم الأسوانى . وقد اتصل به
المؤلف فلم أنه قد كتب عددا من المقالات في دوريات الدول الاسكندنافية والدكتور إير هو
طبيب تفریح كان يعمل في غرب أفريقيا في دراسة للتطور بين القرود . وقد توفي
في الأربمنت .

ويجدر بنا قبل اعطاء صورة عن تطور المجرات الفصحية في الفترة من منتصف القرن السابع حتى القرن الثالث عشر، أن نوضح بعض المصطلحات الخاصة بالفصح .
 فلفظ الفصح الذي يطلق على هذه السلطنة ، نجد أن صورته الصوتية بكسر الفاء وسكون الهمزة ونون الجيم (فصح) وهو اللفظ القبي ينطق به في الوطن الأول الفصحية التي تسكن وادي النيل في عمان ، ولفظ «دوتيس» وهو لفظ أثيوبي يتكون من دو وهي في الأصل Djaz و منها عظيم أو كبير . ولفظ تقس Nogs لسانها النجاشي .
 ومعنى هذه الكلمة في مجموعها النجاشي الكبير .

وفي الختام هذا هذا اللقب ما يشير ضمناً إلى عابق علاقة بين الفصح والحبيشة ، ولفظ ملك وهو اللفظ المحلي في السودان الذي يطلق على مستوى معين من العادات وهو بين السلطان أو الملك ، وأصل هذا اللقب يرجع إلى شرق أفريقيا حيث يستخدم كلقب للزيم وبعضها في الصورة الصوتية فيقال Maku أو Mku أما جبهة المصح وصحتها الهامق والهج نقل عن المصادر الاجنبية ومعناه الترحش أو البدائي ، ونظ الهامق ما زالت تعرف به جماعات في بربر ودنقة .

وهناك أيضاً جماعة الأونساب ، وتأتي هذه المجموعة في الرتبة الثانية بعد بيت الفصح حيث تحتم التقاليد والعادات في السلطنة أن تكون زوجة السلطان للتخيم من هذه الجماعة وأن هذه الزوجة لا بد لها من مشاركة زوجها في خلوته التي يجب أن يمر بها قبل ولايته للحكم . وهذه فيما يبدو لنا نقطة هامة جديرة بالبحث لأنها فيما يبدو تدوريتها السلطنة في ظروف محلية في موطنها الجديد أي في الإثيوبيا ولا شك كان في ذلك التصيب الأكبر المظاهرة التي جعلت من الأونساب وهم خؤولة السلطان حكاماً . وتأتي بعد هؤلاء الهامق (الذين يعرفون في كتب المؤرخين بالههج) وقد كان وزراء السلطنة من هذا البيت أي بيت الهامق ، ويعرف الانساب أيضاً

بيت عين الشمس ، ولا شك في أن ضرورة الاعتكاف للسلطان للتخبط وزوجته
من عين شمس تقليد مأخوذ عن مصر القديمة .

ونتقل الآن إلى قضية الفنج ومراحل تطور حكمهم منذ القرن السابع الميلادي ؛
أى أن يعود البحث إلى السير في ترتيبه التاريخي بعد أن تمت عملية البحث التنازلي
وتركز اهتمامنا في هذا البحث بمرحلة دخول الفنج إلى أفريقيا وتطورهم قبل القرن
الرابع عشر .

هاجرت جماعة من إقليم عمان مع مجموعات أخرى من العرب إلى ساحل شرقي
أفريقيا ، وذلك بعد ظهور الدعوة إلى الإسلام ، طلبا للرزق . وقد ورد ذكر هذه
الجماعات في مخطوطة تعرف بكتاب الزوج نشرها تشيولي في كتابه صوماليا^(١) . فقد
ورد في المخطوطة (صفحة ٢٣٦) « كان أهلها من طيوى وفنج . فمن فنج التي بمان
وواسين عربية أصلية ، وواسين اعنى حزن هو معناه ، لأن أهل فنج كانوا يجيئون
الناس هناك وكانوا يجيئون بالسفائن واللواشى غالبهم وبالبر ، كانوا يجيئون
لأجل الحرب من سواكن وبربره . . . » وللقصود بالحرب هنا ممارسة القرصنة في
الجانب الأفريقي - خليج عدن والبحر الأحمر . وتغير الموقف بعد وصوله قوات
الحليفة الأموي عبد الملك بن مروان ، الذي تولى الخلافة (من عام ٦٦٤/٧٠٥م) ،
إلى ساحل الزنج حيث اتخذت قاعدة لها في جزيرة لامو .

(1) Cerulli, Enrics, Somalia. Vol. I., Roma 1957, Page 233/251 and Itabal Transtalion p. 253/325.

(2) Shaibu Faraji Bén Hamed al Bakariy al Lamuy : Khabar al Lamu, a Chronichle of Lamu, transtiterated and Transtated from the Surahili script and annotated of William Hichens, in Banu Studies Journal vol. I deel XII Maeh 1938 p. 8 ff.

وقد كان اهتمام الامويين بعد نزولهم إلى ارضييل اللامو ، موجها إلى النشاط التجاري ، فأنشأوا عددا كبيرا من الموانئ للتجارية على الساحل الأفريقي الشرقي ، وشجعوا التجارة بين الشاطى وداخل القارة (١) ويبدو أنه قد أحدث في فترة سيطرة الامويين ، على ساحل شرق إفريقيا من مركز رياستهم في اللامو ، قد حدث مصاهرة بين جماعة فننج والامويين في اللامو ، وقد يؤيد ذلك ما جاء في مخطوطة كاتب الشونة (نسخة القاهرة) حيث يقول « ما جاء في ذكر نسب الفننج قبل أنهم من بنى أمية لما انتزع منهم الملك وهرتهم (كذا) بنو العباس جاء منهم رجلان إلى هذا المحل وأستولدوا للنساء وأن الفننج من نسلهم وقيل غير ذلك » . (٢) أما القول بأن الأمويين قد دخلوا إلى السودان بعد سقوط دولتهم عن طريق الشمال ، وجاء في هذه الرواية أن ابني مروان بن محمد ، آخر الامويين وهما عبد الله وعبيد الله هريا في نحو الفين من اتباعهما لبلاد النوبة سنة ٧٥٠ م ، ولم يسمح لهما ملك النوبة بالبقاء في بلاده بعد أن دار بينهما وبين النوبة نقاش حاد . وتقول الرواية انهما عادا إلى الحجاز عن طريق باضع . . . فسير أن هذه الرواية من نسج الخيال لأنه لا يوجد ما يدعمها .

وقد جاء الوقت الذي يتحتم علينا فيه العمل على تنقية التاريخ القومى من هذه الاساطير . وعلى أى فقسد بقى الفننج في اللامو مع الامويين حتى نهاية دولتهم في عام ٧٥٠ م . ولم تتوفر لدينا أية معلومات مسيرة الاحداث بين نهاية دولة الامويين حتى القرن الثالث عشر أو الرابع عشر . وقل ما هنالك الذى نستطيع أن نفترض بصحته أو الاخذ به وهو نقوش نقارة الدار الفنجية التى نقش عليها .

(1) Stigand, C.H., the Land of Zing, London 1913 p. 113 ff, See also Prins, A.H.J. the Coastal Tribes of the North Eastern Banta London 1952.

(٢) مخطوطة كاتب الشونة — لأحمد بن الحاج أبو على تحقيق الشاطر بصيلى عبد الجليل

تجارة الدار نقارة السلطان
عمارة بين السلطان جدلان
جدم الكبير الجاه (١) من بول
نصره الله السلطان بادي من السلطان نول (٢)

وقد حدثت تغييرات هامة بعد نهاية الدولة الأموية وقيام المبسين فقد اشتمت التجارة في النوازل ، واتسمت رقمنة النشاط الاقتصادي في مختلف بقاع القارة الأفريقية حيث دخل للنامرون من العرب إلى داخل القارة وعملوا في التجارة والمدن واسسوا المدن في النقاط الاستراتيجية . وجاءت أيضا جماعات من النبهانيين والزر وعيين واسسوا بيوتا تجارية أو بمعنى أدق نقابات . واسسوا المدن ولوان وادخلوا تمديلات كبيرة على المجتمع . وعملوا على نشر الاسلام ، الأمر الذي أوكل إلى الفقهاء بطرق مسيرة وأنشأوا دور التعليم وللزارح لتعليم السكان المحليين للاخذ بهما وأدخال الزراعات الجديدة .

وبمنا التعرف على مسيرة النج من مواطنهم في الامو بعد سقط الدولة الأموية وقد ارتبطوا بها ارتباطا وثيقا . فهناك احتمال أو افتراض خروجهم من الامو إلى الشمال عن طريق البحر . وعلى هذا فقد أخذنا بتقسيم الزمن فترات قد تبلغ الثلاثة قرون من الزمان . وتمتطيع أن نتعب هذه المرحلة بالبحث عن مختلف السلك . فيحتمل أنهم قد تنقلوا عبر البلاد الشمالية إلى الصومال وإقليم سلطنات الطراز الإسلامي . ويحتمل أيضا أنهم قد انتقلوا عن طريق البحر الأحمر إلى أحد ميناءين في الحبشة والارتريا

بعض المصادر التي ذكرنا في هذا الموضوع هي :
1- A. E. R. the Fung Drum or Nehas, Sudan Notes & Records vol. IV p. 211-212.
(١) الجاه = الذي جاء .
(٢) A. E. R. the Fung Drum or Nehas, Sudan Notes & Records vol. IV p. 211-212.

(١) الجاه = الذي جاء .
(٢) A. E. R. the Fung Drum or Nehas, Sudan Notes & Records vol. IV p. 211-212.

أولها ميناء عدى والثالثه ميناء مدر ويني هذا الافتراض على وجود مقابر
صندوقية (١) كثيرة المدد وهي للقابر التي اعتاد أن يستخدمها الفنج لدفن موتاهم
من الملاطين ومن في درجهم . وتمتد هذه للقابر الصندوقية حتى خور بركة
في الارتريا .

وتواجه الباحث أيضاً مشكلات تطرح نفسها لتحديد العلاقة بين السلطنات
الحلية التي كانت قائمة وبين الفنج أو الفنج قبل تكون سلطنتهم فقد كانت هناك سلطنة
الديجون التي حكمت لفترة طويلة وامتدت سيطرتها حتى عيذاب في الشمال . ونعلم
أنها كانت محكومة بسلاطين من النساء منها للكة صديقه ، وتعلم أيضاً أخت الملك
مكز للسماة قميوه دوكت الوصاية على ابنه .

ولا شك في أن البحث عن هذه السلطنة الفنجية في مرحلة تكوينها موضوع له
أهميته البالغة فهي أيضاً تكشف عن نشاطات العرب والمسلمين في هذه الجهة
من أفريقيا .

(1) Kammerer, A., La mer Rouge, L'abyssinie et
l'Arabie aux XVII Seconde Partie XVII p. 315,
p. 300—36.

obeykandi.com

www.obeykandi.com

مراجع البحث ومصادره

ابن بطوطه : رحلة

السعودى : مروج الذهب

كتاب التزويج بكتاب صوماليا لمؤلفة تشرولى طبع روما الجزء الأول
أحمد بن الحاج أبو على : مخطوطه كانت الشونه تحقيق الشاطر بصلى عن اكليل
لقاهره سنة ١٥٦١

Arkell, A.J., Cambay and Bead Trade : Antiquity
X, 1936.

Axelson, E., South East Africa, 1940.

Badger, E., History of the Immams and Seyyids
of Oman, 1871.

Freeman-Grenville, G.S.P., The Medieval History
of the Coast of Tanganyika, 1962.

Kamerer, A., Le Mer Rouge, l'Abyssinie et
l'Arabie, Caire.

Prinns, A.H.J., The Coastal Tribes of the North
Eastern Bantu, 1952.

Sergeant, R.B., The Portuguese off the South
Arabian Coast, 1963.

Shaibu Faraji bin Hamed Al Bakariy al Lamy,
Khabar al Lamu, translation by Hichens, Bantu
Studies Journal, XII, No. I, 1938.

Stigand, C.H., The Land of Zing, 1933.

Strandes, J. The Portuguese Period in East Africa.

جرترود بل

أداة الاستعمار البريطاني في العراق

دكتور محمود حسن صالح صهي

تكاد الأضواء تسلط على (ت . ا . لورنس) T.E. Lawrence وحده دون غيره ممن قاموا بتنفيذ مخططات بريطانيا في الشرق العربي خلال الحرب العالمية الأولى والسنوات التالية لها ، إذ حظى دون غيره بكل الاهتمام سواء من جانب مادحيه أو قادحيه ، فقد كتب الكثير عن نفسه وعن نشاطه ، كما ظهرت مؤلفات عديدة عنه ارتفع في بعضها إلى مرتبة الاسطورة الخارقة .

ومع ذلك فقد حفظت لنا مجلات التاريخ أسماء شخصيات أخرى لا يقل دورها أهمية وخطورة عن دور (لورنس) ، ومن هذه الشخصيات (جرترود بل) التي ظهرت على مسرح الأحداث أثناء العمليات الحربية والحوادث الخيانية المرتبطة بالعراق مثلما ظهر (لورنس) على مسرح الأحداث أثناء العمليات الحربية والحوادث السياسية للرتبطة بالحجاز والشام .

ولما كان لم يصدر عنها مؤلفات كما حدث (لورنس) فإن مصدرنا الوحيد عن نشاطها تلك الرسائل التي كتبها لعائلتها وأصدقائها ، وقد نشرت زوجة

والدها - ليدي بل - مجموعة من هذه الرسائل في عام ١٩٢٧ ، وبعد عشر سنوات نشرت شقيقتها مجموعة أخرى، إلا أنه يؤخذ على هاتين المجموعتين أنهما حذفنا منها ما وجدت الناشرتان حرجا في نشره . ثم جاءت (اليزابث بيرجين Elizabeth Burgoyne) وهى مدرسة إنجليزية للموسيقى فنشرت مجموعة ثالثة من الرسائل في جزئين صدر أولهما عام ١٩٥٨ ويضم الرسائل التى كتبتها جرترودىل بين عامى ١٨٨٩ و ١٩١٤ وصدر ثانيهما فى عام ١٩٦١ يكمل قصة حياتها لأنه يتضمن رسائلها منذ عام ١٩١٤ حتى وقتها عام ١٩٢٦ ، وهذا الجزء الأخير هو عمدتنا فى كتابة هذه الدراسة عن جرترودىل بالإضافة إلى بعض المصادر الأصلية التى تناولت تاريخ العراق وبخاصة الوثائق البريطانية .

حياتها الأولى :

ولن يتسع الحديث هنا عن حياة (جرترودى) الأولى سوى أنها ولدت عام ١٨٦٨ فى عائلة أرستقراطية ، ودرست التاريخ فى جامعة أكسفورد ، ولذلك كانت (جرترودى) - شأنها شأن (لورنس) - تهم بالتاريخ والآثار ، وابن نجد كنوزها إلا فى الشرق ، فولت وجهها شطره باحثة فى آثاره ، فزارت طهران وجاست خلال إيران وتعلمت اللغة الفارسية حتى ترجمت ثلاثين قصيدة من ديوان حافظ الشيرازى . وفى طهران التقت بجهبا الأول (هنرى كادون) الذى كان يعمل سكرتيرا أول بالسفارة البريطانية لكنه مات بعد قليل ، أمامها الكبير فكان لضابط بريطانى (دوتى - ويلى) الذى فقد حياته هو الآخر فى إحدى معارك شبه جزيرة غاليبولى فى إبريل عام ١٩١٥ ، وهكذا قدر (لجرترود) أن تقضى بقية حياتها عانسا .

وفي ديسمبر عام ١٨٩٩ - وفي أثناء رحلة لها حول العالم - استقرت بعض الوقت في القدس وبدأت تدرس اللغة العربية . وفي مارس من العام التالي قامت برحلة عبر صحراء الأردن لتعرف على قبائلها ، وكانت تعيش مع البدو وتسر معهم وتأكل بيدها من إناء واحد معهم وتزيت بزى عربي وعقدت صداقات مع شيوخ جبل الدروز ، ثم اتجهت إلى دمشق وعبرت بادية الشام إلى تدمر ثم إلى لبنان في طريقها إلى وطنها .

وعادت جرزود إلى الشرق عام ١٩٠٢ حيث تابعت دراسة اللغة العربية ، كما زارت الشام عام ١٩٠٥ وبعدها كُتبت مؤلفها : سورية - الصحراء والأرض الزراعية Syria-The Desert and the Sown الذي صدر في عام ١٩٠٨ ولم تلبث أن عادت إلى الشرق عام ١٩٠٩ فزارت حلب ودمشق وكربلاء وآثار بابل، وبنداد وواصل وقرقيش حيث التقت (بلورنس) مع الاستشرق دكتور (هوجارث) .

وفي عام ١٩١٣ قامت برحلة من دمشق عبر صحراء النفود إلى حائل وعادت عن طريق بنداد وتدمر، وقد رسمت للأماكن التي مرت بها خرائط تفصيلية يئنت عليها الكثير من المعلومات عن القبائل وأماكن الماء ، وقد منحتها الجمعية الجغرافية للسلكية ميدالية ذهبية .

من هذا تتضح لنا اللؤهلات التي رشحت (جرزود) لسكى تدخل في خدمة السياسة والمخابرات البريطانية ، لنؤدى دوراً سياسياً هاماً على مسرح الأحداث في الشرق العربي ، حيث قامت بجولات على مدى خمسة عشر عاماً تملت فيها اللغة العربية حتى لقد سحرت العرب بعلاقتها على التحدث بها ، وتعرفت على القبائل العربية الضاربة في البادية وجالست شيوخها ووثقت صلاتها بهم وعرفت كل شئ من مضاربهم .

وعندما نشبت الحرب العالمية الأولى في أغسطس (آب) ١٩١٤ كانت جرزود في إنجلترا ، وقد كتبت في سبتمبر (أيلول) من العام نفسه تقريراً إلى الكابتن ديدس Deedes في إدارة العمليات العسكرية الذي رفعه بدوره إلى سيراودا جراي Ed. Grey وكيل وزارة الخارجية البريطانية ، وقد شرحت جرزود في تقريرها الحالة السياسية في شبه الجزيرة العربية والشام بما كان له أكبر الأثر على المسؤولين الذين كانوا يخططون للسياسة البريطانية ، لا بوصفه عرضاً للشخصيات والجماعات والاتجاهات السياسية في الأقاليم العربية من الامبراطورية العثمانية وحسب ولكن لأن التقرير تضمن أيضاً رد الفعل المتوقع في هذه المنطقة في حالة دخول الدولة العثمانية الحرب ضد بريطانيا ، وقد أوضحت جرزود في هذا التقرير حاجة سالم بن مبارك الصباح شيخ الكويت ، وخزعل خان شيخ الحمرة وابن سعود أمير نجد إلى حماية بريطانيا ضد الترك .

وإلى جانب ذلك فقد اعربت جرزود عن اعتقادها بأن السوريين وخاصة في الجزء الجنوبي من الشام (فلسطين) - واهميتها لمصر معروفة - يميلون إلى بريطانيا ، وأن هذا الشعور قد تضاعف بسبب الكراهية التي يكنها السوريون للنفوذ الفرنسي .

أما في بغداد ، فقد كانت جرزود ترى - كما جاء في تقريرها - أن كفة المصالح البريطانية ترجع كفة للمصالح الألمانية ، وذلك لأهمية العراق بالنسبة للهند . وتضيف جرزود أن السيد طالب النقيب مصدر للتتابع ، وهو لم يتلق عوناً منا ، ولكن نجاناً كانوا على علاقات طيبة معه ، والكويت يعتمد في حياته علينا ، أما ابن سعود فإنه يتوق للحصول على اعتراف منا ومن الممكن كسبه كعليف

لنا ، واعتقد أنه يمكننا أن نحيل الخليج إلى منطقة ساخنة بالنسبة للترك . وليس هناك أحد من الزعماء يحب الحكم التركي ، ويتمتع كل من الزعيمين المرينين عبد القادر باشا في بغداد والسيد طالب في البصرة بنفوذ كبير في إقليمه يفوق نفوذ الباشا التركي كما أن شيخ الحمرة عامل له أهميته وهو حليف لنا ، وإذا حدث أن دخلت تركيا الحرب ، فإنه من الممكن أن ينتهز الوجوديون العرب هذه الفرصة للتخلص من الحكم التركي ، وليس من المرجح أن يبدأوا هذه الخطوة ولكن ليس من الصعب توجيههم هذه الوجهة .

أما للمشكلة بالنسبة لسوريا فهي أن الفرنسيين قد احتجزوها لانفسهم على الرغم من أن الشعب — كما تقول جرتروود — يريد بريطانيا لفرنسا .

وقد أشار ديدس عند قدم هذه الرسالة لرؤسائه إلى أن ماورد بها « أكدته تماما التقارير التي يبعثها للفتشون البريطانيون في الأقاليم المرية » . (١)

ولاشك أن تقرير جرتروود صادف هوى في نفس المسؤولين البريطانيين وخاصة في حكومة الهند ، الذين كانوا يبدون الاهتمام بالعراق والخليج قبل نشوب الحرب العالمية بفترة غير قصيرة . ولم يكن اهتمام البريطانيين بالعراق وليد هزوف الحرب العالمية الأولى وحسب وإنما كانت بريطانيا أكثر الدول الأوروبية اهتماما بهذا التطور أثناء القرن التاسع عشر خصوصا بعد أن صارت بريطانيا تواجه خطر سياسة ألمانيا في الاتجاه نحو الشرق Drang Nach Osten تلك السياسة التي أثارت قلق الحكومة البريطانية وخوفها من وصول النفوذ الألماني إلى المحيط الهندي عبر العراق والخليج ، ولذلك أسرع بريطانيا بإغلاق الطريق في وجه النفوذ الألماني بإبرام اتفاقيتها المعروفة مع شيخ الكويت في عام ١٨٩٩ ، فقد كانت بريطانيا تعتبر النفوذ الألماني أشد خطرا من النفوذ الروسي ، واشتط سخط بريطانيا لأن منافسا كبيرا

يتوغل في مجال بريطانيا التجارية، ويقيم نفسه مواجهة مستمرة «بحسبنا الجميع على امتلاكها (٢)

وإذا كان للشروع الألماني لمد خط سكة حديد بغداد سبباً من أسباب الحرب العالمية الأولى فإن ذلك يرجع إلى أهمية السياسة أكثر مما يرجع إلى الأهمية الاقتصادية وإلى جانب ذلك فقد كان للمراق أهمية أخرى ألا وهي مجاورته لحقول النفط في إيران وخاصة عبادان حيث كانت توجد أعظم مصافي النفط البريطانية ، حتى أنه قبل إعلان الحرب رسمياً على الدولة العثمانية تواترت الاخبار عن احتمال قيام الترك بالمجموع على عبادان ، وكان من الممكن وصول القوات التركية إليها من البصرة

وإلى جانب ذلك فقد كان من رأى لورد كرو Crowe وزير الهند أن أهم ما كانت تستهدفه الحملة البريطانية على العراق هو التأثير المعنوي على الشيوخ العرب (٣) فقد كانت بريطانيا ترغب في تقوية مركز الزعماء العرب المواليين لها في منطقة الخليج مثل شيخ الحمرة وشمس السكويت وابن سعود وشهد أزرهم بتقديم دليل مادي على قوة بريطانيا يهدى من روع هؤلاء الحكام الصغار في مواجهة الدعوة للجهاد والتي كان ينتظر أن يعلنها الخليفة العثماني ضد دول الرفاق . وقد تأكد هذا فيما جاء في خطاب اسكويت Asquith رئيس الوزارة البريطانية وقتئذ أمام مجلس العموم البريطاني في الثاني من نوفمبر (تشرين ثان) ١٩١٤ من أن الهدف من إرسال قوة إلى العراق «هو ضمان حياد العرب وحماية مصالحنا في الخليج وحماية حقول النفط وعلى العموم المحافظة على هبة بريطانيا في الشرق» (٤).

وفي ١٦ أكتوبر (تشرين أول) غادرت قوة الهند يومباي بقيادة البريجادير جنرال دالمان Dalmain وكانت التعليمات المصادرة إليه تنص على حماية أنابيب

النفط الى الأهواز ومصافيه في عبادان وتأكيد معونة بريطانيا للزعماء العرب المحليين ضد الدولة العثمانية وفي ٢٣ أكتوبر تم احتلال جزيرة البحرين وانخضت قاعدة عسكرية للحملة، وفي اليوم التالي لدخول الدولة العثمانية للحرب ضد بريطانيا نزلت القوة الى البر عند الفاو حيث يصب شط العرب في الخليج (٥) .

وتوالى الامدادات من الهند، وبعد سلسلة من الاشتباكات مع القوات التركية استطاعت القوات البريطانية القادمة من الهند بقيادة الجنرال باريت Barrett احتلال البصرة في ٢٢/٢٣ نوفمبر (تشرين ثان) ١٩١٤ حيث أذاع صير برسي كوكس Percy Cox كير الضباط السياسيين المراقبين للحملة بياناً بالفتنة العربية أعلن فيه أن الحكومة البريطانية على الرغم من حالة الحرب القائمة بينها وبين الدولة العثمانية — لا تحصل ضئيلة للاهلين ، وأنهم سوف يتمتعون بالحرية والمدالة في ظل العلم البريطاني والإدارة البريطانية طالما وقفوا موقف الحياد بين القوات البريطانية والتركية وامتنعوا عن حمل السلاح ضد بريطانيا. (٦)

وقد بدأت جرترود أعمالها في الحرب في الجبهة الغربية وذلك بتسجيل الجرحى والمفقودين ، وحتى في أثناء عملها هذا لم تكف عن التفكير في الشرق العربي عامة والعراق خاصة ، ففي ديسمبر (كانون أول) ١٩١٤ كتبت تمبر عن امنيتها في أن تتواجد في العراق ، وشوقها لسماع نبأ احتلال القوات البريطانية لبلادها واخذت تكتب إلى معارفها تطلب موافقتها باخبار حملة العراق .

ومع بداية نوفمبر (تشرين ثان) ١٩١٥ فتح أمام جرترود باب الشرق ، فانه نظرا لمرتها بقبائل شمال شبه الجزيرة العربية صار من الممكن الاستفادة من جرترود ومعلوماتها ، وتأكد دكتور دايفيد هوجارث أن صلواتها ستكون

مفيدة للغاية ، وعندما ابرقت القاهرة إلى لندن تستدعى جرتروود ، لم تضيع جرتروود وقتابل اسرعت إلى القساهرة ، ثم كتبت إلى زوجها ايها لكي توافيها بكتيبها وخراطةها التي كانت تعتقد أنها ستكون في حاجة إليها في عملها الجديد .

وفي القاهرة التقت جرتروود بكل من هوجارث ولورنس ، وكان عملها في البداية يقتصر على تزويد سجلات المخابرات البريطانية بالمعلومات عن القبائل العربية وشيوخها واعدادها ، وهو عمل كانت مؤهلة له ولا ينافسها فيه أحد .

رأى جرتروود في أماني الشريف حسين وأطماع فرنسا :

ومنذ نشوب الحرب بين بريطانيا والدولة العثمانية ، صار للشولون البريطانيون يفكرون في اسهل الوسائل لانزال المزعجة بالدولة العثمانية ، وأدركت بريطانيا أهمية الدور الذي يمكن أن يلعبه عرب المشرق العربي الاسيوى في الصراع الدائر ، خاصة وقد سبق أن أبدى هؤلاء بعض مظاهر السخط على الحكم التركي ، فكان من الطبيعي أن تحاول بريطانيا النيل من الامبراطورية العثمانية مستخدمة رعاياها للعرب ، وقد قدر البريطانيون الاهمية العسكرية لقيام ثورة ضد الاتراك في أقطار المشرق العربي ، فأرمت بريطانيا الاتفاق مع الادريسي في عمير في أبريل (نيسان) سنة ١٩١٥ ، ومع ابن سعود في نجد في ديسمبر (كانون أول) من العام نفسه ، إلا ان أهم اتفاقات بريطانيا مع زعماء العرب كان اتفاقها مع الشريف حسين بن علي أمير مكة الذي وقع عليه اختيارها لقيادة ثورة العرب ضد الدولة العثمانية لاسباب عسكرية وسياسية وخصوصا مواجهة الدعوة إلى الجهاد بخلسق زعامة دينية تنافس الخليفة العثماني وتضمف مركزه بين المسلمين .

وعلى الرغم من أن غاية ما كان يصبو إليه الشريف حسين هو ضمان استقلاله

التام في الحجاز فإنه لم يلبث أن اتسعت آماله لتكوين دولة عربية تضم بلاد الشرق
العربية الآسيوية (٧) خصوصا وأن القوميين العرب للمركزين في الشام في ذلك الوقت
كانوا هم أيضاً يبحثون عن زعامة دينية تقود ثورتهم ضد الترك حتى لاتوصم حركتهم
بالمروق ، والخروج على طاعة خليفة المسلمين ، وذلك بعد أن ضجوا من عسف
أحمد جمال باشا في الشام ونصب المشائق التي راح ضحيتها الرميل الأول من الشهداء
العرب الذين اعدموا في ساحة البرج ببيروت في الحادي والعشرين من أغسطس (آب)
١٩١٥، إلا أن الزعماء الوطنيين العرب — وقد اجتمعوا على الثورة ضد الترك بالاعتماد على
مساعدة بريطانيا واتفقوا على تولى الشريف حسين زعامة هذه الثورة — قد وضعوا
عظماً يتضمن المطالب التي أرادوا أن تكون أساس مفاوضات الشريف حسين مع
بريطانيا ، وقد عرف هذا المخطط باسم بروتوكول دمشق ، وأهم ما جاء فيه تلك
الحدود التي طالبوا بأن تتعرف بريطانيا باستقلال الأقطار العربية الواقعة بداخلها
والتي كانت تشمل الشام بحدودها الطبيعية والمراق بكل أقاليمه ، وشبه الجزيرة
العربية .

وبدأت للباحثات بين الشريف حسين والمسؤولين البريطانيين في القاهرة وهي
المروفة بمراسلات الحسين مكماهون منذ الرابع عشر يوليو (تموز) ١٩١٥ ، إلا
أن الحكومة البريطانية حاولت الارتبط — في الاعتراف باستقلال العرب —
بالحدود التي نص عليها بروتوكول دمشق ، وطالب بها الشريف في رسالته الأولى إلى
مكماهون ولكن الشريف الح في رسالته بتاريخ ٩ سبتمبر (أيلول) ١٩١٥ على
ضرورة تسليم بريطانيا بالحدود التي يطالب بها العرب .

وفي مواجهة مطالب الشريف ، وادعاءات فرنسا حليفة بريطانيا أبدت جرترود
رأبها في أطماع كل من الشريف وفرنسا في التقرير الذي بمث به في ٢٠ ديسمبر
(كانون أول) ١٩١٥ إلى لورد روبرت سسل فقد ذكرت :

(أنه قد أديرت للمفاوضات مع الشريف بمهارة ، وطالما أنه في استطاعتنا اجتدابه والإبقاء على صلته بنا فلاخوف من قيام حركة دينية كبرى ، فانه هو الشخص الوحيد الذى يستطيع إثارة حرب دينية مقدسة ، أما الترك الذين يدعون إلى هذه الحرب بإيماء من الألمان فإنهم لايقدرون على الإقناع بها هذا العام قدرتهم عليه في العام الماضى .

والمشكلة هي هل نستطيع المحافظة على ارتباط الشريف بنا ؟ من المعلومات التى لدينا يبدو أنه قد صار يحتل مركزا مرموقا في شبه الجزيرة ، ولكن قوته روحية وايدت عسكرية ، وإذا تقدم الترك من الشام جنوبا بقوة كبيرة فإنهم يستطيعون الضغط عليه وهو لايقوى على مقاومة هـذا الضغط ولاشك في أنه من المحتمل أن يتهاوى أمام خليفة الدولة العثمانية . وفي الوقت نفسه فإننا نلقى ضغطا وصعوبات من جانب الفرنسيين وحكومة الهند ، والشريف على حق - كما اعتقد - في رفض بحث المسألة الميرية منفصلة عن بقية الاقطار ، لأن الصحراء لا تكفى نفسها ، ولذلك فإن من يسيطر على الاسواق في الاقاليم الزراعية يجب أن يسيطر على البدو وسكان الواحات ، وقد ظهر الشريف معقولا ، ومن الممكن أن نصل إلى اتفاق ، ولكن ليس على أساس التنازل عن كل سوريا ، وأن المطالب التى قدمها يكومؤخرا تجعل سوريا الفرنسية تمتد من البحر المتوسط إلى دجة ، ومن الحكمة أن نمد للفرنسيين جبل الأمل ، وعندما تحين لهم فرصة بحث إدارة سوريا بهذا الامتداد فمن المحتمل أن يتبينوا أنها عمل اكبر من استعدادهم للقيام بأعبائه ، ولكن غزل الحبال الطويلة يحتاج إلى وقت طويل ولايتوفر هذا الوقت حاليا .

إن حركة عربية قوية إذا أقيمت على قدميها فقد تطرد الفرنسيين من شمال

أفريقيا بمثل سهولة التي تطردنا بها من مصر . واعتقد أنه يجب على الفرنسيين أن
يقنموا بالاسكندرونه وكليكية بالاضافة إلى لبنان وبيروت .

ويتمثل ضعف هذه الفكرة في أن العرب لا يستطيعون حكم أنفسهم بأنفسهم
ولا يوجد أحد مقتنع بهذا أكثر مني ، وعندما يلجأ إلينا العرب طلباً للمون - وهذا
ما سيفعلونه - فإن الفرنسيين لن ينظروا إلى ذلك بارتياح (٨).

رحلة جرترود إلى الهند :

لقد كان للسولون البريطانيون عن الشرق للعربي فريقين : فريق الساسة
والمسكرين للتمر كزين في القاهرة ويتبعون دار للندوب السامي البريطاني وأطلق
عليهم اسم للدرسة المصرية أو مدرسة القاهرة ، وفيما بعد أطلق عليهم اسم للكتب
العربي Arab Bureau وكان هذا الفريق يضم عدداً من الخبراء بالشئون العربية
مثلت. أ. لورنس، رونالد ستورز Ronald Storrs وجلبرت كلايتون Gilbert
Clayton وجورج هوجارث G. Hogarth وجرترود بل أما الفريق الآخر فكان
مركزه الهند ولذلك كان يسمى بالمدرسة الهندية ، وتزعم هذا الفريق سيربرسي
كوكس Percy Cox وارانولدولسن Arnold wilson والسكاين شيكسبير
Shakespear وعلى الرغم من اتفاق للدرستين على أهمية الأقطار العربية ومواردها
باللسبة لبريطانيا أثناء الحرب العالمية الأولى إلا أنه كان ثمة خلاف كبير بينهما ، فبينما
كانت مدرسة الهند تهتم في اللقام الأول بالعراق وإيران وثروتها النفطية وكذلك
منطقة الخليج العربي، فإن مدرسة القاهرة كانت تهتم بقناة السويس وكل ما من شأنه
حمايتها ، وعلى الأخص بلاد الشام، تنفيذاً للسياسة التي رسمها كاتشتر منذ كان معتمداً
بريطانياً في مصر (٩) .

وإلى جانب ذلك فقد كانت مدرسة الهند تعتقد أنه في استطاعة الحلفاء عامة

وبريطانيا خاصة إحراز النصر في الحرب العالمية دون الاستعانة بالعرب ودون الاتجاه إلى إثارتهم ضد الترك ، الأمر الذي دعت إليه مدرسة القاهرة ، فقد كانت مدرسة الهند تخشى أن يؤدي تحريض بريطانيا للعرب على الثورة ضد الخلافة الإسلامية إلى إثارة مسلمي الهند ، كما كانت تخشى أن تصبح القومية العربية مصدر تهديد لبريطانيا ذاتها فتقلب على المصالح البريطانية في البلاد العربية ، بحيث يصبح من الصعب إخضاع العرب لنفوذ بريطانيا بعد الحرب . أما مدرسة القاهرة فقد كانت تأمل أن تنجح بريطانيا ، إذا شجبت العرب على الثورة ضد الترك وساعدتهم في هذا السبيل - في الاحتفاظ بصداقة العرب بعد الحرب بحيث لا يكون ثمة مجال للخوف على مصالح بريطانيا في المنطقة . ولذلك كان من رأى أعضاء مدرسة الهند ألا تلوح بريطانيا للعرب بأية وعود استقلالية وألا تشجعهم في أمانيهم القومية كما كان من رأيها إقامة حكم بريطاني مباشر في البلاد العربية في غرب آسيا . أما مدرسة القاهرة فقد كانت نجد إصدار الوعود للعرب وإظهار العطف على أمانيهم القومية ، وكانت ترى منح العرب استقلالاً محدوداً تحت سيطرة بريطانية مقنعة ، وأن يهدد بتسلم مقدرات هذا الاستقلال المحدود إلى حكم من العرب الموالين لبريطانيا ضماناً لاحتراز النفوذ البريطاني ، ومن هنا كانت مدرسة الهند تمارض إشعال ثورة عربية ، تلك الثورة التي رشحت مدرسة القاهرة الشريف حسين لزعامتها ، بل كانت تقاوم الاعناد على الهاتمين وتؤيد التحالف مع ابن سعود لضمف مركزه خارج شبه الجزيرة العربية .

ولذلك كانت المفاوضات البريطانية مع ابن سعود تجري من أجل تحقيق هدف قريب وهو ضمان صداقة أمير نجد ، أو على الأقل وقوفه على الحياد أثناء العمليات الحربية في العراق ، ولم تكن هذه المفاوضات تهدف إلى أبعد من ذلك طالما أن

مدرسة الهند — التي تولت هذه المفاوضات — لم تهتم كثيرا باقامة دواة عربية تحمل
عجل الامبراطورية العثمانية .

وقد لفت الخلاف بين الهند ومصر حول السياسة البريطانية إزاء العرب نظر
جرترود وهي في القاهرة ، ولم تكن مرتاحة لاستمرار هذا الخلاف ، لأن من شأنه
كما قالت في رسالة إلى والدها في ٢٤ يناير (كانون ثان) ١٩١٦ أن يؤدي إلى
انعدام التعاون بين إدارتي المخابرات في البلدين « وكلما استمر هذا الوضع ازدادت
الحالة سوءا وخطرا ، وهم (في الهند) لا يملكون بأحوال المناطق الغربية من شبه
الجزيرة ونحن (في مصر) لانظم عن المناطق الشرقية منها ، ولذلك فأنني سأذهب
إلى الهند ، ولا أدرى إذا كانت هذه الرحلة سوف تأتي نفاذة ولكنها حديرة
بالمحاولة على كل حاله ، وسوف أتم الكثير لأنهم (في الهند) سوف يسمحون لي
بالبحث والتنقيب في سجلاتهم عن العرب حتى أرى ما يمكن إضافته منها إلى معلوماتنا
ونحن في حاجة إلى أن ننشئ للشرق الأدنى مكتبا دائما للمخابرات هنا (في القاهرة)
على أن يستمر في العمل بعد انتهاء الحرب ، وهذا المسكيب لا يستطيع العمل بدون
معمونة السلطات البريطانية في الهند ، وهذا هو الموضوع الرئيسي الذي سأتناوله بالبحث
مع نائب الملك في الهند (١٠) وفي الثامن والعشرين من يناير (كانون ثان) ١٩١٦
أبحرت جرترود على ناقلة الجنود بوربيديز Euripides فوصلت كراتشي في السابع
من فبراير (شباط) ومنها إلى دلهي حيث التقت بلورد هاردينج Hardinge نائب
الملك في الهند وبعد انتهاء مباحثاتها معه غادرت الهند في السابع والعشرين من الشهر
نفسه .

جرترود في العراق :

وفي طريق عودتها من الهند زارت جرترود العراق ، فزادت في البصرة ضيفة

على آل كوكس ، وكان سير برسي كوكس كبير الضباط السياسيين في الخليج ، وعلى الرغم من أنه سبق لجرترود مقابلته إلا أن هذه الزيارة كانت فاتحة أقوى وامتد صداقاتها في الفترة الأخيرة من حياتها . وفي البصرة عهد إليها بالاشتراك في تحرير فهرس عن أما كن شبه الجزيرة العربية ، كان يجري إعداده لحكومة الهند وقد التقت في هذه الأثناء بـ *Dobbs* الذي كان وقتئذ ضابطا سياسيا بالعراق وبذلك التقت جرترود بثاني اللندوين الساميين اللذين عملت معهما في العراق .

وفي أثناء وجودها بالعراق أوفد لورنس من القاهرة إلى العراق في إبريل (نيسان) ١٩١٦ ، وكانت المهمة التي عهد بها إليه هي التوسط في فك الحصار التركي للقوات البريطانية في الكوت ولو برشوة القائد التركي خليل باشا (١١) .

وفي أثناء وجودها بالعراق أيضا بذلت جرترود بعض الجهود لاستئجار ابن الرشيد وكان لا يزال يؤيد الترك ، ولذلك التقت في أوائل مايو (أيار) ببعض رجال ابن الرشيد الذي كانوا يعرفونها منذ رحلتها في حائل قبل الحرب واستقت منهم بعض الأخبار ثم بعثت معهم ببعض الرسائل إلى أمير حائل وإلى بعض الشخصيات الأخرى التي تعرفها ، وكانت جرترود تعلق الأمل على كسب أمير حائل إلى جانب بريطانيا أو على الأقل الوقوف على الحياد ، وكان سير برسي كوكس يؤيد مساعي جرترود ولقد فشلت محاولة جرترود ولم يتزحزح ابن الرشيد عن موقفه ، ولذلك فقد اتهمته في رسالتها إلى ذويها في ١٥ يوليو (تموز) بالحق الذي لا يتصوره عقل ، وعبرت عن أملها في أن يثور عليه أهل ثمر ويقيموا أميراً آخر مكانه (١٢) .

ولقد صارت مهمة جرترود في العراق هي العمل كحلقة اتصال بين القاهرة والبصرة ، وانتهزت هذه الفرصة لجمع مزيد من المعلومات عن العراق وقبائله المستعينة بكثير من الشخصيات البريطانية من العاملين في العراق مثل الكابتن ايدى *Eadie*

الذى كان يعرف عن القبائل في العراق أكثر من أى شخص آخر في العراق .
« مستر ادموندز Edmonds (١٣) الذى كان وقتئذ ضابطاً سياسياً
في سوق الشيوخ ومنه استقت كثيراً من المعلومات عن البادية والحضر في العراق .
فكانت تركب للخيول مع مرافقيها من الضباط البريطانيين تجوب القرى وتذهب
لزياره أعيانها وتتناول معهم الطعام ، وفي المساء تستدعى اليها الأهالي للحصول
منهم على المعلومات التي كانت تجرى وراءها ، وتحاول للتقرب منهم بشق الوسائل
بأداء بعض الخدمات لهم ، وفي هذه الاجتماعات تدار القهوة والسجائر على الحاضرين
كل هذا دون أن يتطرق اليها التنب وهي تعمل في الجو القاطظ ، فقد عبرت - في
خطابها في ١٦ يونيو عن سمادتها في العراق ، وقد صورت في هذا الخطاب سوء
حالة الحملة البريطانية على العراق ، تلك الحملة التي أعادت إلى ذاكرتها الحملة على
القرن في منتصف القرن التاسع عشر (١١٣) .

وفي هذه الجولات زار جرتروود الكثير من الجهات مثل النصيرية وسوق
الشيوخ والقرنه ، وعلى أثر عودتها ون هذه الجولات إلى البصرة عينت جرتروود
مندوبة رسمية للقاهرة ، وبذلك صارت جزء من الحملة الهندية على العراق .

ولم تهدأ جرتروود بل تابعت دراستها للقباني ، فامضت عيدراس السنة (ديسمبر
سنة ١٩١٦) في قلعة صالح مع مسترسان جون فيليبي ، واستمرت خلال الشهر
الأولى من العام الجديد (١٩١٧) تستقبل الزعماء العرب .

وقد تمكن البريطانيون من استعادة الكويت في ٢٤ فبراير (شباط) ١٩١٧
وعلى أثر ذلك عهدت الحكومة البريطانية إلى الجنرال مود Maude قائد الحملة
على العراق بالتقدم إلى بغداد التي سقطت في يده في الحادى عشر من مارس (آذار) ،
وذاع الجنرال مود في التاسع عشر من الشهر نفسه يانا باللغتين العربية والانجليزية

أعلن فيه أن القوات البريطانية لم تأت إلى العراق غازية بل محررة ، وإن بريطانيا والدول المتحالفة معها ترغب وتأمل في أن ينهض الجنس العربي ليحتل مكانه بين شعوب الارض . ودعا العراقيين إلى المساهمة في إدارة شئونهم المدنية بالتعاون مع ممثلى بريطانيا السياسيين الذين يرافقون القوات البريطانية (١٤).

وبعد أن سقطت بغداد فى ايدى القوات البريطانية انتقلت إليها جرترود — فوصلتها فى ١٥ أبريل (نيسان) ١٩١٧ ، حيث بدأت فى تكوين صداقات جديدة مع كثير من الشخصيات العربية الجديدة إلى جانب أصدقائها القدامى ، وظل للكتب العربى بالقاهرة يرسل جرترود ويزودها بالمعلومات عن أحوال الحجاز والشام التى تمس للصالح البريطانى عن قرب ، وكانت هى الأخرى تكتب إليهم عن أحوال العراق ، فقد كانت جرترود تعتبر أنها جميعا فصول فى رواية واحدة .

وأضيف إلى جرترود عمل آخر هو تحرير صحيفة محلية اسمها (العرب) كان يساعدها فى إصدارها كاتب لبنانى هو سليم البستاني ، كما قامت بجولات فى كثير من مدن العراق وبخاصة فى مراكز الشيعة فى كربلاء وولنجف والحلة والكوفة حيث التقت بمجتهدى الشيعة فى أواخر عام ١٩١٧ وأوائل عام ١٩١٨ ، حتى لقد أصبح الناس يعجبون لهذا الحدث الذى لم يسبق له مثيل : امرأة أجنبية تجاس إلى مجتهدى الشيعة تحمى معهم القهوة وتنصت إلى أحاديثهم فى اهتمام بالغ ، ولقد أطلق عليها الناس لقب الخاتون أى السيدة الشريفة .

ولقد اهتمت جرترود على وجه الخصوص بتوثيق صلاحها بكبار ملاك الأراضى وزعماء العشائر الذين كانوا الفئة الوحيدة التى لا تمنى من قسوة ظروف الحرب ، وكان لكل منهم نفوذ وسلطة فى منطقته ، وقد اهتمت السلطات البريطانية بسكسب تأييدهم باعتبارهم قوة لها أهميتها فى تحقيق الأمن وخدمة الصالح البريطانى والحيلولة

دوت تقديم للساحدات لترك ، فمدت السلطات البريطانية إلى الاتفاق مع هؤلاء الشيوخ والزعماء وجعلهم ممثلين أمامها عن شئون عشائرم ومناطقهم فبا يختص بالأمن وحماية للواصلات والأموال البريطانية وجمع الضرائب ، فأعدت عليم الأموال واغنتهم من الضرائب ، ومكنتهم من الانتفاع بالأراضى الأميرية ومنحتهم الاقطاعات الكبيرة مما كان له أثره فى تكوين النظام الاقطاعى فى العراق .

جرنروه والتصريح الإنجليزى الفرنسى المشترك :

وعندما أحست بريطانيا وفرنسا بالسخط يجتاح الشرق العربى بعد تحريره من لترك لعدم وفاء الدولتين للعرب بالوعود التى بذلت لهم أثناء الحرب ، أسرعت الدولتان بإصدار التصريح الإنجليزى الفرنسى (٧ نوفمبر ١٩١٨) الذى وعده بتجميع إقامة حكومات وإدارات وطنية فى كل من الشام والعراق ، ولقد أعلن ارنولدولسن كبير الحكام السياسيين بالنيابة معارضته لتصريح والسياسة التى أملىته التصريح ، فى ١٦ نوفمبر (تشرين ثان ١٩١٨) بعث إلى وزير الهندسة ملنا أن التصريح « سوف يورطنا فى مشاكل جسيمة كذلك التى أثارها وعدود مكماهون لشريف مكة » مؤكدا اتصال العراق عن بقية الأقطار العربية ، مطالبا بماملته بماملة مختلفة وفصل قضيته عن القضايا العربية فى البلاد الأخرى^(١٥) . إلا أن للسئولين البريطانيين فى لندن أبلغوا ولسن أن الهدف من التصريح كان توضيح الموقف فى سوريا على الرغم من إشارة التصريح إلى العراق .

ولقد كان ولسن وغيره من الاستعماريين البريطانيين يعتبرون احتلال العراق أوج النشاط البريطانى لأنه يؤمن الطريق إلى الهند ، كما يضمن حماية الهند من روسيا البلشفية التى تعاطف خطرهما عن ذى قبل بعد أن باتت اطاعها تنفيذها مبادئه

اجتماعية. ولتلك عارض ولسن الاقتراح الذى قدمه لورنس إلى حكومته بأن يوضع العراق الأذنى تحت حكم الأمير عبد الله والأطى تحت حكم الأمير زيد وسورية تحت حكم الأمير فيصل على أن يظل الحسين ملكا على الحجاز ولا تكون له أية سلطة زمنية على الأقاليم الثلاثة خارج الحجاز . وعندما أبلغت الحكومة البريطانية ولسن باقتراح لورنس اعتبرها - فى ٢٥ نوفمبر (تشرين ثان) ١٩١٨ - غير عملية وأن وضع أبناء الشريف فى هذه الراكز ليس فى مصلحة بريطانيا أو سكان البلاد، وأن تقسيم العراق لا تبرره الأحوال السياسية والاقتصادية لأن الولايات العراقية الثلاث يجب أن تكون وحدة واحدة تحت السيطرة البريطانية الفعالة ، «ولذلك فإننى استحث حكومة صاحب الجلالة من أجل استثناء هذه البلاد (العراق) تماما وإلى الابد من أى تسوية مع الأشراف » .

إلا أن مس بل كانت تمتد أن ارتوله ولسن قد جانبه الصواب فى اعتقاده بأن أهل البلاد لن يقبلوا أن يتولى عليهم حاكم عربى من الأشراف أو من خارج العراق مموما ، وكانت ترى أن أهل العراق لن يقبلوا أميرا عمليا لأنهم لا يتقون فى أحد منهم ، ولكنهم سوف يؤيدون أى رئيس عربى خصوصا إذا كان يستند إلى تأييد مندوب سام بريطانى قسوى (١٦) .

ورغم غموض التصريح وبسده عن تحقيق أمانى العرب إلا أن جرترود لم تكن راضية عنه من حيث أثره على الأهالى فى العراق وقد بعثت برأيها إلى اللشوليف البريطانيين فى مذكرة بتاريخ فبراير ١٩١٩ تحت عنوان « تقرير اللصير فى العراق » وقد ذكرت (جرترود) أن نشر التصريح الإنجليزى الفرنسى - مهما كان منزاه السياسى فى أى مكان آخر - فإنه كان ضرورة يؤسف لها فى العراق ، « فإنه على

الرغم من أنه لم يفعل أكثر من تأكيد النوايا التي سبق إعلانها عند احتلال بغداد (تصريح مود) إلا أنه كان يختلف عنها في ناحية هامة ، إذ أنه بينما صدر تصريح الجنرال (مود) ونتيجة الحرب لا تزال موضع شك مما جعله ضرورة عسكرية ، فإن التصريح الإنجليزي الفرنسي صدر بعد انتصار الحلفاء ، وقبل إصداره كان أهل العراق قد شهدوا النهاية الناجحة للحرب وسلموا بأن بلادهم ستبقى تحت السيطرة البريطانية المباشرة وكانوا سيخضعون بالخضوع لحكم القوة ، إلا أن التصريح فتح الباب أمام احتمالات أخرى وأتاح الفرصة للدسائس السياسية من جانب العناصر المتعصبة خصوصا وأن التصريح صدر بعد أن عاد إلى بغداد عدد من الأشخاص الخطرين على الهدوء في العراق حيث أخذوا في بث الدعاية ضد البريطانيين ، وبما زاد من تأثير التصريح تلك الأنباء التي أذاعتها (رويتز) عن ذهاب الشريف فيصل إلى مؤتمر الصلح كمدوب عن الدولة العربية المستقلة (١٧) .

وإلى جانب ذلك فقد كانت جرتروود تعتقد أن تصريح ٧ نوفمبر لا يتعارض مع وضع العراق تحت الحماية البريطانية ، كما لا يتعارض مع الحماية وضع زعيم عربي على رأس الدولة في العراق — متخذة من قبل الحرب مثالا لذلك ، وأشارت إلى أن الرأي العام في العراق لا يمترض على تعيين عربي على رأس الدولة ، وأنه يوافق على وضع أحد أبناء شريف مكة في هذا المركز إلا في حالة وجود مرشح مصري أكفأ (١٨) .

وفي السابع من مارس ١٩١٩ وصلت جرتروود إلى باريس لحضور مؤتمر الصلح وقد انضم إليها — بناء على استدعاء الحكومة البريطانية — كل من (ارنولد ولسن) نائب كبير المحاكم السياسيين في العراق ، (هو جارث) من للكنب العربي بالقاهرة . علاوة على (لورنس) فكونوا جهة من المشتغلين بمسائل الشرق العربي ، للاتفاق

على رأى موحد تمشد به الحكومة البريطانية . ثم عادت (جرترود) إلى بغداد في ٢٤ أكتوبر ١٩١٩ ، وتوافد الزوار على بيتها بالمشرات فكانت تقعد معهم جلسات يحضرها بعض رجال الإدارة بالعراق .

ولم تلبث (جرترود) أن صارت تقدر ارتباط الصالح البريطاني في العراق بالصالح الفرنسية في الشام وأنه لا يمكن بحث التسوية العراقية منفصلة عن التسوية السورية ، ولذلك فإنها — في ٢٠ ديسمبر ١٩١٩ — طالبت بأنه على الحكومة البريطانية أن تصل إلى اتفاق مع الحكومة الفرنسية على أيسر الصلح مع تركيا وذلك بعد أن انسحبت الولايات المتحدة — عليها لعنة الله (كما تقول جرترود) وتفضت بدعاه من مشاكل العالم القديم .

جرترود والثورة في العراق :

ولم تلبث الثورة أن نشبت في العراق منذ أواخر عام ١٩١٩ ، وتجمعت عدة أسباب أدت إلى انفجار مرجل النضب في كافة أنحاء البلاد ، وبخاصة سياسة (ارنولد ولسن) التي اتسمت بالتمع والشدة لمواجهة بلاد تطالب بالحرية ، وقد عمّت الثورة أنحاء العراق ، الذي شهد وحدة بين طوائفه المختلفة ، وحدة بين السنين والشيمة ، وعقدت الاجتماعات السياسية في الساجد حيث قرئت الأشعار الوطنية تطالب المحتلين بالخروج من البلاد .

وإزاء هذه الثورة العارمة التي اجتاحت العراق ضد الاستعمار البريطاني وكلفت الحكومة البريطانية الكثير من الأموال والأرواح ، علاوة على ضياخ هيبة بريطانيا في المنطقة ونزعزع مركزها ، ظهرت عدة آراء تقترح حل مشكلة العراق ، فهذا (لورنس) يقترح إقامة إدارة عربية تحت رئاسة أمير من الأسرة الهاشمية في الحجاز ، على أن يقوم إلى جانبه (سير رسي كوكس) كمتعمد بريطاني يخطط به عدد من

السشارين لإبداء النصح وتقديم العون إلى ههذه الإدارة فقد صار (لورنس) يعتقد أنه من الممكن السيطرة على العراق بواسطة الضباط العراقيين الساخطين على الحكم التركي، وبذلك يمكن خيمة الصالح البريطانية بأقل التكاليف عن طريق (العرب الأصدقاء) الذين تساندهم بريطانيا عندما يتولون حكم البلاد المباشر بأنفسهم.

وقد كانت (جرترود) تؤيد رأى (لورنس) حتى لقد اقترحت - أثناء وجوده في بريطانيا بعد أن طرده الفرنسيون من سورية - أن أفضل اقتراح يمكن أن تقدم به لحكومتها هو أن يقوم (سير برسي كوكس) بتتويج فيصل ملكاً على العراق في كنيسة (وستمنستر Westminster Abbey) ثم يعوران معاً إلى العراق (خطاب جرترود في ١٦ أغسطس ١٩٢٠).

ولا شك أن هذا الرأى انتهى مارت تمنتقه (جرترود) هو أساس الخلاف بينها وبين (أرنولد ولسن) والذي كان يتبع الشدة في قمع الحركة الوطنية في العراق ويطالب بإقامة حكم بريطاني مباشر صريح لا حكماً غير مباشر يفتنى وراء واجهة عربية كما كان ينادى (لورنس) و (جرترود) وهم كان (ولسن) يقدم أهمية العراق الاستراتيجية ويرى أن البريطانيين - باحتلال العراق - قد تمكنوا من «دق أسفين في العالم الإسلامي» ، وبذلك منعنا نجمع المسلمين ضيقاً في الشرق الأوسط، ويجب أن تكون سياستنا الاحتفاظ ببلاد العراق وعدم إدماجها سياسياً في بقية أجزاء العالم العربي أو العالم الإسلامي.

إلا أن الحكومة البريطانية - إزاء ما يحمله من خسائر من جراء الثورة - أخذت بوجهة نظر (لورنس) و (جرترود) ولذلك قرر (ولسن) ترك العراق،

ولو أنه لم يبادره إلا في أكتوبر ١٩٢٠ عندما وصل (سير برسي كوكس) الذي أعفى من مهام منصبه في طهران .

وإذ انتصرت وجهة نظر (جرترود) فقد ثمرت عن ساعد الجدد من أجل تيسير سبيل تحقيقها ، ولذلك قامت - ياونها (سان جون فيلي) الذي حضر إلى بغداد مع (سير برسي كوكس) - بعمل قائمة بأسماء أعيان البلاد الذين كانت (جرترود) ضرورة التقاء (كوكس) بهم ، وقائمة أخرى بمن يتعين عليه أن يقيم معهم صداقات شخصية وأخذت على عاتقها توجيه الدعوات لهؤلاء ، وكانت النتائج - كما تقول (جرترود) - مرضية .

وفي كل خطوة بخطوها (كوكس) في تنفيذ المخطط الجديد للحكومة البريطانية من أجل السيطرة على العراق كان يسترشد بأراء (جرترود) فقد صارت سكرتيرته الشرقية منذ ١٨ أكتوبر ١٩٢٠ ، ويتضح ذلك عندما واجهته مشكلة من يتولى رئاسة الحكومة الانتقالية التي كانت ستدير البلاد في فترة الانتقال ، ورغم أن (طالب باشا النقيب) زعيم البصرة كان أبرز شخصية في العراق في ذلك الوقت ، كما كانت (جرترود) معجبة به لعدم اشتراكه في الاضطرابات ، إلا أنه كان معروفاً بقوة الشكينة ، ولم يكن من السهل إخضاعه لإرادة البريطانيين ، ولذلك اقترحت (جرترود) على (سير برسي كوكس) عرض منصب رئيس الحكومة العراقية المؤقتة على السيد عبد الرحمن الكيلاني نقيب بغداد ، رغم أنه كان معروفاً بجزوفه عن التورط في الشؤون العامة حفاظاً على سمته الدينية (١٩) ، هذا إلى جانب شيخوخته واعتلال صحته ، وقد وافق نقيب بغداد على تولي المنصب ، ولما لم يكن من السهل تخطى (طالب النقيب) وإغفاله تماماً فقد استطاعت (جرترود) و (فيلي) إقناعه بتولي منصب وزير الداخلية في هذه الحكومة على أساس أنه سيكون الرجل الثاني ، وأنه إذا مرض الرئيس أو توفي فإن (طالب باشا) هو الذي سيحل محله (٢٠).

ومما تجدر ملاحظته أنه عندما عرض منصب وزير الدفاع في هذه الحكومة للوقت على جعفر العسكري ، أسرع إلى (جرتروود) يسألها النصح فيما إذا كان اشتراكه في الحكومة للوقت التي تعتبر « خدعة بريطانية » سوف يقضى على سمته الوطنية ، فأبلغته (جرتروود) أن ثقة أولئك الذين حاربوا في سورية قد تزعمت بما اعتبروه تخلي بريطانيا عن (فيصل) (٢١) ولذلك فهي تعتقد أن العراق يجب أن يختار أميراً من الأسرة الهاشمية وأن الحكومة البريطانية لن تقف في وجه هذا الاختيار ، وظلت (جرتروود) تلح من أجل اختيار أحد أبناء الشريف حسين أميراً دائماً على العراق خلفاً للحكومة الانتقالية ، وقد اقتضت الحكومة البريطانية بأن أفضل من يتولى عرش العراق في ظل السيطرة البريطانية هو (الأمير فيصل) لمقامه الديني ودوره ودور والده في الثورة على الترك ومعاونة بريطانيا ، وصلته بكثير من العراقيين ممن عملوا معه في سورية ، ورغبة بريطانيا في إزالة ما علق بمشاعره من أسياء ومرارة لتخليها عنه لفرنسا ، واعتبر المسئولون البريطانيون أن فشله في الاحتفاظ بالعرش السوري سيجمعه أكثر إدراكاً لواقع الحال وأكثر روية في معالجة الأمور .

ومن ناحية أخرى أخذت (جرتروود) توجه بعض الصحف المحلية لتحقيق الأهداف التي كانت تسمى إليها ، فقد نظمت مثلاً بعض الاجتماعات مع محرر صحيفة (العراق) - التي كانت في نظرها معتدلة - بحيث كان يلتقي بها مرتين أو ثلاث مرات أسبوعياً يستقى منها الأخبار ويتزود بالأنكار .

وأخيراً قرر (ونستون تشرشل) وزير المستعمرات البريطاني عقد مؤتمر في القاهرة ، يحضره السياسيون اللشنتلون بشئون الشرق العربي مثل (هربرت صمويل) للندوب السامي في فلسطين و (سير برسي كوكس) للندوب السامي في العراق علاوة

على لورنس وغيره من المستشارين ، وكانت (جرترود) تنسوي أن تكتفل نفسها - أثناء غياب (كوكس) في القاهرة - بالعمل على تشكيل الرأي العام في العراق وتوجيهه الوجهة التي تريدها ، ومن ذلك اجتماعها (بجمع المسمى) وطلبت منه إعداد الرأي العام لاحتمال تولية أحد أبنائه ملك الحجاز على عرش العراق ، وفي حديث مع (نوري السعيد) أشارت (جرترود) إلى أهمية تولي حاكم عربي على العراق ، وعندما تسأل عن كيفية التغلب على الصعوبات التي قد تصادف (الأمير فيصل) أجابت بان الوسيلة الوحيدة هي عدم التردد بل السير قدماً في هذا السبيل .

إلا أن (جرترود) أعلنت أنه ليس من الممكن تقرير شيء قبل اجتماع القاهرة للرتقب ، ولكنها أوصت (نوري السعيد) بان يبذل غاية جهده ، من أجل وقف أي نشاط سياسي يقوم به حزب (العربية الفتاة) ، وتهدئة العناصر الوافدة إلى العراق من سورية ، أثناء غيابها مع (سير رسي كوكس) في القاهرة ، بعد أن صمم (كوكس) على اصطحابها معه إلى القاهرة .

وقد كانت وجهة نظر كل من (كوكس) و (جرترود) تتفق مع وجهة نظر (تشرشل) ، إذ طالب (كوكس) بإسقاط الانتداب على العراق الذي كان قد تقرر في مؤتمر (سان ريمو) والعمل على إبرام معاهدة مع الدولة العربية بعد إقامتها واعتبرت (جرترود) أنها ستكون خطوة رائدة « إذا جاءتنا الشجاعة الكافية لاتخاذها » ، واعتبرت فكرة إحلال معاهدة محل الانتداب - أي مزاوله سلطات ومهام الانتداب من خلال معاهدة - ضربة عبقرية Stroke of Genius لأنها توفق بين آماني الوطنيين في الاستقلال وبين مصالح بريطانيا لأن كلمة انتداب تعني الخضوع وهو أمر لم يبد بجمته البريطانيون ، أما معاهدة (بين الطرفين الساميين للتعاقد) فيبدو فيها كأن طرفاً قد وافق بحرية على بعض القيود على سيادته ، وبذلك يمكن أن نجد للقبول دون أن توهم بالاستعمار .

وفي مذكرة (سرية للغاية) بشت بها جرترود إلى حكومتها بتاريخ ٧ فبراير (شباط) ١٩٢١ أشارت إلى أن مؤتمراً على وشك الاعتقاد في لندن وباريس لإعادة النظر في معاهدة سيفر وأن نمة اتجاهات في الحكومة البريطانية لتخديدهم عرش العراق إلى أمير تركي ، من أجل تهدئة الوطنيين للترك ، وقد اعترضت جرترود على هذا الاتجاه ، على أساس أنه سيكون من الصعب إقامة انتداب بريطاني على العراق تحت حكم أمير تركي ، وفي الوقت نفسه سيكون من الصعب على تركيا المرحلة تولى الانتداب على العراق ، وأضافت جرترود أن الوطنيين في العراق لا يريدون الترك ولكن نظراً لسخطهم على الوضع القائم في العراق ، فإنهم يستخدمون شبح الترك لإخراج الإنجليز ثم يقومون بإخراج الترك ، وأشارت جرترود إلى أن المجموعة التي تفكر هذا التفكير ولو أنها صغيرة العدد إلا أنها قوية الصوت ولسان حالها صحيفة الاستقلال (٢٢) .

ولذلك فقد كان من بين القرارات التي اتخذها مؤتمر القاهرة في مارس ١٩٢١ ترشيح الأمير فيصل لعرش العراق المستقل الذي يرتبط بريطانيا بمعاهدة ، ولو أن الحكومة البريطانية أرادت أن تكسب تولية فيصل صفة شرعية بتقرير إجراء استفتاء حتى تبدو توليته وقد نالت موافقة أغلبية الشعب العراقي .



إلا أن الطريق أمام (فيصل) لم يكن سهلاً مهدواً . فقد كان غريباً عن البلاد لا يثق فيه الشيعة لسببته ، بل أن عدداً كبيراً من السنين لم يكونوا راضين عن علاقة أبيه بالإنجليز وثورته على خليفة المسلمين ، هذا إلى جانب منافسة عدد غير قليل من المرشحين ، كان أخطرهم (طالب باشا النقيب) الذي كان يعتبر نفسه أحق من (فيصل) بعرش العراق « من ذا أحق مني ببلادى ؟ ألا يجوز أن يحكم العراق عراقى ؟ » وقد أحس (طالب) بأن بريطانيا — رغم تذررها بأنها لن تولى فيصلاً على العرش إلا

استناداً إلى موافقة الشعب - تتخذ كل الوسائل من أجل فرض فيصل وقتلك أخذ (طالب) يتصدى لهذه المحاولة ، فمراض - بصفته وزيراً للداخلية في الحكومة المؤقتة - في إصدار صحيفة تتولى العناية لفيصل مما حدا (بالسيربرسي كوكس) إلى أن يطلب من (جرترود) بدء العمل في هذه الصحيفة دون موافقة (طالب باشا) كما تولى (سيربرسي كوكس) إرسال البرقيات يدعو فيها (الملك حسين) لإرسال ابنه ولم ترسل الدعوة بالوسائل العادية حتى لا يوقفها (طالب باشا) .

وقد غضب (طالب باشا) وهو يرى هذا التدخل السافر لفرض (فيصل) وأظهر سخطة في مأدبة كان قد أقامها لمستر (لاندون) Percival Landon مرامل (الديلي لتغراف) والتي (طالب) في اللأدبة خطاباً أعلن فيه أن هناك بعض الموظفين المحيطين بالمندوب السامى متحيزون وبمارسون ضغظاً وتدخلوا في الانتخابات (وكانت جرترود على رأس من يقصدم (طالب باشا) وهدد (طالب) بإثارة الأهلين والشيوخ وأنه سيلجأ إلى الإسلام وإلى الهند ومصر والاسنانة وباريس ، وصارت (جرترود) ترى في حديث (طالب) دعوة إلى الثورة لا تختلف كثيراً عن الدعوة إلى الجهاد (٢٣) .

وقد ترتب على ذلك أن دبر أمر اعتقاله ونقل إلى فاو ومنها إلى سيلان ، ثم رحل إلى أوروبا ولم يعد إلى العراق إلا عام ١٩٢٥ . وقد اغتبطت (جرترود) لهذا الإجراء وأحست بأن عبئاً ثقيلاً قد انزاح وأن القبة الكبرى قد زالت من طريق فيصل ، خصوصاً وقد أعنى (سان جون فيلي) مستشار الداخلية ونصير (طالب باشا) من منصبه ، كما استطاعت الحكومة البريطانية أن تثني بقية الرشحين - وعلى رأسهم نقيب بنداد - عن منافسة (فيصل) .

وعند ما وصل (فيصل) إلى العراق ، وعلى الرغم من تأييد الحكومة المؤقتة

ومساندة البريطانيين ، فقد كان استقباله فائراً ، وكان معظم الناس منصرفين عنه حتى أنه في اليوم التالي لوصوله إلى بغداد مرت (جرتزود) بالسراى التي كان ينزل بها اترك له بطاقتها لكنه استدعاها وجلس إليها بينما يحاونه ، فطمأنته وأكدت له أن (سيربرى كوكس) معه قلباً وقالبا .

ومما تجدر ملاحظته أن السكاليين في تركيا بمجرد أن سمعوا بأن في نية بريطانيا تنصيب (فيصل) على عرش العراق بدؤوا في بث دعاية قوية تأييداً للشيخ أحمد الإدريسي السنوسي كنافس لفيصل على عرش العراق ، كما أن الحكومة الفرنسية — إلى جانب تلميحاتها إلى قنصلها في بغداد بالأيقم اعتباراً لفيصل — رصدت مبلغاً من المال لمساعدة السنوسي في الدعاية ضد فيصل وبريطانيا على السواء . وأخذ السيد أحمد السنوسي يرسل العديد من الخطابات يحض القبايل والأفراد على الثورة ضد الإنجليز وفيصل بإسم الإسلام ، حتى لقد شمر فيصل باليأس وصار يفسر في منادرة البلاد إلى إنجلترا لولا أن (جرتزود) ومعها (جعفر المسكرى) و (كورنواليس) مستشار فيصل أقنعوه بالثبات وعدم ترك البلاد حتى لا يقال إنه اختلف مع (سيربرى كوكس) (٢٤) .

وأخيراً نجح (فيصل) في الاستفتاء بفضل موازنة السلطات البريطانية التي لجأت إلى كثير من الوسائل للتحايل من أجل توليته وتم توجيه ملكا على العراق في الثالث والعشرين من أغسطس ١٩٢١

وحتى بعد أن توج فيصل ظل القلق يراوده عن مستقبله ، حتى لقد كتبت (جرتزود) في ٢٥ سبتمبر ١٩٢١ أنها عند ما طلبت من (فيصل) إحضار زوجته وأولاده إلى العراق عبر لها عن عدم اطمئنانه ، مما دعا (جرتزود) إلى أن توحى إليه بمقتدا اجتماعات مع شخصيات معينة لتدعيم مركزه وتمهدت هي بأن تقدم له قائمة بأسماء الشخصيات التي يمين عليه نوثيق صلته بهم .

وهكذا كان فيصل مدينا بالفضل (جرتود) حتى أنها عندما اطمانت إلى توليته وزوال العقبة، التي كانت في طريقه فكرت في السفر إلى (وطنها) بريطانيا لقضاء الصيف ، وعندما أبلت فيصلا بذلك طلب منها ألا تتكلم عن (وطنها) « فوطنك هنا ، ولكن يمكنك أن تقولى انك ذاهبة لرؤية والدك » .

رأى جرتود في سياسة بلادها إزاء للصهيونية :

وإضافة لهذه الراء لا نستطيع أن نحتتم هذه الدراسة دون أن نشير إلى موقف جرتود من السياسة التي اتبعتها بعض ساسة بريطانيا إزاء الصهيونية ، تلك السياسة التي تظهر بوضوح في إصدار تصريح بلفور في الثاني من نوفمبر عام ١٩١٧ . ويكنى في هذا اللقاع أن نستشهد برسالة جرتود إلى زوجة أبيها في ٢٥ يناير (كانون ثان) ١٩١٨ والتي ذكرت أنها « تسكره تصريح بلفور الصهيوني بخصوص سوريا ، وفي اعتقادى أنه لا يمكن تنفيذه ، فان البلاد (فلسطين) غير ملائمة للمرة للأهداف التي يتطلع اليه اليهود إلى تحقيقها ، فهى بلاد فقيرة لا تصالح لتطور كبير ، وثلاثا سكانها من العرب المسلمين الذين ينظرون إلى اليهود نظرة ملؤها الكراهية والحقد ، وفي اعتقادى أنه مشروع (الوطن القومى اليهودى) مصطنع (غير طبيعى) لا صلة له بالحقائق ، وأتمنى له الفشل الذى يستحقه والذى سوف يتحقق » (٢٥) .

خاتمة اللطاف :

وبعد أن أدت (جرتود) دورها بنجاح واتممت مهمتها بدأ نجمها في الأضواء وخاصة بعد أن تولي (سير هنرى دوز Dobbs) منصب اللندوب السامى في العراق ، ولم تسكن (جرتود) طي وفاق معه ، فعينت بأمر الملك فيصل مديرة لتجنب

الأثار إلى أن ماتت عام ١٩٢٦ ، وقد كتب لورنس إلى والدها عام ١٩٢٧ : أنه :
« على يقين من أنها ماتت سعيدة راضية ، لأنها أنجزت المهمة السياسية التي أنيطت
بها على أحسن وجه وهي مهمة من أخطر المهام التي وكلت إلى امرأة ، لقد انتهى
دورها التاريخي ، كما انتهى دوري من قبل . »

وليس أول على تقدير مواطنيها وللخدمات التي أدتها لبلادها من تلك العبارة
التي اختتم بها شين ليزلي Shane Leslie مقدمته للجزء الثاني من كتاب
الليزابث بيرجوين والتي قال فيها أنه لو أرادت بريطانيا أن تخلد النساء للألأ عشن
ومتن في سبيل الإمبراطورية أثناء الحرب العالمية الأولى ببناء مقبرة في كنيسة
وستمنستر فإنه لا يمكن اختيار جثمان أشرف من جثمان جرترود بل لتيسيل هؤلاء
السيدات .

obeikandi.com

الهوامش

- (1) Burgoyne Elizabeth: Gertrude Bell from her Personal Papers (1914—1926) pp.14—15.
- (2) Foster: The Making of Modern Iraq, pp. 32—5.
- (3) إيرلاند: العراق ، دراسة في تطوره السياسي . ترجمة جعفر خياط (١٩٤٩) ص ٤ — ٥ .
- (4) Foster: Ouv. Cit pp. 37—8.
- (5) Wilson, Loyalties, Mosopotamia Vol -1, pp 6—9
- (6) Idid. pp.10—11 : Appendix 1, p. 311.
- (7) Young: The Independent Arab (1933) p.273.
- (8) Burgoyne: Ouv. Cit. p.82.
- (9) Graves: The Life of Sir PercyCox, p.206.
- (10) Burgoyne: Ouv. Cit, pp.33—43.
- (11) Garnett: Letters of T.E. Lawrence pp.202—3.
- (12) Burgoyne: Ouv. Cit.pp.38—43.
- (13) Kurds, Turks and Arabs. مؤلف كتاب
- (13A) Burgoyne : Ouv. Cit. p 42.
- (14) Wilson : Ouv. Cit. Vol. I, p. 238.
- الحسنى : تاريخ العراق السياسي الحديث ج١ ص ٨٦ — ٨٨ .
- (15) إيرلاند—خياط : المرجع السابق ذكره ص ٩٩ — ١٠٠
- (16) Wingate Papers—School of Oriental—studies—University of Durham.

(17) Burgoyne: Ouv. Cit. pp. 105—9.

(18) Wingate Papers, Dnrham.

(19) Burgoyne: Ouv. Cit. p.174.

(20) Philby: Arabian Days p. 193.

(21) Burgoyne: Ouv. Cit. p. 193.

(22) Ibid pp. 204—5.

(23) „ „ 213—4.

(24) „ „ 243.

(25) „ „ 75.

نصوص ووثائق

obeikandi.com

رسالة في إصلاح الدولة العثمانية

في القرن السابع عشر

الشيخ حسن كافي الأحمصاري

ورسالته « أصول الحكيم في نظام العالم »

دراسة وتحقيق

عمر نايتشقيش

الشيخ حسن كافي الأحمصاري من علماء اليوسنة والكومفركيا الذين تأثروا
بالفكر البريية الاسلامية ، ومن الذين قاموا بنشرها في المناطق التي كانت في القرنين
السادس عشر والسابع عشر تحت سلطة الامبراطورية العثمانية . انه ليس محمولا تماما
للمسلم الاسلامي ، وكذلك بالنسبة للمسلم الأوروبي ، ولكنه بقي مشمورا إلى حد ما
كما حدث مع الكثيرين من علماء بلاده .

١ - أن لواءى اليوسنة والمهرسك واجعة وتقع في الشمال الغربي من شبه جزيرة
البلقان وسط يوغوسلافيا الحالية ، وسُميت باسم نهر يجري فيها وتجهز الآن من الجانب الشمالي
نهر (صلفا) ومن الجانب الشرق نهر (جرينا) ومن الجانب الغربي عنقطة (طلالينيا)
ومن الجانب الشرق الجنوبي (بلبل الأسود) وإذا أطلق اسم اليوسنة فقد يشمل على المهرسك
أيضا . وأكثر أراضيها جبلية والسهول فيها قليلة وأنهارها كثيرة جدا تتفرج في كل
جهة من جهاتها عيون للماء العذب وزرعها بالانطار وفيها فواكه كثيرة متنوعة لذيدة
وهواؤها حسن جدا للصحة صيفا وشتاء ولكن إذا حل الشتاء تقطت الأرض بغطاء من الثلوج ،
ومن الآن إحدى الجمهوريات اليوجوسلافية وعاصمتها (سرايفو) ويسمونها الأتراك في الوثائق
(يوسنة سراي أو سراي يوسنة) راجع المانجى ص ٩ من الجوهر الأسنى .

ولد الشيخ حسن كافي في البوسنة سنة ١٩٥١/٥٤٤م في بلدة اقصرار - بين
الدار البيضاء - وأهل تلك البلاد يسمونها بـ (بروسانس) (١) وأجداده لم يكونوا
أصلا من البوسنة بل جاءوا من ألبانيا من إحدى قرى الاسكندرية الرومية (٢)
واستوطن جدهم يعقوب قبل مجيء الأتراك إلى البوسنة قرية من قرى قضاء
اقصرار (بروسانس) اسمها ذئب ، ولا يعرف سبب مجيئه إلى الوطن الجديد ،
هل كان ذلك لميوله إلى المذهب الباتاريني للتحرف من المسيحية حيث أجبر على الفرار
من الصليبيين والتجأ إلى البوسنة ، أو جاء كرامى أفغان يبحث عن الرعى .

ولما بلغ حسن كافي سن التمام بدأ بدراسته حسب العادة والزمان والنهج

١ - ذكر الدكتور باشا غيتش في ترجمة « حياحت ناماسى » لاوليا جلى ص ١٤٧
أن البنادقة بنوا هذه القلعة الجميلة التي تشبه الأواقي الأبيض وسموها بـ (بروسانس) ،
وذكر لاسم بروسانس أول مرة في التاسع والمئتين من شهر يوليو سنة ١٤٧٨ وسُميت
هذه القلعة بعد ذلك ببلغراد ، وترجم اسمها إلى اللغة التركية واصبحت (اقصرار) بضم الـ
البيضاء . وقال أوليا جلى أنه كان في القلعة ثمانون دارا للجيش ومسجد واحد . أما خارج
القلعة فكانت عدة مساجد وأحسنها مسجد حيفر كهيا الذي بنى ١٠٢٥ ١٦٦٦ م ،
وثمانية شوارع للسكنى ذات دور أرضى أو طابق واحد وبساتين من حولها . ويدخل
الإنسان القلعة عبر الجسر المتحرك الذي ينزل أثناء النهار ويرفع أثناء الليل . وكتب فوق
مدخل القلعة عبارة تقول أن القلعة تشابه جنة المسأوى . وتوجد في المدينة ثلاث تكايا
وأعشرها تكية خلوتية بناها الشيخ حسن كافي وكذلك ثلاث كتاتيب كتب فوق الذي بناه
الشيخ حسن تاريخ إنشائه « شيخ كافي » يعنى (١٠٢١ ١٦٦٢ م) وكذلك خان بناه
الشيخ حسن أيضا . وفي المدينة حمام واحد وثمانون عملا للبيع والشراء فضلا عن (باذستان)
وفى دار الحديث ، وليست هذه المدينة كبيرة بل لأنها مدينة حدود حول القلعة ، أما الجو
فيها فإنه لطيف وفي المدينة ماء عذب ادخل من خارج المدينة عن طريق الأنابيب
الحشوية .

٢ - هكذا سميت مدينة (اشقدرة) في الوثائق التركية وحسن كافي يستعمل
هذه الكلمة .

الذى كان متبعاً في الدولة العثمانية حينذاك ، وأشار في ترجمة حياته إلى أنه ارتحل إلى استانبول بعدما تيسر له «تحصيل مباني العلوم» في بلاده في أوائل سلطنة السلطان سليم خان ابن السلطان سليمان خان (١) وأخذ العلوم من عدة مشايخ ، واشتغل عند كثير منهم حتى انتسب إلى خدمة حاجى أفندى قره ييلان المشهور بـ معيد كمال باشا زاده (٢) في بلده (جتالجه) للتوفى سنة ثلاث وثمانين وتسعمائة . ومن بين الذين أخذ العلوم عنهم كان العلامة في التفسير والأصول قاضى المسكر بروم إلى المعروف بالمعجم منلى أحمد الأنصارى ، والعلامة بمشا كل الحديث والقرآن القاضى واللفى بـ (سرايفو) بالى بن يوسف الشهير بعلم الوزير الأكبر (٣) ، ثم آخر من تلمذ عليه الأقفصارى هو قدوة مشايخ المدينة ومكة أستاذ سلطان الهند جلال الدين الأكبر والقاضى بمسكركه الشيخ الأنور مسير غضنفر بن جعفر الحسين للتقاعد بالمدينة للنورة .

ولما تم الشيخ حسن كافى الأقفصارى دراسته في استانبول عاد إلى مسقط رأسه (بروساس) عام ٩٨٢ هـ وبدأ بالتعليم .

(١) كان سلطاناً من سنة ٩٧٤ — ٩٨٢ هـ .

(٢) وضعه الأقفصارى في سلسلة العلماء الذين نقلت عن طريقهم العلوم الإسلامية من النبي المرسل إلى وقته هو .

وقد تحدث عنه بكل احترام وتظيم وقال : « الثامن والعشرون (في هذه السلسلة) العالم العامل والأستاذ الفاضل الكامل ، الشيخ الهادى شيخى وأستاذى ، الشيخ حاجى أفندى المعروف بقره ييلان فيما بين أقرانه ، المشهور بمعيد كمال باشا زاده في زمانه ، حصل مباني العلوم في شبابه بقسطنطينية المحمية ، ثم صار معيداً لدروس الإمام كمال باشا زاده وأميناً لفتواه ثم اختار التقاعد للتفريس بمدرسة الوزير على باشا في بلدة جتالجه بقرب قسطنطينية وهو أول مدرس بها ٠٠٠٠ س ٣٠ من المخطوطة المذكورة من نظام العلماء للأقفصارى .

(٣) ولد في بلدة (سرايفو) وأخذ العلم من علماء بلاده ثم صار معلماً للأولاد ولكن بواسطة الوزير الأعظم محمد باشا صوكولى — وهو بوسنوى أيضاً ولد في قرية صوكول قرب =

ولما عاش الأخصاري في جو متوتر للغاية وبصفته عالماً بارزاً مشهوراً وكانياً ماهراً وصاحب رأى حاسم فإن السلطة العثمانية حاولت ضمه إلى قواها العامة لحل مشاكل الدولة العثمانية العديدة . وفي الزمان الذي كان الأخصاري فيه معلماً شاباً داعياً إلى تحقيق الفكرة الإسلامية في مطلع حياته العلمية ظهرت في البوسنة تعاليم الشيخ حمزة التي استهدت تدخل استانبول وللمعلم الشاب أيضاً في شئونها مع أستاذه بالي أفندي (١) . وعين الأخصاري بمد ذلك قاضياً في (برسالكس) سنة (١٨٩١) غير أنه نقل من هذا المكان المهديء نسبياً ، بسبب جرأته وحدة قلبه إلى ولاية (سرم) (٢) سنة (١٨٩٦) .

كان الأخصاري يردد على استانبول كلما منحت له الفرصة مشغولاً من الشؤون منهنياً عالياً وكان وعيافته التعليمية والقضائية لم تسكن في مستواه بل كانت دوتته على حد اعتقاده .

== مدينة (فيشيفراد) على نهر درينا — دخل في جملة المدرسين بمدارس استانبول وتقلب فيه عدة وظائف وفي النهاية كان قاضياً في البوسنة وتوفي عام (١٩٠٠ - ١٥٨٢) واشترك بالي الهندي في تصفية الطريقة الحمزوية عندما أرسل شيخ الإسلام سنة (١٩٨٦) المشورات إلى القضاء يأمرهم فيها برد هؤلاء الزنادقة إلى دائرة الدين باى وجه كان ٥ من الجوهر الاسنى ، للخانجي نقلا عن الشقائق النعمانية .

(٧) ومؤسس لهذه الطريقة يسمى حمزة ٥ ولد في قرية من قرى مدينة (ازفونيق) على نهر (درينا) في البوسنة ويبدو أنه كان من أحفاد الشيخ حمزة (أورلوفيتش) الذي تبرع له السلطان بهدية قرية (أورلوفيتش) بما حولها من القرى المجاورة بحيث بنى مسجداً وتكية وداراً للضيوف لا تزال موجودة على شكلها ونوعها كما كانت . ونقل مؤسس هذه الطريقة الشيخ حمزة عام (١٥٧٣ م) في استانبول على أساس حكم شيخ الإسلام أبي سعود أفندي ، وقال ابن نوعي وشمس الدين سامي وعلى جواد أنه ظهرت منه أشياء مخالفة للشرع وغلبوا ذلك باستغراقه في الجذبة الالهية ، قالوا فهبس في قلعة أقره . فلما أضحى الفهد وجدوه ميتاً وذلك سنة (١٩٦٤) ولم يذكروا ما ظهر منه ، الجوهر الاسنى ص ٦٨ .

(٨) المنطقة الواقعة بين نهري (سافا) و (دانوب) في يوغوسلافيا .

وبعد أن أدت فريضة الحج سنة ألف ، عاد إلى استانبول وعين من جديد قاضياً
في بعض بلاد جوار أخصار . وعندما ظهر في القسطنطينية والتساك من قبل بعض القمائل
في الأرذل والبندان (١) ترك الأخصارى القضاء وفر إلى مسقط رأسه أخصار وفي
هذه الفترة من الأحداث التوترة وصلت أعماله الفكرية السياسية إلى ذروتها حيث
بدأ وضع رسالته « أصول الحكيم في نظام العالم » .

لقد خدم جمعية بإخلاص وصدق ولم يخلف أملاً ولا ينين بل أتقى كل ما كان
يلتزمه في سبيل الأعمال الخيرية . وعندما اشتهر بحكام كبير ومفكر عظيم قدم إلى
الوزير الأعظم إبراهيم باشا في شهر رجب وهو بوسنوى أيضاً أم مؤلفاته ومن بينها
ترجمة رسالته « أصول الحكيم » بلغة التركية التي يتحدث فيها بصراحة واستقامة عن
أخطاء نظام الحكيم التركي آنذاك مشيراً عند ذلك إلى الطرق والأساليب التي يمكن
بواسطة أن يعود إلى تركيا مجدداً القديم ويحفظها ثم حين - مكانة له - قاضياً
مدى الحياة في مسقط رأسه (أخصار) .

ويبدو أنه الشيخ حسن بدأ يئأس من الحياة فأخفى وتراجع من الميادين
السياسية وكفى بقية حياته كمنحاضر وقاض يكتب مؤلفاته في مجال اللغة والدين لكن
كما خيمت من جديد السحب اللثيمة بالخطر الحربى نراه يتحرك فيه شعوره الوطنى
فيأخذ السيف في إحدى يديه والقلم في الأخرى ويقاوم ويجاهد ويعلم ويكتب حتى
وإنه الأجل وهو في مسقط رأسه - برومانس (أخصار) . وذلك في الخامس
والعشرين من شعبات أو في السادس عشر من رمضان سنة ١٠٢٥/١٦١٦م عن
أربعة وسبعين عاماً .

(١) ولاية في رومانيا الحالية .

لقد اشترك الأتحمصاري في كثير من المارك الدامية التي يتحدث هو بنفسه عن بعضها كما جاء في كتابه « نظام العلماء » .

« ... وفي أواخر هذه السنة السلية (١٠٠٤ هـ) خرج سلطاننا للظفر والنصور للنزوة للروفة بنزوة (أكر)^(١) ومহারبة لنابور ، ألا وهو السلطان ... الغازي محمد خان ابن السلطان مراد خان ... فخرجنا للزوة معه من أنحصار يوم السبت الرابع من محرم الحرام لسنة (١٠٠٥) ولحقنا بسكره ... تحت القلعة بعد المحاصرة يوم السبت الثالث من صفر ... » وعرض في هذه المناسبة كتابه للذكور « أصول الحكم » . وذكر في تصليفه المسمى بـ « أزهار الروضات في شرح روضات الجنات » أن لسويده كاتب في أواخر رجب لسنة ست وألف من الهجرة النبوية وتبييضه وتسكيبه في غزوة (استروغون وفتحها)^(٢) « مع ثمنيت البال وكثرة الاشتغال بالمشاورة والرأى في أسباب الفتح والظفر وتديبر أحوال المعسكر . في أوائل جمادى الأولى سنة (١٠١٤ هـ) وقد وقع الفراع من تمود هذا الشرح بعد الفتح والعود في أوائل رجب للرجب من السنة المزبورة بقلعة (لوسيبك)^(٣) ثم من تبييضه وإكاله بمون الله تعالى وأفضاله بقاعة أنحصار ... في أواخر شهر شوال لسنة (١٠١٥ هـ) .

ونجد مثل هذه للاحظة في كل من « نور اليقين » و « روضات الجنات » لهذا المؤلف حيث قال أنه كتب « روضات الجنات » في بروسانس أثناء لتدريس:

(١) تقسم في المجر وتسمى بـ « ارلاء » أيضاً ، فتحها السلطان محمد الثالث وتسمى جاتج أكر .

(٢) مدينة في المجر .

(٣) مدينة من مدن كرفانيا في يوغوسلافيا .

« بما خطر في نفسي في أثناء درسي ... مع كثرة الاشتغال بمخاطبة العوام وكثرت ليال بمخاطبة غير الإسلام والابتلاء بالقضاء سباً في أيام الفترة والرباء وإثارة الفتنة وأنواع الإيلاء » .

وإلى جانب ممارسة المهنة الاضائية والتعليمية في مختلف اللناطق وتآلف الكتب في شق لليادين اهتم الأخصاصرى اهتماماً كبيراً بشعبه . وقد اختار في نهاية حياته مكاناً هادئاً لأداء واجب العلم وأسس فيه مدينة جديدة للتعليم سماها « نواباد » (١) وبني فيها على نفقته الخاصة مسجداً ومكتباً لتعليم الأطفال وخاناً وحماماً ومدرسة ومحكمة وأقام شبكة لياه لزيود هذه المدينة بما نقي صاف وأحيا شخصية (إيفاز دده) (٢) التاريخية وأخيراً بنى لنفسه في مبنى للدراسة صريحاً له دفن فيه هو وزوجته .

مؤلفات الأخصاصرى :

بعد الشيخ حسن كافي من بين العلماء البوسنويين الذين كتبوا باللغات الشرقية الثلاث فبرزوا فيها ، وعملوا على تقدم بيتهم ونجحوا في رسالتهم . إن هذا العالم وللربى حول مدينة (بروسالس) الصغيرة إلى مركز علمي ظل تأثيره ممتداً على ما حوله من المدن والقصى حتى بعد وفاته ، وبصفته أنه كان عالماً من العلماء الذين يهتموا بالمناوحى العلمية الصرفة نجده لم يكن يحب كتابة الشعر غير أنه توجد بعض الأبيات هنا وهناك في مؤلفاته . وبمقتضى هذا التخصص تأثرت كتابته بالأسلوب العلمى وكانت تقسم بمحصر مواد البحث بشكل موجز ثم يقبها بالدراسة التفصيلية .

(١) كلمة فارسة تعنى « مدينة جديدة » . ✓

(٢) جاء مع السلطان محمد الفاتح إلى بروسالس وفضله اعتنق معظم سكان القصى المجاورة لبروسالس الاسلام « بوسنه ومرسك ولايت سالنامه سى ، ١٣٠٥/١٨٨٧ ، إيفاز دده ص ٧٦ .

تجدد كتب الشيخ حسن كافي الإلهي كتيباً جديدة تناولت المنطق والنفس
 والفقاه والبلاغة وكل ذلك باللغة العربية . ولا نذكر بعض هذه المؤلفات في نهاية تأليفه
 المسمى « بنظام العلماء إلى خاتم الأنبياء » حسب تواريخ تأليفها ، ونظراً إلى أنه
 ألف هذا الكتاب سنة (١٠٤٨ هـ) وتوفي (١٢٤٣ هـ) فلا شك أنه كان لديه الوقت
 الكافي ليكتب بعض التأليف الأخرى . وما يؤكد ذلك بعض تصنيفاته الموجودة في
 المكتبات الشرقية في البوسنة وخارجها . وذكر الأفاضل في نهاية كتابه « نظام
 العلماء » المؤلفات التالية :

- ١ - رسالة لفظ جلي ،
- ٢ - مختصر الكافي من المنطق
- ٣ - شرح المختصر إلى آخر نصورات
- ٤ - حديقة الصلاة
- ٥ - سميت الوصول إلى علم الأصول
- ٦ - شرح سميت الوصول إلى علم الأصول
- ٧ - أصول الحكيم في نظام العالم
- ٨ - تمهيد النخيل
- ٩ - روضات الجنات في أصول الاعتقادات
- ١٠ - نظام العلماء إلى خاتم الأنبياء

أما مؤلفاته الأخرى المذكورة في بعض المراجع أو التي وجدت فهي :

- ١١ - شرح مختصر القدوري - أربعة مجلدات
- ١٢ - أزهار الروضات في شرح روضات الجنات
- ١٣ - المنيرة

- ١٤ - نور اليقين في أصول الدين ،
 ١٥ - شرح صحيحين التلخيص ،
 ١٦ - رسالة في بعض المسائل الفقهية .
 ١٧ - شرح كافية ابن الحاجب ،
 ١٨ - تاريخ غزوة أكر ،
 ١٩ - شرح مقدمة الصلاة للفنارى ،

وقال محمد ظاهر بروغلى (١٩٦٩) كان حسن كافي الأحمصارى البوسوى يقول
 « الشعر بالغات الثلاث العربية التركيبية والحجازية غير أنه لما بقي من شعره
 قليل جداً » .

مشكلات عصره :

واجهت الامبراطورية العثمانية فى الفترة التى عاش فيها الأحمصارى المرحلة الأولى
 لاندثار نظامها الاقطاعى المسمى بـ « نظام تيار » الذى أسسته وقامت عليه قوة
 الدولة العثمانية وطاقاتها ، وبهذا دخلت الدولة مرحلة التأخر وبدأت بالتدهور
 والمخاطط : وفى نهاية القرن السادس عشر انتهت فتوحات العثمانيين ونقص دخل
 الخزانة الحربية التى كانت مصدراً أساسياً لى الطبقة الحاكمة فى الدولة .

وكانت هذه الخزانة الحربية تغطى جميع النقص الاقتصادى وتخفف من المشاكل
 التى كانت تقوم بين الحكومة المركزية ومختلف الولاة فى المناطق ، أما الآن فإنها
 بقيت بدون تلك المنافع وظهرت المشاكل المختلفة فى أوضح أشكالها .

وباندثار النظام الاقتصادى العثمانى ، ومع التطور الكبير الذى ظهر بنشأة المدن

الصناعية التجارية ، دخلت الدولة في مرحلة جديدة من الإنحطاط وعجزت الطبقة الحاكمة عن استخدام القانون الذى كان سارى للفعول بين السيد والسود ، وبانتقال الطرق التجارية العظمى من البحر المتوسط إلى المحيط الاطلنطى بسبب اكتشاف أمريكا ، ثم باتجاه الطرق البحرية صوب الهند تفقرت الدولة العثمانية أمام التنافس التجارى الدولى وبدأت تجارتها تكمد .

وبسبب التطور السريع فى صناعة الدول الغربية فى القرن السادس عشر وبداية السابع عشر بدأت تلك الصناعات تحتل الأسواق التركية وتفضى على للنتجات المحلية التركية . وأدى اندثار النظام الاقتصادى التركى العثمانى ، نظام تيمار ، إلى هبوط الإنتاج اليدوى الحرفى فى المدن والقرى ، إذ أن تطور القوى الانتاجية الصناعية سبب ضغطاً كبيراً فى إنتاج الحرف الصغيرة .

ونلاحظ أن تفوق الإنتاج الصناعى فى الغرب تزايد بلبسة زاد معها ضعف الإنتاج الحرفى فى تركيا ، حتى أصبح ذلك الخطر يشمل جميع أصناف المنتجات الحرفية .

وبدأت الدولة تدخل مرحلة صعبة جديدة بسبب ضرورة الدفع بالذهب للبضائع المستوردة من البلاد الغربية الصناعية . وفى نفس الوقت ضعفت صناعة لتمديدن ، ولم يكن دخل للتاجم كافياً لسد حاجات الدولة ومصروفاتها ، وأدى هذا إلى اغلاق كثير من مناجم المادن النفيسة .

أزمة داخلية :

وإل جانب الأزمة الاقتصادية فى الدولة العثمانية فى القرنين المذكورين ظهرت عوامل داخلية أدت إلى سرعة انحطاط الأمبراطورية ، منها ضعف القوة الداخلية ونظام الضبط والربط حيث بدأ السلاطين والأمراء والولاة يعيشون فى ترف على حساب التبر

كما بدأ يجمع رأس المال في أيدي بعض الناس مما أدى إلى زيادة الأزمة المالية للحكومة وكانت الدولة تنجح أحياناً في التغلب على بعض الصعوبات في تلك الفترة لسد حاجات الجيش والناصر غير للتعبئة بمسحة كبيرة ومناورات مختلفة مثل انخراق السوق بالنقد مع ضعف الرصيد الذهبي وتداول هذا النقد الضعيف أسهم في ظهور ثورات واسعة النطاق.

ونجد في أواخر القرن السادس عشر أن قوى السلاطين التي كانت غير محدودة في السابق بدأت تنطق بإرادة حراسها الانكشاريين، حتى قاربت على الزوال ، وكل محاولة من قبل السلاطين لأخذ زمام القيادة من جديد كانت تؤدي إلى إزاحة الدماء والتمرد، وفي النهاية إلى قتل السلاطين أو عزلهم عن الحكم .

الخطر من الخارج

لاشك أن القوى الأوروبية القائمة في ذلك الزمن أسهمت في اضعاف الامبراطورية العثمانية كما أسهمت في ذلك الاختراعات الجديدة المختلفة في الغرب، وخاصة في الفن الحربي الذي أدى إلى إنتاج الأسلحة الحديثة. وكانت الدولة العثمانية منزعجة تماماً لانزوال عن كل اختراع وتقدم، فتراجعت أمام التفوق الأوروبي .

وفي الوقت الذي ضعفت فيه القوى العثمانية قويت على حدودها الشمالية دول كبيرة مثل النمسا وروسيا .

وفي أوائل القرن السابع عشر كانت القوات العثمانية لا تثير الخوف أو القزع عند الدول الأوروبية، بل أن تركيا اعترفت بالنمسا كقوة مساوية لها ، وألقت الاناوه التي كانت النمسا تدفعها إليها إلى عام الف وستائة وستة .

وهذا برهان واضح على أن قواها قد انخفضت وضعفت، وهذا الاتفاق يعنى

انتهاء سلسلة طويلة من النزوات التركية في المغرب ، نعم ، نحن لانستطيع انكار محاولة
جديدة للمغنيين بنية التوفيق وعودة نفوذهم للمسلمين والمسكرى القديم مثل ما حدث
لثناء محاصرة (فينا) علم ألف وسنائة وثلاثة وعثمانين غير أن هيدنه المحاولة انتهت
بانهزام كامله للتوابع الهمانية .

هذا إلى ماساد الدولة من عناصر الرشوة والفساد والبنى والأمراض وعدم طاعة
الجيش للمسؤولين والإمراء ، وقد تحدث الشيخ حسن كافي في رسالته « اصول الحكم في
نظام المام » عن هذه الأمور .

رسالة اصول الحكم في نظام المام :

فلما اتضحت علامات اضمحلاله السلطة الثمانية في آخر القرن السادس عشر للبلادى
وابتداء القرن السابع عشر حاول كثير من العلماء والفكرين أن يبينوا في كتبهم
وربالاتهم أسباب الاضمحلال وعلاماته .

وقد كتب بعض العلماء والفكرين عن المسلمين قبل ذلك ككتابا عن السياسة والإدارة
مثل الفيلسوف أبى نصر الفارابى في « السياسة المدنية » وابن تيمية ورسالته « السياسة
الشرعية في اصلاح الراعى والرهية » والإمام أبى حنبله محمد بن محمد الغزالي في كتابه
« التبر للسيوك في نصيحة الملوك » . والعالم الجليل الذى كتب كتاباً مفيداً من هذا الباب
هو تاج الدين عبيد الوهاب السبكي المتوفى سنة ٧٢١ هـ بعنوان « معيد النعم ومبيد
النقم » ، وكتب أبو بكر محمد بن محمد بن الوليد الفهرى للطرطوشى للملكى كتاباً
بشأن هذا الموضوع وسماه « سراج الملوك » كما صنف نظام الملك (قتل ٤٨٥ / ١٠٩٢ م)
وهو وزير ملكشاه كتاباً سماه « سياستنامه » وكتب في هذا الموضوع أيضاً « كوجى

بك « مستشار السلطان مراد الرابع والسلطان ابراهيم الأول عدة رسائله وأشار فيها الى ضعف السلطة التركية في زمانه .

ومن بين الذين كتبوا في هذا الموضوع كان الشيخ حسن كافي الانصارى في رسالة سماها « اصول الحكم في نظام العالم » وكتبها أولاً باللغة العربية ثم ترجمها بناء على رغبة المستولين إلى اللغة التركية. ودرس الانصارى تلك المسائل والقضايا بما تستحقه من جد .

مرض الانصارى في هذه الرسالة نظرياته وآراءه في نظام المجتمع والدولة، وذلك يتعلق في الدرجة الأولى بالدولة العثمانية، ولكنه لا يهدف بها خلق نظام اجتماعي جديد، أو بحثاً في فلسفة الدولة مثل ما قام به مثلاً ابن خلدون في مقدمته، بل يحاول أن يحل مشاكل الوضع الذي كان يباثراً آنذاك في البوسنة والدولة العثمانية وأن يشير إلى العوامل التي يمكن أن تحفظ مجد العثمانيين وقوتهم، وبالآخرى يشير إلى الأخطاء التي تقود لاحتمالاً إلى انحطاط المجتمع والدولة .

وفي هذا التحليل تبديده بتصرفات أجهزة الدولة وعنسب السلطة كالأمراء والباشوات وفواد الجيش، بل يمكننا القول أنه كان يقصد بتقدمه هذا على جهاز إداري في الدولة بما في ذلك السلطان نفسه أو ولي الأمر أياً كان لقبه .

ومع ذلك فهو يعرض فكرته على أنها يمكن أن تطبق كذلك على الإمامة التي يتوطنها المسلمون، بل وعلى المناطق التي يعيش فيها غير المسلمين .

ونحن نجد في هذه الرسالة شيئاً من التناقض فالذليل يتحدث عن ضعف المجتمع في طريق الانحطاط بسبب الفساد وتهمان العمالة والظلم والطغيان وإحلال التنظيم وعدم مراقبة الجيش، وبسبب الالتفات إلى التعة واللهو والرغبة في النساء واستخدام الرشوة

وما أشبه ذلك . على حين أنه في الوقت نفسه ينسب إلى كبار المسئولين صفات الايمان
والعدالة والتنظيم والتواضع والبساطة في الحياة والتقدير في المسكر وأعمال الحـبـر
وقيام النظام واعادة السلام والأمن والتقدم . الخ .

وقد ظهر التناقض في أن كل شيء بدأ على مايرام عند الحكام بينما نرى المجتمع يسير
بخطوات سريعة نحو التدهور .

ويمكن أن يسر هذا المسلك من المؤلف على ضوء منهجه وفي ظروف الحياة في
عصره .

كان للشيخ حسن كافي منهجه الذي يعتمد على أساسين :

الأول . العمل على العودة بالاسلام فكراً وسياسياً إلى عصره الأول .

والثاني . الجراءة في الحق وهي ضرورة لتحقيق الأساس الأول .

ولما لم تكن لديه تلك الجراءة ليقول ما يقصد بصراحة وليوجه تقدمه إلى الجهات
العليا - خوفاً من الدسائس في القصر السلطاني، وعند الأمراء وخوفاً من أن يصله،
«الحفيظ الحريري» المهدي من قبل السلطان لكل ساخط أو ثائر أو مشرد أو حق
مصالح، وأكل من يمرض ارادله، وبسبب عمليات الاغتيال المختلفة نجده يدافع عن
السلطان وبعض الوزراء والأمراء الذين كانت سيوفهم وخناجرهم تلوح فوق رؤوس
فرسان البوسنة .

وليس هذا فقط بل كان يمدحهم ويرفع من قدرهم ومكاثمهم في مقدمات تأليفاته
أو خاتماتهم، مقدمات لهم نياشين المجد والنصر والعدل والحكمة والتنظيم، والأعمال
الجيرية و... الخ .

لقد كان الشيخ حسن يرى أن الجراءة لا بد أن تكسب شيئاً من أسلوب سياسي

ومهارة تملو دسائس الحاقدين، ولا بد أن يستعمل شيء من الحيلة لتنفيذ فكرته، وأن هذا الأسلوب وهذه المعاملة لا بد منها لتحقيق الأساس الأول.

أما للسائل التي ناقشها الاقتصارى في هذه الرسالة فالتنا نجدها في بعض المصادر العربية. وأول ما ناقشه الاقتصارى في الفصل الأول من رسالته كانت مسألة المدالة عندما قال: «الأصل الأول في سبب نظام السلطنة وامتدادها، العمدة في المدالة وحسن السياسة». وناقش مسألة تفويض الامور إلى أهلها ومسألة أداء الامانة واستعمال الأصلاح. وتجد هذا عند ابن تيمية في كتابه «السياسة الشرعية في اصلاح الراعى والرعية» التي تحدث أولاً عن استعمال الأصلاح في الولايات وأداء الأمانات (١).

ومسألة العدل نجدها أيضاً في كتاب «سراج الملوك» للطرطوشى (٢)

ومسألة تفويض الامور إلى الأصلاح نجدها عند السبكي (٣) كما ناقش الاقتصارى مسألة اختيار وزير عادل مصلح ونجدها عند الطرطوشى أيضاً (٤). وجعل الشيخ

(١) السياسة الشرعية ص ١٧.

(٢) في الباب الحادى عشر في بيان معرفة الحصال التي هي قواعد السلطان ولايات لها دونها وعند ذلك يقول: «فأول الحصال وأحقها بالرعية العدل الذى هو قوام الملك ودوام الدولة» ص ٥١-٥٤، كما تحدث عن العدل في مناسبات شتى مثل: قالوا ظفر الملك بدموه على حسب عدله في رعيه» (ص ٧١ وفى ص: ١١٨ و ١١٤ - ١١).

(٣) في كتابه المذكور «معيد النعم ومبيد النقم» الذى يحتوى على ما يحفظ للإنسان في حياته النعمة والذى لا يحقق إلا بأن يقوم كل امرئ بما يجب عليه ويؤدى حق العمل الذى خص نفسه به وبناء على ذلك قسم الناس إلى مائة وإثنى عشر صنفاً (أو ثلاثة عشر) حسب منهم في الحياة.

(٤) «سراج الملوك» ص ٧٠، ١٤١.

حسن كافي الاقتصارى الأصل الثانى من رسالته خاصاً بالمشاورة والاستشارة فى رأى والتدبير، وكذلك فعمل ابن تيمية فى الفصل السابع من رسالته المذكورة «الرسالة الشرعية» كما تحدث الطروشى عن أهمية المشاورة فى صفحات من كتابه المذكور (١).

وقسم الاقتصارى الناس حسب عملهم إلى أربعة أصناف ، ونجد ابن تيمية صنفهم إلى أولى الأمر والعلماء وهم الذين إذا صلحوا صلح الناس (٢) ، وفى مكان آخر أن الناس أربعة أصناف (٣) . كما نجد نوعاً من تقسيم الناس حسب أعمالهم لدى الطروشى أيضاً (٤).

تناولت رسالة الاقتصارى مسألة تبجيل العلماء وتحدث عنها ابن تيمية (٥) . أيضاً وناقش الاقتصارى بؤادر انحطاط الدولة كما ناقشها الطروشى (٦) وبحث الاقتصارى عن استعمال آلات الحرب والقتال وتدريب العسكر وتحريضهم كما تحدث عن هذه المسألة للهمة الطروشى (٧) . وبالرغم من ذلك فإن الاقتصارى لم يقلد القدماء فى هذه الرسالة ، بل كان له منهجه الخاص . وذلك أنه وإن لم يجب عن باله مرة واحدة الشرعية ، لكنه لم يتكلم عنها كما جرى عند ابن تيمية والسبكي والطروشى ، بل أخذها كحقيقة ثابتة لا بد من تطبيقها . وربط للواد التاريخية فى رسالته بالحقائق الواقعية التاريخية التى حدثت فى عصره وكان أكثر من الآخرين معالجة للوقائع البائرة .

-
- (١) «سراج الملوك» ص ٥٣ كما خصص الباب السابع والعشرين للمشاورة والنصيحة.
 - (٢) «السياسة الشرعية» ص ١٦٢ .
 - (٣) نفس الكتاب ص ١٦٧—١٦٨ .
 - (٤) «سراج الملوك» ص ١٣٨—١٣٩ .
 - (٥) السياسة الشرعية لابن تيمية ص ٥٠—٥١ ، ١٦٩ .
 - (٦) سراج الملوك للطروشى ص ٥١—٥٥ .
 - (٧) نفس المرجع ص ١٧٣ .

المخطوط :

اعتمدنا في تحقيق نص رسالة « أصول الحكم في نظام العالم » على المخطوطة رقم : ١٩٢٨ ومخطوطة رقم : ٢٢٧٠ بمكتبة المغازي خسرو بك بسرايفو، وسنرمز إلى المخطوطة الأولى بالحرف «ا» في حين سنرمز إلى المخطوطة الثانية بالحرف «ب»

ومخطوطة رقم ١٩٢٨ مكتوبة بخط نسخي على ٢٥ صفحة كسبته جنقي زاده مصطفى بك بن فيض الله بن اسماعيل في اليوم الثالث والعشرين من شهر شوال لسنة تسع وثمانين ومائة وألف . وهي مخطوطة رديئة تحتوي على أخطاء كثيرة .

ومخطوطة رقم ٢٢٧٠ مكتوبة بخط عثماني جميل واضح ومتن الرسالة مكتوبة باللغة العربية بالحروف الكبيرة وشرح الرسالة مكتوب باللغة التركية بالحروف الصغيرة ولا يعرف كاتبها ولا تاريخها إذ ليس هناك إشارة ما إلى ذلك . وهذه المخطوطة في ظننا أقدم عهداً بكثير من المخطوطة السابقة وتمتاز بالهدمة البالغة . وقد اعتمدنا عليها اعتماداً كبيراً إلى جانب مخطوطة جنقي زاده مصطفى للذكورة .

أصول الحكم في نظام العالم

حمدا لك (اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء) (١) ، وصلاة على رسلك محمد سيد الأنبياء ، وعلى آله وأصحابه أولى الأبصار والآراء ، ما دامت الأرض ودارت السماء .

وبعد : فإن الفقهير إلى الله البار ، كافي الاقتصارى (٢) ، أعانه الله فيما استمانه (٣) وصانه عما شأنه ، يقول :

لما شاهدت سنة أربع وألف (٤) في نظام العالم خلا ، وانتظام أحوال بني آدم زللا ، خصوصا في دار الاسلام (٥) أصلحها الله وسلها إلى يوم القيام . قليلا بعد قضاء السنة والفرض ، (وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض) (٦) فألهمني بلفظه شيئا من الحكم (٧) وانمضي من فضله مالم أكن أعلم ، لقي على قلبي قوله (أن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) (٧) وشرح صدرى للتأمل في أحوال الناس وأسباب تغيرهم ، فلما تأملت بمونه اللطيف ، فيما كان منذ عشرين سنين ونيف انكشف لى في ذلك وجوه وأسباب ، والله أعلم بالصواب ،

(١) سورة عمران آية : ٢٦ .

(٢) حسن بن طورخان بن داود بن يعقوب الاقتصارى الذئبى .

(٣) في نسخة « ا » — استغاثة .

(٤) ثار أمراء الاردل والافلاق ضد الأتراك وبدأ البنى والفساد وخرج السلطان محمد بن

مراد بن سليم بن سليمان للفرزة المعروفة بفرزة « أكر » .

(٥) يقصد المؤلف الدولة العثمانية التركية .

(٦) سورة الانعام ، آية ٢٩

(٧) في « ب » الحكمة .

(٨) سورة الرعد آية : ١١ .

توجه الأول :

الإهمال في العدالة (والضبط بحسن السياسة) (١) وسببه عدم تفويض الأمور إلى أهلها (٢) .

الثاني : السامحة في المشاورة (والرأي) (٣) والتنديب وسببه المعجب (والسكبر) (٤) في السكبر واستكفاهم عن مصاحبة العلماء والحكماء .

الثالث : الساهلة في تدبير العسكرو استعمال آلات الحرب عند محاربة الأعداء وسببه عدم خوف العسكر من الأمراء ، ثم سبب جميع الأسباب ، وغاية ما في البال طمع الارتشاء ورغبة النساء ، فاستخرت الله تعالى بأكيا ، وعن نكبات الدهر شاكيا ، فاخارني أن أكتب مختصرا مفيدا في هذا الباب يشمل على كلمات ، من جوامع الحكم ، في تجديد قواعد النظام ، وكتابا سديدا يتضمن خلاصة أقوال أولى الألباب من للمارف والحكم في تأييد بيان الانتظام ، فاستصفيته من كتب قدماء العلماء وكبراء الحكماء ، خصوصا من أنوار التنزيل وروضة العلماء (٥) ، جملة الله العلي الأظى عناية للأمراء ، وهداية للوزراء ، وأسوة للحكماء ونصرة للفقراء ، وربته على مقدمة وأربعة أصول وخاتمة . وسميته بأصول الحكم في نظام العالم (٦) ، ثم

(١) سقطت من نسخة «ب» .

(٢) في نسخة «ب» إلى أهلها .

(٣) سقطت من نسخة «ا» .

(٤) سقطت من نسخة «ب» .

(٥) «٠٠٠٠» ويسمى أنوار التنزيل وروضة الأخبار للزعمري «أصول الحكم في نظام العالم باللغة التركية ص ٥ للاحصاري وفي «كشف الظنون» لحاجي خليفة المجلد الأول ص ١٨٩ «أنوار التنزيل وأسرار التأويل» في التفسير للفاضل الإمام العلامة ناصر الدين أبي سعيد عبد الله بن محمد البيضاوي الشافعي .»

وفي ص ٩٢٢ «روضة العلماء للشيخ أبي علي حسين بن يحيى البخاري الزندوستي . . . سميت روضة العلماء وكان اسمه الأول روضة المذكورين» .

(٦) في نسخة «ب» سميت بأصول الحكم في نظام العالم وربته . . .

خدمت به لحضرة الوزير المشير الصالح ، والأمير الكبير السامح خلاصة الوزراء ،
 سلالة الكبراء ، للأمر بحراسة حدود دار الاسلام بالسيف والقلم المنصور برياسة
 الولاية الاعلام من أرباب الطبل والملم ، رئيس المسامر للصورة السلطانية حافظ
 الدولة القاهرة العثمانية مسمى الوزير التقى المحافظ أحمد باشا (١) حفظه الله عملا يشاء ،
 ويسره لكل ما يشاء (٢) ، صنه اللهم عن ريب للنون ، أعطه عمرا ينتهي فيه
 السنون (٣) ، والله المستعان وعليه التكلان .

للقسمة

في سبب نظام العالم : وهو انه تعالى لما قدر بقاء العالم ببقاء نوع الانسان إلى
 وقت معلوم ، وبقاؤه بالتناسل ، وهو بالماشر والتعامل ، احتيج إلى أسلوب يتضبط
 به أمر الانسان على وجه أحسن في جميع الازمان . فيالهام من الله وتوفيق (٤) رب
 ودماء العلماء وحكاماء القدماء بنى آدم على أربعة اصناف ، صنف السيف وصنف للقلم ،
 قسنت للحرث والزراعة وصنف للحرفة والتجارة ، وجهلوا التصرف في الجميع (٥)
 ملكا وإمارة .

أما الصنف الأول فهم الملوك والسلاطين ونوابهم وسائر المسكر ، فالواجب
 عليهم ضبط جميع الاصناف والحفاظة بالمدالة (٦) وحسن السياسة بتدبير العلماء والحكاماء ،

(١) هو بوسنوى أيضا .

(٢) في النص « ٠٠٠ ويسره كل ما يشاء ٠٠٠ »

(٣) لم يذكر الاقتصارى في شرح رسالته « أصول الحكمة في نظام العالم » باللغة التركية كلمات
 مدح الوزير أحمد باشا إذ أنه قدم شرح الرسالة إلى السلطان وكبار المشولين الآخرين عن طريق
 الوزير الأعظم إبراهيم باشا نوسهرلى .

(٤) في نسخة «ب» — وتوفيقه .

(٥) في نسخة «ب» ٠٠٠ والكل .

(٦) في نسخة «ب» ٠٠٠ بالعدل .

وللقاتلة والمحاربة لدفع الأعداء ، والعمل بسائر ما لا بد منه للإمراء ، كما
سيجىء أن شاء الله تعالى .

وأما الصنف الثاني فالعلماء والحكماء ، وسائر أصحاب الدعاء ، من الصلحاء
والضعفاء ، فعليهم محافظة أوامر الله ونواهيهِ بالكتابة (١) والرواية وتبليغ أحكام
الشريعة إلى جميع الأصناف ، والرأى والتدبير وللشاوره وتعليم الدين والديانة ،
وترغيب الخلق على العبادة وحسن للعاشرة والدعاء بالخير لصلاح الجميع عموما
ولصلاح السلطان خصوصا . وأما الصنف الثالث فأهل الحرث والفرس المعروف في
في زماننا بالرعايا ، فعليهم السعى والجهد في أسباب العاش بالحرث والفرس والدواب
والانعام ، لكفاية جميع الأصناف . فهذا أفضل الأعمال بعد العلم والجهاد .

وأما الصنف الرابع فأرباب الصناعات وأصحاب التجارات ، فعليهم السعى فيما
لا بد منه للأصناف من الأمور الصناعية وأحوال التجارة وما يناسبهم مما يتفق به
الخلق وأما للكلف الخارج عن الأصناف فمند الحكماء الإسلامية لا يترك على حالة
بل يجبر على أن يكون من أحدها وعند بعض الفلاسفة قيل : يقتل لأنه يكون كلالا
على الناس ، فنبات كل صنف على عمله المخصوص له يوجب نظاما في الملك وأعماله
يوجب خلافه . فلم من هذا أنه لا ينبغي أن يكلف أو يجبر صنف على عمل صنف
آخر لأنه يوجب اختلالا وتشوشا كما وقع في هذا المصير لجبر الرعايا وأهل الصناعات
على المحاربة بإهمال للمسكر فيها (حيث أهمل أهل المسكر في دفع الأعداء ثم اجبروا
الرعايا وأهل الصناعات على المحاربة فتمطل أمر الزرع والحرث فتشوش أمر الماش
على الكل وظهر القحط والتلاء وتوجه النعم وعم البلاء ولمعنى أن هذا خلل عظيم في
الملك أصلح الله بمنه منه (٢) . وهذا من سنة احدى وألف إلى هذا الآن . وما دام

(١) في نسخة «ب» . . . الكتاب .

(٢) كتبت هذه العبارة على هامش المخطوطة باللغة العربية أما باللغة التركية فذكرت في مكانها

محافظة السلطان على الترتيب القديم بموجب الشرع لتفويض بيزاد الملك نظاما ، وأحوال
بن آدم ، والسلطنة قوة ، وإذا وقع الاهال في رعاية هذا الآسواب ، وحماية ذلك
السمت للرغوب ، يسرى الفساد في الملك والضعف إلى الامارة في الجوانب الاربية ،
وربما يوجب الانتقال إلى الغير . اللهم احفظ للمالك الاسلامية من الاختلال ، وأمن
الدولة العثمانية من موجبات الانتقال آمن ياذا الجلال والجلال .

الاصل الأول

في سبب نظام السلطة وامتدادها .

العمدة فيه العدالة وحسن السياسة . قال الله تعالى (ان الله يأمر بالعدل
والاحسان) (١) ، يندرج فيه جميع أمور الخير للرعية والسلطان .

قال النبي عليه السلام : زين الله السماء بالثلث بالشمس والقمر والنجوم
وزين الأرض بالثلاث : بالعلماء والطر ومطمان عادن ، وقال عليه السلام العدل من
الهدى وقوة السلطان . قيل : من حسنت سياسته دامت رياسته . قيل لانتم الرياسة
إلا بحسن السياسة ، يقال : ثبت الملك بالعدل .

ارد شيربلك : إذا رغب الملك عن العدل رغب الرعية عن الطاعة ، وعنه :
لاسلطان إلا برجال ولا رجال إلا بالمال ولا مال إلا بعمارة ولا عمارة إلا بعدل وحسن
السياسة ، قيل : لا يكون العمران إلا حيث يعدل الساطان .

قيل : دولة للوك في العدل ، قيل : خير لئلك من احسن في فعله ونيته وعدل
في جنده ورعيته . سأل يزدجرد حكيا باصلاح الملك ، قال : الرفق بالرعية وأخذ
الحق منهم بغير عنف والتودد إليهم بالعدل وأمن السبل وانصاف للظلم . عبد الله
بن ظاهر سأل بعض الزهاد كم تبقى هذه الدولة فينا ؟ قال مادام بساط العدل في

(٢) سورة النحل ، آية : ٩٠

هذا الايوان ، (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) (١) ، قيل من طال غفلته زالت دولته (٢) .

قيل : الغافل من الملوك (من) (٣) اجتمع فيه خصلتان الانهماك في اللذات واضاعة الفرص . بعض الحكماء : لاسانس مثل العقل ولا حارس مثل المدل ولا سيف مثل الحق ولا عون مثل الصديق قيل : المدل حصن وثيق في رأس جبل أنيق ، لا يحطمه السيل (ولا يهدمه منجنيق) (٤) ، قيل : الملك العادل مكنون بمون الله وعروس بمين الله . قيل لما مات النوشروان طافوا بتابوته في جميع مملكته وينادى منادى « من له حق علينا فليأت » فلم يوجد أحده عليه درهم في ولايته . فيا عجباً من هذه القصة العجيبة ، فان فيها لعبرة عظيمة (٥) للملوك الاسلام وعبرة كبيرة لامرأته لو كانوا يتفكرون :

ثم لا بد للسلطان من أن يفوض كل أمر إلى أهله كما أشار إليه قوله تعالى إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها (٦) وإلا فسدت قلوب للمستحقين عليه فيرتب الخلل كما وقع في هذا الزمان ، فلن ألف من العلماء والنصحاء للملك قليل وعدو واحد كثير : ابن رومي :

« فما بكثير الفسادخل وصاحب وإن عدوا واحدا لكثير »

قال عليه السلام : من ولي واحدا وفي رعيته أولى منه فقد خان رسوله وجماعة

(١) سورة الرعدة آية: ١١

(٢) في النص « ٠٠٠ من طال غفلته زال دولته »

(٣) سقطت من نسخة «ب»

(٤) سقطت من نسخة «ب»

(٥) في نص نسخة «ب»... لعبرة عظيمة .

(٦) سيرة النساء، آية ٥٨

للساميين . قيل : إذا ساد اللثام باد الحكرام . إذا ارتفع الوضيع انضغ الرفيع ، إذا ملك الاراذل هلك الافاضل ، دولة الاشرار عنة الابرار ، ومن أجل التناؤم دولة الاكارم قيل لبرز جهمر : كيف اضطريت أمور آل سامان وفيهم مثلك ؟ قال : استعانوا بأصغر العمال على أكبر الأعمال ، نآل أمرهم إلى ما آل . وفي الجواب تلييه عظيم في هذا الزمان إلى آل عثمان أبد الله تعالى دولتهم (وايقظهم) (٤) إلى اقتضاء الزمان واقتراض الدوران :

ثم لابد للسلطان من أن يختار وزيراً عاذاً مصلحاً ، فإن الوزير إذا صلح صلح للوك وإذا فسد فسد ، اللهم اصلح . قال النبي عليه الصلاة والسلام إذا أراد الله بأمر خيراً جعل له وزير صدق ، أن نسي ذكره وأن ذكره أعانه ، وإذا أراد غير ذلك جعل له وزير سوء إن نسي لم يذكره . وإن ذكر لم يعنيه . قيل لانسأل عن السلطان من هو ، وانظر إلى الوزير من هو . كان لاسكندر وزير قد (١) وزير له مدة طويلة ولم ينهه على عيب فقال له يوما : « لاحتاجة لي في خدمتك فإني إنسان ، والإنسان لا يخلوا من الخطأ والنسيان ، فإن لم تقف مني (٢) على خطأ فأنت جاهل ، وإن وقفت وسترت فأنت خائن . يقال : الأمين من الوزراء من يصحب للوك بالصدق في المناصحة ، والخبائن من يصحبهم بالمدارة واللداهنة .

ثم يجب أن يجعل الملأ والصلحاء وأهل الدعاء ويكرمهم (ويعظمهم) (٣) ويحلب قلوبهم بإحسانه وأنه يسمعه ويستعين بدعائهم ومشاورتهم ورأيهم وتدييرهم ،

(٤) سقطت من نسخة «ب»

(١) سقطت من نسخة «ب»

(٢) سقطت من نسخة «ب»

(٣) سقطت من نسخة «ب»

ويستمد على أقوالهم فوق ما يعتمد على غيرهم (٤) إذ لا يقع منهم خيانة ولا حيلة ولم
 تسمع قط فإيهم ورثة الأنبياء وسبب صلاح الدنيا والمعقب . يقال إنما تقوم الدنيا
 بأربعة يعلم العلماء ، وعدل الأمراء ، وعبادة الصالحاء ، والأسخياء . قال النبي عام
 النظر في وجوه العلماء عبادة وقال عليه السلام : يوزن مداد العلماء ودماء الشهداء
 يوم القيامة ، فلا يفضل أحدهما على الآخر . قيل : خير الأمراء من يجالس العلماء
 وشر العلماء من يجالس الأمراء . قيل : خير للوك من تمكن في قلوب رعيته محبته
 كما تقرر هيبته بخمسة أشياء : إكرام شريفها ورحمة ضيفها وإعانة لهيفها وكف
 عدوان عاديها (وتأمين سبل رائجها وغايتها) (١)

ولا بد للملك أن يكون مبسوط اليد فإن الخلق لا يتبعه إلا لترض دينوى
 ولا يكون إنامه وإحسانه مخصوصاً بطائفة لأن الإمامة موقوفة على المسكر والعلماء
 والحكماء والبلغاء والفقراء وأهل الحرفة .

قيل : الإنسان عبد (٢) الإحسان . بعض الحكماء : العجيب ممن يشتري العبيد
 كيف لا يشتري الأحرار بفعله ؟ الشافى رحمه الله (نظام) :

أحسن إلى الأحرار تلك رقابهم وخير تجارات الكرام اكتسابها (٣)

على رضى الله عنه : أحسن الكنوز محبة القلوب . قيل : من حفظ ماله ضيع
 رجاله . قيل لاسكندر : لم لا تكثر الأموال كما كان تفعل للوك ؟ .

فقال « كنوزى هم أصحابى ، أكنز الأموال فيهم لافى البيوت . قيل : هـ

(١) فى نسخة «ب» — «... على قول غيرهم» .

(٢) سقطت من نسخة «ب»

(٣) فى الأصل : «... عبيد الاحسان»

(٤) وزن هذا البيت غير مستقيم تماما .

ليس له إحسان ليس له إخوان . أبو الطيب (نظم) :

لمن تطلب الدنيا إذا لم ترد بها سرور محب أو إساة محرم
ولقد أحسن من قال (نظم)

حسن الفعل من الصلصال (١) مقصود وللأ بالفضل مذموم ومحمود
فإنه يرغم (٢) الإنسان أربعة العلم والحلم والإحسان والجلود
البسقى :

إذا لم يكره ملك ذاهبة فدعه فدولته ذاهبة
وله (نظم) :

من جاد بالمال مال الناس قاطبة إليه وللإ للإنسان فنان
من كان للخير مناعاً فليس له على الحقيقة إخوان وخلائق

من رقى درجات المهم ، عظم في عيون الأمم ، من كبرت همته كثرت قيمته .
بعض الحكماء : تلك للخلق كالجبل للأرض .

فلا بد من أن يكون وقوراً حلماً وصبوراً أميناً لا مستهجلاً في عقوبة رجل إذا
سمع في حقه شيئاً والا لا يأمن منه أحد فيفسد قلوب الرعية عليه . وإذا جلس مقام
أبيه لأن الحب والبغض يتوارثان فإنهم لا يكادون يخلون بينه وبين مكروهه ولا يقدم
أحداث القوم عليهم لئلا يفسد قلوبهم عليه . بل للملك أن لا يجالس الأحداث مطلقاً

(١) يريد بصلصال الإنسان باعتبار أصله .

(٢) في الأصل : « . . . » فإنه قد يرغم »

قيل : مجالسة الأحداث منسدة الدين .

فصل ، قيل : علامة أدبار دولة الملوك (١) ان يصحب الأحداث ومن لا عبرة له بالدواقب ، وأنت يقصد أهل مودته بالأذى وأن ينتقص خراجه عن قدر مؤنه ملكه وأن يكون تقريرية وتبعيده تاهوى لا للرأى والاستهانة بناصح العلماء .
قيل : علامة أدبار الإمارة : كثرة الطاعون وقلة العسارية . يقال ثلاثة تاجر الهلك إلى الملك :

— أن يتعاصر على عقل الملك اللذات والشهوات .

— وتحاسد الوزراء للمقتضى لتحالف الآراء .

— ونكول الجنود من الجلال مع ترك الناصحة في الجهاد . وأظهر العلامات : ترك الحمل بأحكام الشريعة وعدم المبالاة بتنفيذها وأفرجها : غلبة الظلم وشيوعه من العسكر وعدم المبالاة بدفعه ، فإذا وقع شيء من هذه العلامات من الملك أو ظهر في ملكه يجب على الوزراء والعلماء أخباره (في الحال) (٢) وعلى الساطان دفعه وتداركه بلا إهمال وإلا يفسد التوجه والمهجوم كما يمكن دفع المهجوم (٣) .

ابن عباس رضى الله (رفته) (١) قال النبي عليه عاصيه السلام أن من اشترط الساعة : اضعاء الصلاة واتباع الشهوات وكون الامراء خونة والوزراء فسقة فوشب سلمان رضى الله وقال باني وأمي أن هذا لسكائن ؟ قال نعم يا سلمان عندها قلب للؤمن يذوب كما يذوب الملح في الماء ولا يستطيع أن يغير . قال أو يكون ذلك ؟

(١) في نسخة «ب» الملك

(٢) سقطت من نسخة «ب» /

(٣) العبارة مضطربة — غير واضحة تماما ولعلها « والافعد قلما »

الهموم . . .

(١) سقطت من نسخة «ب»

قال نعم يا سلمان أن اذل الناس يومئذ للمؤمن يمشى بين أظهرهم بالخسافة أن تسلم
اكلوه وأن سكت مات بنيفظه ، اللهم أذفع عن الدولة القاهرة العثمانية هذه للعلامات
بحرمة حبيبك محمد سيد السادات ، آمين يا قاضي الحاجات .

الاصل الثاني : للشاورة والاستخارة في الرأى والتدبير (٢).

قال الله تعالى (وشاورهم في الامر) (٣) ولا يخفى أنه عليه السلام كان اعلمهم
بجميع الامور وإنما قال هذا ليكون سنة وطريقة لامته . فينبغى للسلطان ونوابه
أن لا يستبد (٤) برأية بل يستشير كثيرا من العلماء والعقلاء وأهل التجربة من
أركان الدولة نحرزا عن الخطأ . قال النبي علم (٥) للمستشير معان . عمر رضى الله
عنه : ما تشاور قوم إلا هودوا إلى أرشد أمرهم . سليمان عليه السلام . يا بني لا تقطع
أمرا حتى تؤامر مرشد فاذا فلت فلا تحزن . قيل : متى بدأ بالاستخارة وثى
بالاستشارة لحقيق أن لا يضل رأية (٦) . يقال : من اجتهد رأيه واستخار ربه
واستشار صديقه قضى الله في أمره ما أحب . الحسن : الناس ثلاثة : رجل ونصف
رجل ولا رجل نأما الرجل فذ الرأى وللشورة وأما نصف الرجل فالتى له رأى ولا
يشاور وأما الذى ليس برجل فمن لا رأى له ولا يشاور . قال عليه السلام لاصواب
مع ترك للشورة . قيل لا رأى لمن تفرد برأيه . يقال اعقل الرجال لا يستغنى عن

(١) في نسخة «ب»... في المشاورة والاستخارة والرأى والتدبير .

(٢) سورة آل عمران آية: ١٥٩

(٣) في نسخة «ا» — ١٠٠٠ أن لا يتشمر .

(٤) عليه السلام .

(٥) في نسخة «ب» زيادة — اللهم انى أستخيرك بحملك وأستقدرك بقدرتك وأسألك
من فضلك العظيم فانك تقدر ولا أقدر وتعلم ولا أعلم وأنت علام الغيوب، اللهم إن كنت تعلم
أن هذا الأمر خير لى فى دىنى ومعاشى وعاقبة أمرى فأقدرلى ويسره لى ثم بارك لى فيه وان
كنت تعلم أن هذا الأمر شر لى فى دىنى ومعاشى وعاقبة أمرى فأصرفه عنى واصرفنى عنه
واقدرلى الخير حيث كان ثم أرضنى به .

مشاورة أولى الالباب وأفره الدواب عن السوط ، وأورع النساء عن الزوج . على
رضى الله عنه نم للوازية للشاورة وبئس الاستمداد الاستبداد الارجاني (نظم) :

شاور إذا نابتك نائمه يوما وأن كنت من أهل للشورات
فالمين تنظر منها ماني ونأي ولا ترى نفسها الا بمرآة

كان عمر رضى الله عنه إذا نزل به الامر للمضل دعى للفتيان واستشارهم وقال : هم
أحد قلوبا . قيل رأى الشيخ كالزند الذى اتلم . ورأى للشاب كالزند الصحيح يورى
بايسراقتداح . الحكماء : اجمل سرك إلى واحد ومشورتك إلى الف . فيلسوف
الهند : بالرأى ينال ما ينال بالقوة والجنود . قيل : الرأى الشديد (١) ، أحمى من
الأيد الشديد . قال للنصور لولقة : خذ عني الثين لا تقل من غير تفكر ، ولا تعمل
من غير تدبير (٢) . قيل : الفكر للمقول امضى من الباتر للصقول . فضل بن سهل :
الرأى يسد ثلم السيف والسيف لا يسد ثلم الرأى . الحكماء : حازم فى الحرب خير
من لف فارس ، فان الفارس يقتل عشر أو عشرين ، والحازم قد يقتل جيشا كله مجزمه
وتدييره . قال النبي عليه السلام « : الحرب خدعة » . قيل إذا لم تغلب فاحتل .
الحكماء : كن بجيلتك أوثق منك بنجدتك ، وبمحذرك أفرج منك بشدتك .
قيل للسكر ابلغ من النجدة .

قيل (نظم) :

الرأى قبل شجاعة الشجيمان هو أول وهمي المهل الثانى (٣)

لقمان : يا بني شاور من جرب الأمور فإنه يعطيك من رأيه ما قام عليه بالتلاء

(١) فى نسخة «ا» — الرأى الشديد .

(٢) فى نسخة «ا» — «٠٠» من غير تدبير .

(٣) مطلع قصيدة ديوان المتنبي .

وأنت تأخذه بالجمان . الاسكندر : لانستخقر الرأي الجزيل من الرجل الحقير فإن
الذرة لا يستأث بها الموان غاصها (أنظر إلى ما قال ولا تنظر إلى من قال) (١)
فصل قيل يفسد التدبير ثلاثة أشياء :

— أحدها كثرة الشركاء فيه لانتشار التدبير (وبطلانه) (٢) .

— والثاني تحاسد الشركاء لدخول الهوى والنرض .

— والثالث أن يملك التدبير من غاب عن الأمر المدير فيسه دون من باشره

فإنه يحقد للمباشر الحاضر (٣) .

على رضى الله عنه لاندخلن بخيلا (البنة) مشورتك (٤)، يدل بك عن الفضل ومدلك
الفقر، ولا جباناً يضمفك عن الأمور ، ولا حريصاً يزين لك الشر ، فإن الجبن والبخل
والحرص يجمعها سوء الظن بالله . فدل ما ذكر من محاسن الصمات وأحسن
الاعتبارات ، (على) (٥) أن الرأي والمشورة من أهم المهمات ، وآتم المختارات ،
وقد أهملنا في هذه الأيام ، وأسقطنا عن محل الاهتمام ، فلذلك توجه الخلل إلى
الأموز ، ووقع الزلل والفتور ، صرف الله قلوب الأمراء والوزراء ، إلى أنجح
آراء العلماء والمقلد ، وألف برحمته بين قلوبهم وجمالهم مصيبين في جميع خطواتهم
آمين يا أرحم الراحمين . (بجرمة محمد وآله) (٦) .

(١) سقطت من نسخة « أ » .

(٢) سقطت من نسخة « ب » .

(٣) في نسخة « ب » — . الحاضر المباشر .

(٤) سقطت من نسخة « أ » .

(٥) سقطت من نسخة « أ » .

(٦) سقطت من نسخة « أ » .

الأصل الثالث : وجوب استعمال آلات الحرب والقتال وتدمير المعسكر

ومخريضهم .

قال الله تعالى (يا أيها الذين آمنوا خذوا حذركم) ، (١) أى تيقظوا واستعدوا
وقال الله (وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم) ، (٢) والحذر كل ما يتحصن به الغازي
كالدرع ونحوه ويشمل الحزم . والسلاح معروف فأحذر كل منهما فرض لازم فلا يجوز
تركها عند المحاربة ، وقد شاع في هذا الزمان تركها عند الرحف خصوصاً في ديارنا (٣)
وذلك لعدم مبالاة أمراء المعسكر باستعراض جنودهم بأنفسهم وإيهامهم في ذلك . وقد
وجب على الأمير أن يستعرض جلده بنفسه فينظر في درعهم وعددهم ولا يعتمد
في ذلك على أحد غيره كما كان هذا عادة للدوك السالفة .

استعرض اسلندر جنده فقدم إليه رجل على فرس أخرج لأمر باسقاطه فضحك
الرجل فاستعظم ضحكك في هذا المقام وقال (له) (٤) ، ما أضحكك وقد أسقطتك
قال أتعجب منك ، قال كيف ؟ قال تحمك آلات الحرب وتحق آلات التيسات بم
استقبلني ؟ فأجاب بقوله وأثبتته .

استعرض عمرو بن ليث عسكره فر به رجل على فرس أعجب فقال عمرو لمن
الله هؤلاء ، يأخذون اللال ويسمون أكفال نسائهم . فقال الرجل ، أيها الأمير لو
نظرت إلى كفل امرأتى لرأيت أهنل من كفل دابتي ، فضحك وأمر له بمال وقال
خذه وسمن به كفل دابتك وكفل امرأتك . وبالجملة إن استعراض الجنود وتبج

(٢) سورة النساء آية ٧١

(٣) سورة النساء آية ١٠٢

(٤) «في البوسنة» شرح أصول الحكم «للاحصارى» ص ٣٩

(٥) سقطت من نسخة «ب»

حذرهم وأسلحتهم واتخاذها ثم استعمالها هي السعدة في المحاربة والمقاتلة . فلا بد من الاهتمام في هذا الأمر خصوصاً في هذا العصر . ولعل ما شاهدناه في هذا التاريخ من المعجز عن المقاومة مع الكفار ليس إلا لإهمال هذا الأمر الخطير والفرص الكبير . وقد جوبنا في ديارنا (١) من خمسين سنة إن أعداءنا من أهل الحرب كلما اخترعوا نوعاً من الأسلحة واستعملوه غلبوا علينا ثم إذا اتخذنا مثله واستعملناه غلبنا عليهم بعون الله (الاملام) (٢) لقوة الإسلام . أما في هذا الزمان فاعداء بالفوا في استعمال بعض الأسلحة الحديثة كالبنادق ونحوها ، وأهمل عسكرينا في اتخاذ مثلها واستعمالها (٣) بل أهملوا في استعمال الأسلحة القديمة أيضاً ، فوقعوا فيما وقعوا هدام الله إلى الخير ونصرهم .

لعمري . المدة ليوم الشدة ، وعنه : من لم يركب الأهوال لم ينل الآمال .

ثم يجب التحريض على القتال . قال تعالى (حرض للؤمنين على القتال) (٤) وكذا يجب عنهم على الصبر والثبات عند القتال ، قال تعالى (فإن يكن منكم مائة صابرة يغابو مائتين وإن يكن منكم ألف يغابوا ألفين بإذن الله والله مع الصابرين) (٥) أي بالصبر والعمرة . قال عليه السلام « لا تتمنوا لقاء العدو واسألوا الله العافية فإذا لقيتموهم فاصبروا واعدوا أن الجنة تحت ظلال الصيوف » . على رضى الله عنه . الصبر مطية الظفر . قيل : للقتاليس كما يجذب الحديد يجذب الصبر الظفر . قيل : بالصبر على أيس الحديد ، تنعم في الثوب الجديد ، قيل لبعض بني لئلب : بما نلت ما نلت ؟

(١) « على حدود كرفاتيا » ، شرح أصول الحكم للاقتصاري ، ص ٣٨

(٢) سقطت من نسخة [١]

(٣) في نسخة [ب] (في اتخاذها واستعمالها) .

(٤) سورة الأنفال ، آية : ٦٥

(٥) سورة الأنفال ، آية : ٦٦

عالموا بصبر ساعة. قيل: الصبر درج يفضى بمن عرج إلى الفرج. قيل: الصبر مفتاح الفرج. عظامم الترك قالوا: يلبى للقائد في الحرب أن يكون فيه أخلاق من البهائم، شجاعة الديك وقلب الأسد وحملة الخنزير ووزغان الثعلب وصبر الكلب على الجراحة وحراسة الكركي وحذر الثراب وغارة الثوب. قيل: السلامة في الإقدام واللوث في الإحجام. قيل: الشجاعة صبر ساعة. أفرآسياب للشجاع محب حتى إلى عدوه والجبان مبغض حتى إلى أمه. هذا مشاهدة في حدود الروم خصوصاً في ديارنا (١) فإن بعض أهل الحرب من الكفار إذا شاهدوا الشجاعة من بعض غزواتنا أحبوه ومدحوه وقد يكون أهدوا إليه هدية وإذا أحسوا الجبن من بعض أبنضوه وذموه وقد يكون أرسلوا إليه بعض زى النساء (٢).

قيل: لا تصفر أمر من حاربت فإنك إذا ظفرت لم تحمد وإنت عجزت لم تحذر، ثم يبنى لأمر المسكر أن يوصى (٣) بعضهم ببعض. بعض العرب: مالتينا كتيبة (٤) وفيها على رضى الله عنه إلا أوصى بعضنا ببعض. كتب أبو بكر رضى الله عنه إلى خالد بن الوليد رضى (٥) حين أخرجه إلى أهل الردة، اعلم أن عليك عيوناً من الله تراك (٦) فإذا لقيت العدو فأحرص على اللوث توهب لك السلامة، أوصى الرشيد عبد الملك بن صالح أمير سريره فقال أنت تاجر الله لعباده فكن

(١) «حدود كرفاتيا»، شرح أصول المحكم للاختصاصى، ص: ٤١

(٢) في نسخة «ب» (شيئا من حل النساء)

(٣) في النص... أوصى...

(٤) سقطت من نسخة [أ] - (ت) وكتبت [كبة]

(٥) وضى الله عنه.

(٦) في نسخة [ب] زيادة - ... وتراك.

كالمضارب الكيس إن وجد ربحاً أنجر وإلا إستحفظ برأس المال ولا تطلب النسيئة
حق تحوز السلامة .

ثم السلطان لو اضطر إلى المحاربة بالضرورة (١) لا يتقدم بنفسه بل يكون تحت
رايته فتحصنا بمدده وعدده ويغير لباسه ساعة فساعة . وإذا جلس مكان العدو بالقهر
لا يتركهم أمراء لأن التنصب لا يخرج من قلوبهم . قد شاهدناه في هذا التاريخ (٢)
من أمراء ولاية بغداد وقره إفلاق واردل (٣) فإنهم خذلهم الله قد أظهروا التنصب
من مائة سنة ونيف (٤) ثم لما أحسوا الغفلة اغتموا الفرصة وفضلوا ما فعلوا ولمعري
(لو) (٥) وقع الإهمال في أمرهم بدل عادوا لما اعتادوا ، فلابد من التدارك -
(ربنا أفرغ علينا صبراً وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين) (٦) .

الأصل الرابع : في أسباب الظفر والعون من الله تعالى وموجبات الهزيمة
أعاذنا الله .

المدة فيها الصلاح والتقوى في المسكر . قال تعالى (إن الله مع المتقين) (٧) ،
وقال (إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون) (٨) . وقال (استمينا بالصبر
والصلاة) (٩) ولا شك في أن الظفر مع العون ولا عون إلا مع قوم كان الله معهم .

(١) سقطت من نسخة [١]

(٢) في نسخة [ب] زيادة - ... سنة ثلاث وألف .

(٣) الولايات في رمانيا الحالية .

(٤) في نسخة [ب] - ... من خمسين سنة .

(٥) في نسخة [ب] - ... إن وقع .

(٦) سورة البقرة ، آية ٢٥٠

(٧) سورة البقرة آية ١٩٤

(٨) سورة النحل ، آية : ١٢٨

(٩) سورة البقرة ، آية : ١٥٣

فأتم ما يجب على السلطان والوزراء أن (١) يأمرُوا عسكرهم بالتقوى والصلاح والصبر والاملاء وينعموهم من الفسق والعصيان والليول إلى البدع والشبهوات . وذلك ميسر بحسن السياسة وال ضبط ويسهل بالالتفات إلى أختيارهم والإعراض عن أشرارهم :

ثم سبب دعاء الصلحاء من العلماء والشايخ والضعفاء والفقراء وهمتهم فإن همة الرجال تقطع الجبال . قال عليه السلام : لا يرد القضاء إلا الدعاء ولا يزيد في العمر إلا البر وقال عليه السلام : أتم منصورون بضعفائكم فلا بد من المراجعة والالتفات إلى هذه الطائفة بالإنعام والإحسان والاكرام لتنجذب قلوبهم وتشرح صدورهم إلى الدعوات للصلحات وحسن النيات فان فيها نقماً عظيماً للخواص والعموم . ويجب الاحتراز عما يوجب إيدائهم والاستخفاف بهم لئلا تنكسر قلوبهم ولا تنقبض صدورهم فان فيه ضرراً لجميع الأنام . وفي هذا المصير لا يشاهد ولا يرى فيما بين أكثر انورى إلا الاعراض والاستنكاف (والايذاء) (٢) والاستخفاء ، خصوصاً من الطائفة الخاصة ، أصحابهم الله .

ثم سبب همة السلطان وعزيمته على ضبط العسكر بالجود والاحسان والانعام عند الغلبة ، ثم الوفاء لمهده ، وللتهديد بالقهر والمقاب (٣) عند الحرب عن المحاربة : وقد شاع الحرب عن الزحف في حدود الروم خصوصاً في ديارنا (٤) . ولا بد من التقيد والاهتمام . إلا أن يكون الحرب للرأى (وللصلحة) (٥) كما قيل :

(١) سقطت من نسخة [١] و [ب]

(٢) سقطت من نسخة [ب]

(٣) في نسخة [١] - ... السياسة .

(٤) حدود البوسنة ، شرح أصول الحكم للانصارى ص : ٤٨

(٥) سقطت من نسخة [ب]

الطرب في وقته خير من الصبر في غير وقته . سأل عمرو بن العاص معاوية رضى الله
عنهما أرى لك في بعض الأوقات إقداما وأحكما بشجاعتك وأرى في بعضها إحجاما
وأحكما بجنبك فقال معاوية رضى الله عنه شعر :

شجاع إذا ما مكنتن فرصة إذا لم يكن لى فرصة فجبان :

ثم السبب عزيمة الجند على الخاربة لأعزاز دين الله وأعلاء كلمته لا لأخذ المال
وتبيل الجاه . قال عليه السلام : ثلاثة حق على الله عونهم : المجاهد في سبيل الله
والناكح يريد العفاف والمكاتب يريد الأداء .

ثم السبب طاعة العسكر وانقيادهم لأولى الأمر مع اتفاقهم وتألفهم بالتودد
والمؤاخاة وأمتناعهم عن التفرقة والمعاداة . هذا المعنى من أهم الأمور . وقد فقد
في هذا العصر حيث كثر الخلاف والشقاق ، وشاع بينهم العناد والنفاق ، فلا بد من
تدارك الاتفاق . فبعدمراعاة هذه الأسباب لابد من حسن الاعتقاد والتوكل على الله
الملك الوهاب ، والاعتماد والنوسل إلى معجزات رسوله الهادى إلى سبيل الصواب .
وأما ما يوجب الانهزام والانكسار ، وما يورث تسلط الكفار ، فهو الأهمال
في العمل بما تلونا من الاخبار ، والأصل فيه المصيان والبنى في العسكر فإن الله تعالى
أوحى إلى بعض أنبيائه إذا عصانى من يبرضى سلطت عليه من لا يبرضى . وقال
عليه السلام لا ظفر مع البنى ويدل [على هذا(1)] نظر المتل فإن الفحشاء والنسك
والبنى خيانة في الدين والخائن خائف والخائف لا يخلو من الانهزام . وقد بدأ
البنى في ديار الروم بين عما كر المسلمين منذ ثلاث سنين ، فإن كثيرا منهم طفوا
في البلاد ، واكثروا فيها الفساد ، بهتك أعراض المسلمين ونهب أموالهم ، والتعرض
للسواتم وأولادهم ، واغارة أرزاق الرعايا ، وايداء الفقراء والضعفاء ، خصوصا

(١) في نسخة [ب] - ... عليه

الطائفة الحامسة فسلط الله الاعداء على حدود الروم ، فبالنوا في المهجوم ، وأخذوا قلاعاً كثيرة ، وأظهروا هجمة كبيرة وفعلوا ما فعلوا ، وما وقع هذا في عسكر الإسلام إلا الأهمال الضبط والسياسة والتقصير في أداء وظائفهم وذخائرهم ، ولم يمرى أن أكثر ما وقع من الاختلال ما وقع (١) لا بسبب الطمع في المال ، من غير تمييز الحلال والجرام ، نيه الله قلوب الأمراء والوزراء عن هذه الأحوال أنه القادر الكبير المتعالى .

ثم السبب عدم ترقب الفرصة ثم التبرور واستصغار العدو فلا بد من التوبة والرجوع إلى الله المتعالى عن موجبات الضلال (٢) والتوقى عن الأهمال في تدبير المال . اللهم يا عول الأحوال حول حالنا إلى أحسن الحال . الخاتمة في الصلح والعهد .

قال تعالى (الصلح خير (٣)) ، قيل : الحرب صعبة والصلح أمن ومسررة . كينخسرو : أعظم الخطايا محاربة من يطلب الصلح . أردشير بابك : لا أستعمل السيف لمن عصى حينما يكفي العصا وما أتصدى للعدو بالوصول والنصل إذا كان يؤثر فيه قول الفصل . قيل : الصلح بقاء الآجال وحرم الأموال . قال الله تعالى (أن العهد كان مستولاً (٤)) ، وفي الحديث : خمس بخمس ما نقض العهد قوم الا ساط الله عليهم عدوم وما حكموا بنير ما أنزل الله الا فشا فيهم الفقر وما ظهر فيهم الفاشة الا فشا فيهم اللوت وما طفقوا للكيسال الا منعوا النبات وأخذوا بالسنين ولا منعوا الزكاة الا حبس عنهم القطر . وهذا آخر الكتاب والله أعلم بالصواب وفي هذا القدر لمن تأمل كفاية والكلام ليس له نهاية .

(١) سقطت من نسخة [ب]

(٢) في نسخة [ب] ... عن موجبات الغفلة والضلال .

(٣) سورة النساء آية : ١٢٨

(٤) سورة الاسراء آية : ٣٤

يا عالما بجميع الحمال في الطلب نرجو النجاة من الاحزان والكرب
اعط الخلاص من الأوزار قاطبة وأرحم عبيدك خلصنا من التيب

ربنا اغفر لنا ذنوبنا وأسرفنا في أمرنا وثبت أقدامنا وأنصرنا على القوم
الكافرين (١) . اللهم أنصر جيوش المسلمين وأنصر عساكر الموحدين واكتب
السلامة على الحجاج [والنزاة والمجاهدين] (٢) وصل على رسولك محمد وآله وصحبه
أجمعين . (والحمد لله رب العالمين) (٣) .

[وقد وقع الجمع والانتام بعون الله الملك الملام في ذى الحجة الحرام لسنة
أربع والف من هجرة النبي عليه السلام (٤)] .

(١) سورة آل عمران ، آية : ١٤٧

(٢) سقطت من نسخة [١]

(٣) سورة الفاتحة ، آية : ٢ .

(٤) وقد جاءت في ختام الترجمة التركية الموجودة على هامش المتن العربي في نسخة . به .

نقد الكتب

obeikandi.com

obeikandi.com

عرض كتاب

Modern History of the Arab Countries

تأليف : V. Lutsky

إن كتاب « لتاريخ الحديث لدول العربية » عمل على من تأليف
فلاذير لونسكى (الذى عاش فى الفترة من ١٩٠٦ حتى ١٩٦٢) والذى يمد من أشهر
المؤرخين السوفيت للتخصصين فى تاريخ الدول العربية .

ويعد هذا الكتاب أول محاولة فى المؤلفات السوفيتية والروسية لكتابة تاريخ
عام للدول العربية مجتمعة . ولا يفتى ذلك أنه لا توجد كتابات عن العالم العربى ؛
فهناك كثير منها ، ولكن عن دول عربية بمينها .

يتناول الكتاب التطورات السياسية والدبلوماسية الرئيسية فى التاريخ العربى
منذ الفتح التركى حتى هدنة موردس Mudros عام ١٩١٨ التى وضمت حداً للحكم
التركى فى الشرق العربى . ويتعرض المؤلف للتسلسل الأجنبى فى الدول العربية وسيطرة
الأوروبيين عليها . كما تفتى صفحات كثيرة من الكتاب بالتطورات الداخلية للدول
العربية وإصلاحاتها وظهور فكرة القومية وحركات التحرر الوطنى . كما يتناول
الكتاب حملة نابليون وفترة حكم محمد على والحروب التى أثارها وثورة عربى فى
مصر عام ١٨٨٢ . وقيام الدولة الهدية فى السودان (١٨٨١ - ١٨٩٨) ونضال
البدو الجزائريين ضد السيطرة الفرنسية بقيادة الأمير عبد القادر . وكذلك الحركة
الوهابية فى الجزيرة العربية ثم الثورة العربية التى نشبت خلال الحرب العالمية الأولى .

وقد وضع الكتاب أساساً باللغة الروسية ثم طبع له الترجمة الإنجليزية — التي
بين أيدينا — في موسكو عام ١٩٦٩ . ويحتوى الكتاب على سبعة وعشرين فصلاً
بالإضافة إلى مقدمة وثلاثة فهارس هي : فهرس بالإعلام — فهرس بالأسماء
الجغرافية — فهرس بالموضوعات . ويقع الكتاب في ٤٢٢ صفحة من القطع
للتوسط .



ومن الناحية المنهجية لم يثبت الكتاب المصادر التي اعتمد عليها ، سوى ما ورد
في بعض حواشيه هنا وهناك لبعض الكتب وبصفة خاصة مؤلفات كل من ماركس
وانجلز ولينين وبعض المؤلفات التاريخية الكلاسيكية لكل من : Cromer,
Young, Elgood, Palgrave, Rothstein . كما ورد في متن
الكتاب إشارات لكتابات قلة من المؤلفين العرب هم على سبيل التعميد الجبري .
وجورج أنطونيوس ومحمد صبرى .

وربما يؤخذ هذا التصور من حيث قلة الاستعانة بالمصادر الغربية مثل هذه
الدراسة العلمية . ولكن نظرة فاحصة للكتاب ومادة التاريخية تثبت عكس ذلك .
ومررد ذلك — في اعتقادي — إلى أن المؤلف لم يهد له أن يتولى نشر كتابه بنفسه
أو الإشراف على ترجمته إلى الإنجليزية عند طبعه ؛ حيث تم ذلك بعد وفاته . يضاف
إلى ذلك أن معظم فصول هذا الكتاب عبارة عن محاضرات ألقاها مؤلفه على طلبة
جامعة موسكو ومعهد الدراسات الإفريقية والشرقية وغيرها ، أو هي مقالات
وبحوث نشرت في المجلات العلمية المتخصصة . ثم جمعت هذه المحاضرات والبحوث
ووضعت في كتاب — هو الذي بين أيدينا — . ربما كان ذلك من وراء عدم
إثبات المصادر بالطريقة التقليدية سواء في حواشٍ البحث أو في ثبوت مستقل في نهايته

وقد يرجع ذلك أيضاً إلى أن المؤلف لم يكن ليعنى وقتها بطبعها .

وهي أية حال يبدو واضحاً أن المؤلف استفاد في بحثه هذا بالمديد من المصادر العربية وغير العربية . يتضح ذلك من الدقة في كتابة المصطلحات التاريخية والأسماء العربية والتركية وغيرها . وهي دقة يحسد عليها مؤلف أجنبي ، وإن كانت هناك بعض الأخطاء إلا أنها ضئيلة جداً تكاد ولا تظهر في الكتاب من ناحية ، ومن ناحية أخرى لا يمكن مقارنتها بنيرها من الأخطاء التي ترد في الكتب الأجنبية الأخرى التي تناولت تاريخ العالم العربي في نفس الفترة وخاصة من جانب الكتابات والمؤلفات العربية .

والكتاب في جملته جديد في منهجه ووجهات النظر التي يطرحها . ربما يرجع ذلك إلى وهي المؤلف بالأحداث التاريخية ومقدرته على تحليلها ونقدها وردها إلى منابعها الحقيقية التي خرجت منها . وينبغي أن نشير إلى تلك الدراسة القيمة عن المجتمع اللبناني : ظروفه الاجتماعية والاقتصادية والسياسية في القرون ١٦ ، ١٧ ، ١٨ والتي كانت من وراء قدرة المؤلف على تفهم طبيعة التاريخ الحديث للعالم العربي .

ولسوف أشير إلى مصر وتاريخها كثال لوجهة النظر الجديدة تلك . وهي التي يمكنني أن أتمرض لها بشيء من الثقة .

فالتفسير والنظرة التي نظر بها الكتاب إلى كل من أعضاء أسرة محمد على إبتداء منه هو ذاته حتى اسماعيل ؛ نظرة تقدمية ترى أنهم ساعدوا وعجلوا بقيام بورجوازية مصرية على الخط العربي مما يدفع بحركة التطور خطوة إلى الأمام . في نفس الوقت الذي لم تتناض مطلقاً عن إبراز أخطائهم العامة في حق مصر وشعبها ومنها :

أن للؤلف بعد أن يورد دراسة إقتصاديه رقيمة لديون مصر لكل من الدول الأجنبية وبنوك أوروبا من ناحية ، والشعب المصرى من ناحية أخرى، يبين مدى ما تمت به الأولى من حماية وصناعات وأرباح طائلة ، في نفس الوقت الذى يوضح مدى الثمن الذى عومت به ديون المصريين أنفسهم ، فمن مزايا محدودة جداً إلى محاورة ثم إلى مصادرة في نهاية الأمر . وهى نظرة ذات دلالة باعتبارها كانت إيداناً بوضع مصر تحت السيطرة الأوربية ثم الإنجليزية في النهاية إلى درجة بعد الاحتلال المسكرى معها نتيجة حتمية .

وكرر فعل لذلك كان لزاماً على المصريين أن يدافعوا عن أنفسهم ضد السيطرة الأجنبية أولاً وقبل كل شىء بعد أن أدركوا أن غضبهم على خديويهم أمر لا يفيد في قليل أو كثير لإدراكهم مدى خضوعه لدائنيه الأجانب من حكومات وبنوك وغيرها وهو الأمر الذى دعا حكومات تلك الدول صاحبة « الامتيازات » في مصر إلى التوحد في تصديها لحركة المصريين ، كما دفعها إلى أن تسلم لانجلترا في النهاية — رغم ما كان بينها جميعاً من تنافس — « بالوصاية » على مصالحها في مصر وهو إذا لم يعد إقرارها جميعاً بوضع إنجلترا في مصر كأمر واقع فهو على الأرجح يعد من قبيل « التعامل مع الحاكم الأقوى » في مصر ، إن لم يكن حاكمها الوحيد .

ومن التفسيرات للوضعية التى يوردها الكتاب ، تحليله لموقف اسماعيل من الحركة الوطنية بل محاولته تشجيع قيام حركة وطنية مناوئة للسيطرة الأجنبية عندما أحس بوطأتها . ومن ثم تصدى تلك القوى له وعزله في النهاية دون إذاعة خبر الغزل على الشعب — الذى كان قد ساند خديويه في هذا الموقف لتوحد رغبتهما معاً — إلا بعد رحيله عن مصر وإقامة حاكم جديد مروف « بجهله » — وهو ابنه توفيق — مما ساعد في تنفيذ مخططات تلك القوى الأجنبية . وبالرغم من ذلك

وبالرغم من ذلك قام الشعب - أو على الأصح - انفتحت لثق علمت بخبر العزل بالتصير عن غضبها تجاه قرار العزل في شكل مظاهرات . وهو ما يفسر قوة حجم هذه المظاهرات كيفاً وكماً .

وكذلك من التفسيرات الطريفة طبيعة الخلاف الذي شب بين جناحي الحزب الوطنى - أو بمعنى أدق - الحزبين الوطنيين الذين تكون كل منهما فى عام واحد هو عام ١٨٨١ ، أحدهما بزعامة شريف وسليمان ، والآخر بزعامة عرابى ورفاقه . وهو خلاف بين ما يمكن تسميتهم « بالمتدلين » و « للتطرفين » فى الاتجاه الوطنى والحرص على المصالح الوطنىة . بعد أن نجحوا مؤقتاً أمام مقاومة حكومة رياض « الرجىة » التى بدت مصرىة فى ظاهرها وإن كانت أجنبىة فى جوهرها . وبعد أن نجحوا ممأ فى إسقاطها كان لزاماً أن يفتروا بفعل التناقضات القائمة بينها من حيث تمثىل كل منهما للطبقة التى ينبع منها ويعبر عن مصالحها .

وإذا كان للتطرفون قد وقموا أولاً فى خطأ فادح بقصر مطالبهم على مصالح ذاتىة دون تصديها لمطالب كل الجماهير ، فإنه كان خطأ مزدوجاً حين سمحوا لأنفسهم بالتعاون مع « للمتدلين » ما أتاح الفرصة للقوى « الرجىة » للمثلة فى الحدىو توفىق - التى كان يمثىل المصالح الأجنبىة أكثر من تمثىله للشعب الذى يحكمه - بأن تأخذ زمام المبادرة فى كثر من الأحيان ، وهو ما أجهض حركتهم حتى بعد أن أتىحت لهم فرصة الحكم والالتحام بالجماهير بل والتصير السكامل عن مطالبها وذلك بعد مقابله سبتمبر ١٨٨١ الشهىرة التى لم تكن لتوافق عليها القوى الأجنبىة ومصالحها من ورأها .

وقد تمثلت التقطىمة بين الحزبين عندما رفض الجناح « المقول » بزعامة شريف تولى الحكم مستنداً على حماىة أجنبىة فاقمة بعد أن بدا له سندا آخر ممثلاً فى أعضاء مجلس النواب « ممثلى الشعب » أو على الأدق ممثلى مصالحهم . الأمر الذى يفسر

سلسلة الأخطاء للتلاحقة التي وقع فيها هذا الجناح المتدل ، والذي عاد من جديد إلى مهادنة « للتطرفين » في مواجهة النظرمة الأجنبية وتهديده لسيادتها واستقلالها . وإن كانت قمة القطيعة بدت جلية عندما حاول للتطرفون - أثناء تقلدهم السلطة - التلويح بإصلاحات شعبية ، زراعية في الحقل الأول مما أزعج « للمتدلين » على مصالحهم فباتوا يناوئونهم إن لم يكن يستعينوا عليهم بالحديو وحقى بالأجانب حيث التقت مصالحهم جميعاً أمام ذلك الخطر الجسيم . مما يؤكد تفويتهم الفرصة على للصريين عند محاولتهم للتخلص من السيطرة الأجنبية ومنحها للأجانب ممثلين في إنجلترا لأحكام قبضتهم على مصر ومواردها .

وقد حاول الحديو - ممثلاً لهذه المصالح ومسئولاً عنها - أن يضرب « للتطرفين » - أثناء تقلدهم السلطة - بمرض تفويض حركتهم مما كان سيئاً في خلاف حاد وقع بينه وبينهم إلى أن يوغل في طرفه تجاه الآخر . وليس صحيحاً أن مسألة « البرزانية » كانت هي السبب الرئيسي في الأزمة القائمة وقتذاك . بل إنها كانت واجهة لذلك الخلاف الذي دفع للتطرفين إلى التمسك بمزل الحديو أولاً وقبل كل شيء .

وأمام قوة « للتطرفين » للتعاظم - بالتفاف الجماهير حولها - ارتدى الحديو ورجاله في أحضان الأجانب مما سمح بالاحتلال في النهاية . وإذا كان من خطأ جسم آخر وقع فيه « للتطرفون » - بعد هزيمة التل الكبير - فذلك أنهم وقعوا تحت تأثير « للمتدلين » ونصائحهم بالتسليم في نفس الوقت الذي وضع فيه تماماً مدي التعاون للطلق بين « للمتدلين » والقوي « الرجعية » لتدعمة بالأجانب .

وتحدث للأولف عن طبيعة الحركة الوطنية التي برزت بعد حقبة من وجود الاحتلال فيرى أنها كانت ذات سمات « رجعية » عندما نادى بإحياء الإسلام - أو ما عرف بحركة « التجديد » - ممثلة في محمد عبده ومدرسته ، عن طريق بعض

الإصلاحات الاقتصادية والثقافية كما أنها قبلت مبدأ « الكفاح السياسي » أسلوباً لمواجهة السيطرة الأجنبية .

وقد أخذت تلك الحركة الوطنية شكلاً آخر على يد مصطفى كامل : الذي كان كان تعاوناً مع جماعة الكتاب الفرنسيين الاستعماريين أمراً له مغزاه ولم يكن مجرد صدفة عارضة . ذلك لأنه يمثل فكرة مصطفى كامل القائمة على استخدام التناقض القائم بين مصالح المستعمرين الأجانب كوسيلة للحصول لمصر على بعض المكاسب . وإن كان ذلك يمد استمراراً للخطأ الذي وقع فيه الجيل السابق من حيث تناضيه عن قوة المصريين القادرات ومدى ما يمكن أن تحققه مصلحة مصر والمصريين . بالإضافة إلى وقوعه في نفس خطئهم المتمثل في استخدام « التهيج السياسي » أسلوباً « الكفاح » . وقد استمر ذلك قائماً حتى حادثة دنشواي في يونيو ١٩٠٦ عندما أجبر الاحتلال على التنازل - بعض الشيء - للمصريين ، ولكن دون أن يغير الوطنيون شيئاً من أساليب عملهم ، ربما لاعتقادهم أن « الكفاح السياسي » قد حقق لهم بعد ما كانوا ينشدون .

كل ذلك في نفس الوقت الذي قدرت فيه بريطانيا ضرورة إنتهاج سياسة جديدة مع الوطنيين بمحاولة خلق حزب من المصريين « أصحاب المصالح الحقيقية » - كما كانوا يسمون - بالإضافة إلى محاولة كسب ود الحديدو باعطائه قدراً يسيراً من الحرية كمحاولة لانتزاع كل منهما من برائن الوطنيين أولاً ثم دفعهم لمساءمتها وتأييد سياستها تانياً .

وما كتب عن مصر بهذه النظرة الواعية كتب عن سائر البلدان العربية الأخرى التي تناولها للأؤاف بالدراسة ، ولعل مرجع ذلك هو أن المؤلف كتب كتابه - بحوث - من وجهة النظر المادية كما صرح بذلك واضح مقدمة الكتاب ، وهي

وجهة النظر التي تجعل للمجتمع بكل طبقاته — مدفوعاً بعوامل اقتصادية — الكلمة العليا في تشكيل مواقفه وفرض نفسه على الأحداث أولاً وأخيراً .

وهذا المنهج الذي عولج به هذا الكتاب جديد ولا شك ، ربما نحس أننا في حاجة إلى استخدامه عند كتابة تاريخنا بأنفسنا حتى — على الأقل — نخلق توازناً مع ذلك المنهج الذي ظل لفترة طويلة يكاد يكون المنهج الوحيد لكل من ساهم في كتابة المجتمع العربي الحديث ونعني به المنهج المثالي الذي يركز على الشخصيات وأدوارها في صنع التاريخ .

إعداد

عبد الخالق محمد لاشين